DNA الكون

((ميثولوجيا))

كتاب يقارب مغالطات شائعة

د . غفار محمد

DNA الكون...

DNA الكون...

الإهداء :

إلى كل باحث عن الحقيقة يأبى الوقوع

في فخّ مغالطات الحياة ..

DNA الكون ...

محتوى الكتاب :

- مغالطة إيكو (لعنة حورية)
- مغالطة الأخوة الأعداء !! (بيضة واحدة متحدة)
- مغالطة حلال على الشاطر (سيزيف ملك التزييف)
- مغالطة يوم القيامة (نهاية البداية و بداية اللانهاية)
- مغالطة الكوكب المضجر (ما خفي كان أعظم)
- مغالطة ميثولوجية (تفسير ما لا يفسّر)
- مغالطة لو أنّي (ندامة الكسعيّ)
- مغالطة لن أسجد لآدم (نرسيس)
- مغالطة النفق الكمي (DOCTOR STRANGE)
- مغالطة تيلوميراز (حصان طروادة)
- مغالطة الإرهاب (القوة كقناع للخوف)
- مغالطة برديّة فيزاليوس (مشرط حجري)
- مغالطة المعجزة (عندما تسجد القوانين و يتنحى المنطق)
- مغالطة DNA الكون (البرمجة المسبقة)
- مغالطة جسد للإيجار (بل الإنسان على نفسه بصيرة)
- مغالطة أساطير حيّة (واقع أغرب من الخيال)
- مغالطة الدنيا دوّارة (يخرج الميّت من الحيّ و الحيّ من الميّت)
- مغالطة يوم ممل (أحداث غيرت وجه التاريخ)

إيكو

(لعنة حورية)

قد يقف الإنسان الفضولي طويلًا عند تخوم السؤال، ذاك السؤال الذي لا يطرحه العقل البسيط الغارق بتفاصيل الحياة اليومية و أعبائها ، بقدر ما تطرحه النفس العطشى للغموض : أين يقلع كوننا وإلى أين يتّجه ؟ أيتوسّع إلى غير نهاية كما تتسع البحار في خيال شاعرٍ جائع للمطلق؟ أم أنه مسرح ذو جدران غير مرئية، يكبر حتى يبلغ سقفه المرسوم، ثم يتوقّف كما تتوقف الموجة عند الشاطئ، تاركة وراءها سرًّا لا يُفصح عنه ؟

إن فكرة الحدود ليست رياضية فحسب، بل هي نافذة على المصير. فالقول أن كوننا بلا حدود يعني كونًا يركض في الظلام إلى الأبد، محكومًا بقوانين باردة لا قلب لها ولا غاية، بينما الإيمان بالحدود هو إيمان بأن هناك يدًا حكيمة رتبت المشهد، وضبطت ساعة الخلق،

وحدّدت اللحظة التي عندها يغلق الستار ليُفتَح ستار آخر. هنا يصبح السؤال فلسفيًا بامتياز : هل نحن مجرّد صدًى في فراغ، أم أننا جزء من مخطوط إلهيّ تتوالى فصوله عبر أكوان متعاقبة ؟

وربما، وراء هذه التخوم التي لا تراها تلسكوباتنا، لا يقبع الفراغ العقيم، بل يقيم وعدٌ آخر، وعدٌ بحدائق غيبية صيغت من ضوءٍ ناعم وطمأنينةٍ مطلقة. هناك حيث تتهادى أجسادنا السماوية كطيور من بلور، تغفو على ضفاف النور في انتظار لحظة اليقظة الكبرى. لحظة رنين جرس كوني لا يسمعه إلا من خُلق له، فإذا دوّى، انبثقت الأرواح من سباتها كما تتفتح الأزهار فجأة مع شروق شمس أبدية، وبدأت أسطورة أخرى، أوسع وأبهى : أسطورة العودة إلى الأصل، إلى الجنان التي وعد الله بها من آمن بسفر هذا الكون.

الكون إذن ليس مجرّد معادلات جامدة ولا فوضى أزلية بلا غاية، بل قد يكون سطرًا في كتاب أكبر، يتنفّس كلما تمدّد، ويبوح كلما تلاشى، حتى إذا بلغ نهايته، قلب الخالق الصفحة وبدأ فصلًا جديدًا. وما نحن إلا مسافرين بين السطور، نحمل دهشتنا ونمضي، نبحث عن إجابة في وجه السماء، وفي صمت الليل، وفي الحنين العميق الذي يسكن صدورنا، ذلك الحنين الذي يهمس دائمًا : لا بد أن وراء هذا الكون بابًا آخر ، و حكاية أخرى ، و

موعدًا لم يحن بعد ..

تخيّل أن الإنسان، وقد أرهقته الأسئلة، يبتكر يومًا ما جهازًا مهيبًا يعمل بمبدأ الإيكو ذاته؛ كما يرتد الصدى من جدران الوادي، كذلك يرسل هذا الجهاز نداءه نحو أبعد نقطة يمكن أن يبلغها الضوء. إشارات تُقذَف في صمت الفضاء، ثم يجلس الإنسان مترقّبًا رجع الصدى من خلف حدود الكون. فإن عاد الصدى، عاد حاملًا سرًّا مهيبًا : أن وراء هذا الامتداد ما يتخطى المجرّات والقوانين. وربما يكون ذاك الصدى نفسه نداءً من العالم الآخر، يعلن أن الفراغ لم يكن فراغًا قط، بل ستارًا يخفي حقيقة أعظم. عندها سيسجد الإنسان أمام الاكتشاف، مدركًا أن الكون لم يكن نهاية السؤال، بل بدايته ..

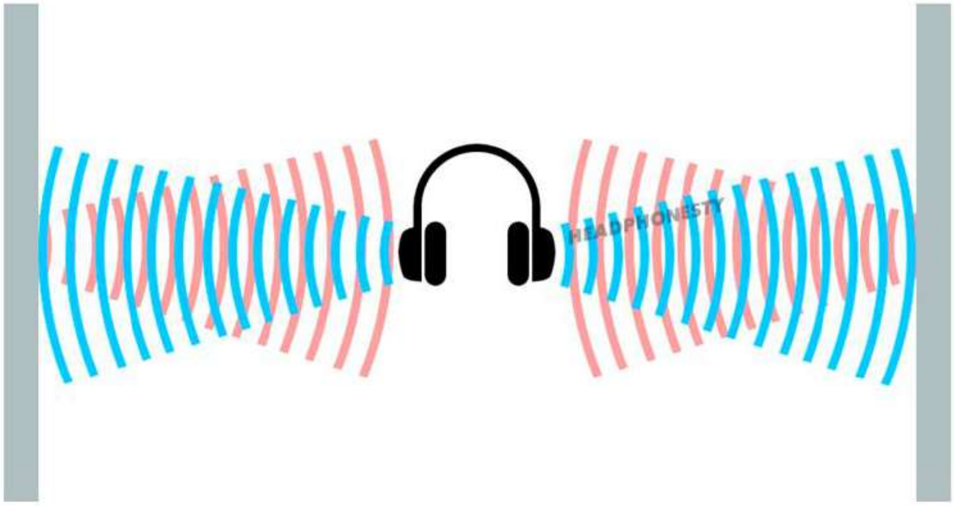

الجهاز المتخيَّل، القائم على مبدأ الإيكو الكوني، سيكون أشبه بقلب نابض يرسل نبضاته في عروق الفراغ. ينطلق شعاع من الطاقة المركّزة، ليس كضوءٍ عادي،

بل كرسالة مُشفّرة تبحث عن جدار خفي في أقصى الكون. يسبح النبض عبر المجرّات، يعبر سُحب الغاز والظلام، ويظلّ مندفعًا كطائر يبحث عن صخرة يرتدّ منها صوته. فإذا ما لامس حدودًا —— سواء كانت حقيقية أم ستارًا غير منظور —— عاد رجع الصدى محمّلًا ببصمة من هناك، إشارة تؤكد أن خلف الامتداد صوتًا آخر ينتظر الإنصات. سيجلس الإنسان غداً في مستقبلٍ عظيم، أذنه على حافة الزمان، يترقّب ارتعاشة صغيرة في الموجة، فيكتشف أن سؤألنا الأول لم يكن لغزًا فارغًا، بل مفتاحًا لطريق. هكذا يصبح الجهاز جسرًا بين الفراغ وما وراءه، مرآةً تعكس المجهول، ولعلها تصافح يد الخالق عبر ومضةٍ مرتدّة من البعيد البعيد.

****

من يدق الباب يسمع الجواب ..

مثل شعبي شائع في تراثنا .. يخبرك أن لكل فعل رد فعل .. و لكل سبب نتيجة .. و .. لكل صوت صدى أو كما يسمى عالمياً (إيكو) ..

من هذه الحقيقة انبثقت فكرة الإيكو .. ليس كميثولوجيا فحسب بل كجهاز يتيح للإنسان إمكانيات جمة بدءاً من اكتشاف جسده ، مروراً باكتشاف كوكبه ثم اكتشاف الكون برمته .... انتهاءً ربما بما هو أبعد من ذلك .. ما

هو قابع خلف حدود هذا الكون ، أي الكون الأكبر المجهول بالنسبة للبشر و الذي تعرج إليه الأفكار عبر حقب التاريخ المتسلسلة ..

و رغم هذه التأثيرات الهائلة لمبدأ الإيكو و الأجهزة المعتمدة عليه ، يبقى من الأجهزة المظلومة إعلامياً ، فهو - على خلاف القنبلة الذرية مثلاً التي تحصد أرواح الملايين في غمضة عين لذا تحتل مساحة كبيرة من تفكير الإنسان عقله و حديثه – جهاز مسالم بسيط لا يضر على الإطلاق ، بل ينفع لأقصى الحدود .. لذا لا يعيره البشر أي اهتمام ، لأنه في متناول اليد و لا يمكن أن يؤذيهم .. أو بالأحرى لا يريد أن يؤذيهم .. لذا سأجعل من هذه المغالطة الفكرية الجائرة بحق الإيكو مساحة لاستعادة حقوقه ، إظهار محاسنه و التعريف بها لمن يجهلها .. حيث سنقارب بدقة أكثر هذه الكيان الوديع بتحليله من الزوايا الأربعة التالية :

① إيكو الحورية ..

② آلية عمل الإيكو ..

③ استخدامات الإيكو ..

④ الإيكو من زوايا أخرى ..

فهيا بنا عزيزي القارئ نسأل الأسئلة و ننتظر صدى الأجوبة الشافية عليها ..

أولاً ، الإيكو كأسطورة :

في البدء لم يكن سوى صوتٍ عارٍ يتردد في الفضاء، يبحث عن جدارٍ يحتضنه، عن صدرٍ يعيده من الغياب. ومن رحم الجبال ولد الإيكو (الصدى) ، روح الصوت العائد من مسافةٍ بعيدة. لم يكن انعكاسًا فحسب، بل كان حياةً ثانية للصوت الأول، كأن الزمن يخجل أن يترك الهمسة تموت، فيمنحها فرصة أخرى للبقاء.

في أساطير الإغريق، كانت "**إيكو**" حورية تتكلم كثيرًا، تغازل الكلمات حتى أغضبت الآلهة، فحكموا عليها بأن تفقد حرية لسانها و هبة كلماتها ، فلا تقول إلا ما يُقال لها و تردد كلام الآخرين مراراً و تكراراً كأنه صدى ..

لم يعد لها صوتها الخاص، بل صارت مرآة الكلام، ظلّ العبارة، العروس التي لا تُزفّ إلا إلى أصداء الآخرين. أحبّت نرسيس، فرفضها، وظلت تردد اسمه حتى ذاب جسدها، ولم يبق منها إلا الحنجرة... إلا الصدى. ومنذ ذلك اليوم، كل جرفٍ ينادي اسماً، يسمع رجعاً غامضاً هو دمعة تلك الحورية إيكو التي لم تمت تمامًا.

ثانيًا ، آلية عمل الإيكو كجهاز :

كأنك تضع أذنك على قلب الكون لتسمع خفقاته، هكذا يعمل جهاز الإيكو.

هو ليس مجرد آلة، بل شاعرٌ يكتب قصيدته بموجات، يرسل ذبذباته الصوتية في عمق الجسد، لترتدّ إليه محملةً بأسرار الأنسجة والدماء.

الموجات فوق الصوتية، التي لا يسمعها الإنسان، تنطلق بخفة الطير، وتعود كأنها مرايا تلتقط صورًا غير مرئية للعين.

كل ارتدادٍ هو كلمة، كل اختلاف في الصدى جملة، والجهاز ينسج من هذا النسيج لغةً بصرية تُترجم نبض الحياة.

في غرفة صغيرة، يتجسد العلم في هيئة ضوءٍ وصوت، يربط الفيزياء بالطب، والفلسفة بالوجود، إذ يكشف المخفي دون أن يمسّه.

إنه فن الإصغاء لما وراء الصمت، حيث العروق تغني، والعضلات تهمس، والقلب يبوح بأعمق أسراره ، و الجنين يطمئننا : أنا بخير .

العقل حين يتأمل عمل الإيكو يدرك أن المعرفة ليست دائمًا بما تراه العين، بل بما يلتقطه الصدى في الأعماق.

إنه حوار بين الموجة والجسد، بين التقنية والحياة، بين العلم والخيال.

ومثل متصوفٍ يقرأ الإشارات الخفية في الكون، يقرأ الطبيب صور الإيكو ليفهم اللغة المستترة تحت الجلد.

هكذا يصبح الإيكو جسرًا بين الغموض والوضوح، بين المجهول والمعرفة، بين الصمت والكشف.

ثالثًا ، استخدامات الإيكو :

لتقنية الإيكو استخدامات في جميع مجالات الحياة لا مجال لذكرها كلها في مغالطة محكومة بعدد صفحات معين .. لكن لعل أبرز هذه الاستخدامات هو :

۞ الاستخدامات الطبية :

= تشخيص الأمراض : تصوير الأعضاء الداخلية مثل الكبد، الكلى، الطحال، الغدة الدرقية.

= طب القلب : تقييم حركة عضلة القلب، عمل الصمامات، كمية الدم المتدفق.

= متابعة الحمل : تصوير الجنين وتقييم نموه وصحته.

= الإجراءات التداخلية : توجيه الإبر أثناء أخذ الخزعات أو تصريف السوائل.

❁ الاستخدامات البيولوجية :

= دراسة نمو الأنسجة الحية والتغيرات البيولوجية في الحيوانات والنباتات.

= مراقبة عمليات فسيولوجية مثل تدفق الدم أو حركة العضلات.

❁ الاستخدامات البحرية :

= السونار (Sonar) : يعتمد على مبدأ الإيكو لتحديد مواقع الأجسام تحت الماء (غواصات، سفن غارقة).

= دراسة أعماق البحار ورسم الخرائط الطبوغرافية

لقاع المحيط.

= تتبع حركة الأسماك والكائنات البحرية.

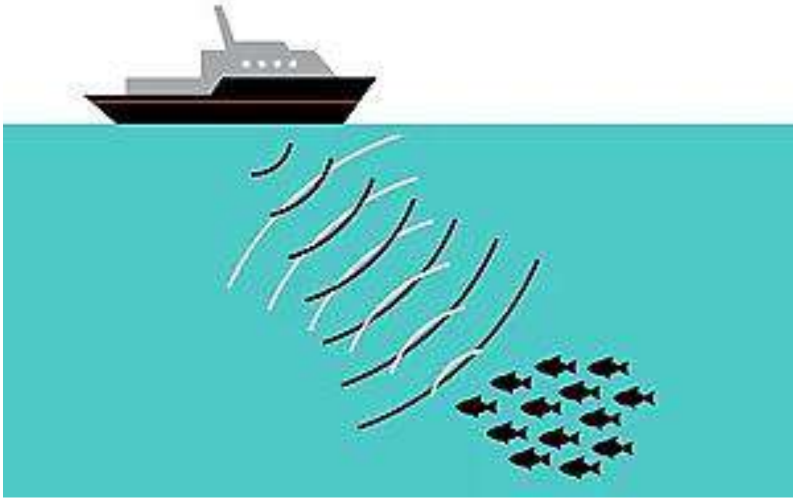

۞ الاستخدامات الصناعية :

= الفحص غير الإتلافي (NDT) : الكشف عن الشقوق أو العيوب في المعادن والخرسانة دون تدميرها.

= قياس سماكة المواد (مثل جدران الأنابيب و الخزانات).

= مراقبة جودة اللحام.

۞ الاستخدامات في الجيولوجيا والجغرافيا :

= فحص الطبقات الجوفية في الأرض.

= البحث عن النفط والغاز والمياه الجوفية.

= دراسة الزلازل والبراكين باستخدام الموجات الصوتية.

❁ الاستخدامات في علم الحيوان :

= دراسة سلوك الحيوانات التي تستخدم الصدى (مثل الخفافيش والدلافين).

= تحليل أنظمة الاتصال الصوتي عند الكائنات البحرية.

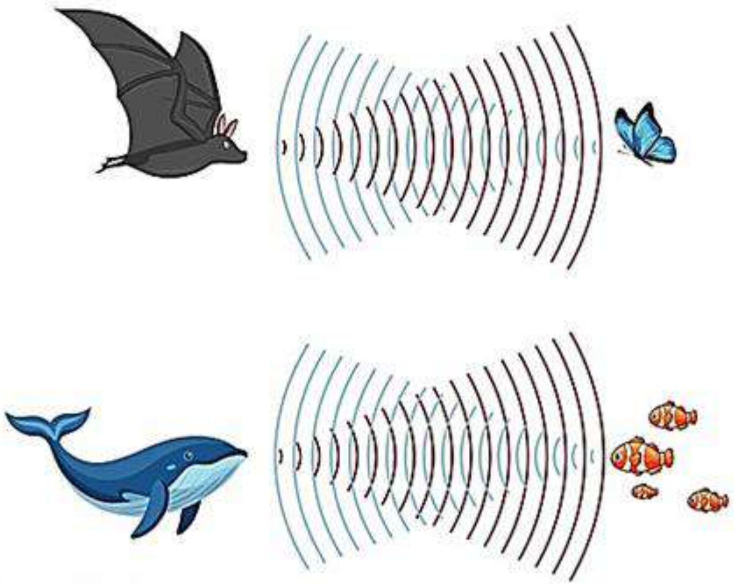

رابعًا ، الإيكو من زوايا أخرى :

للإيكو أصداء في مختلف نواحي الحياة .. الشعراء كانوا أول العشّاق للصدى. فهم يعرفون أن الكلمة حين تعود من الفراغ، تصبح أثقل، أعمق، كأنها تُجرّب أبدية صغيرة. الصدى في القصيدة ليس مجرد تكرار، بل هو حيلة الذاكرة كي تحتفظ بالمعنى، ووسيلة القلب ليقيس عمق وحدته. يقول الشاعر في سره : (أرددك لكي لا تفلت مني، أكرر اسمك لأنني أخشى أن أنساك) ، فيجيبه الإيكو : (أنا هنا... أنا أنت) ..

أما الفلاسفة فرأوا في الإيكو استعارة للوجود نفسه. فما نحن إلا أصداء لأرواحٍ سبقتنا، وظلال لأفكارٍ تُعيد إنتاج نفسها عبر العصور. كل جيل يظن أنه يبتكر، وهو في الحقيقة يسمع رجع أصوات الماضي. حتى الحرية التي نحلم بها، ربما هي مجرد صدى قديم يتكرر في كهوف البشرية. لكن، أليس في الصدى جمالٌ آخر ؟ إنه لا يُعيد الشيء كما هو، بل يُعيده مشوّهاً قليلاً، مضطرباً قليلاً، كأن الحقيقة لا تصل إلا عبر اهتزازات الغياب.

الفن التشكيلي أحبّ هذه الأسطورة بدوره . رسم **بوسان** لوحته الشهيرة **إيكو ونرسيس** ، وجعل الحورية واقفةً في الظل، تنظر إلى الفتى الذي لا يرى إلا انعكاسه في الماء. هنا يتضاعف الإيكو: صدى صوتٍ يتحول إلى صدى صورة. وما الفن سوى هذا : تكبيرٌ خافت لرجعٍ داخلي، ترديدٌ آخر لصوتٍ مجهول يسكننا.

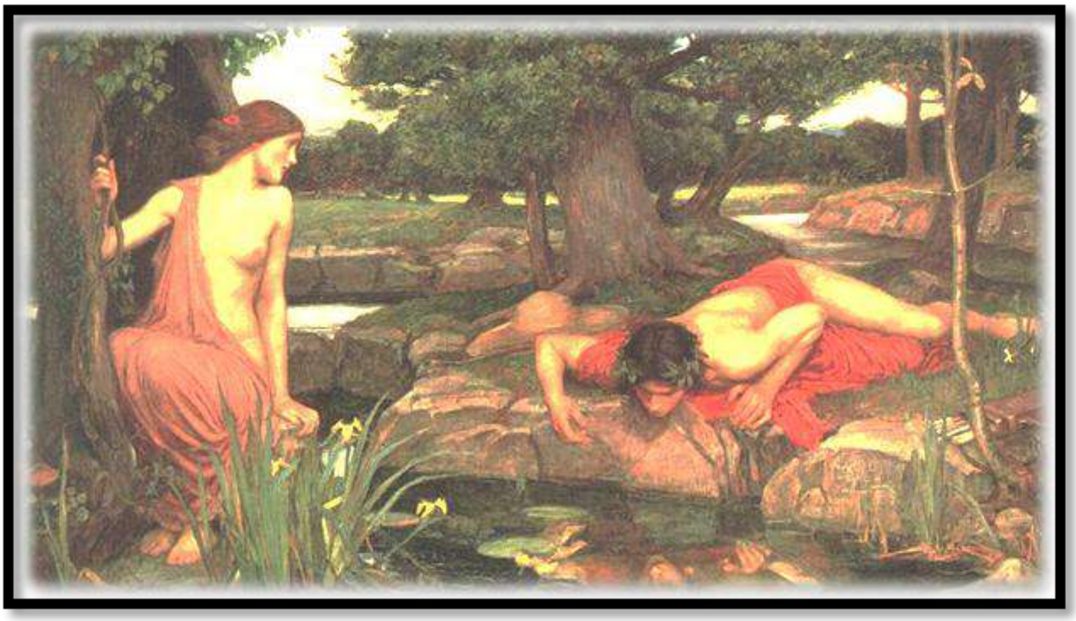

في الطبيعة ، مهد الإيكو الوثير ، يأخذ الصدى مجده و يحن لطفولته ..

أدخل كهفًا، وأصرخ : أنا !

فيردّ الجبل عليك : أنا... أنا... أنا ...

لحظة سحرية، كأن الكون يعترف بوجودك .. الطبيعة ليست صامتة؛ الجبال لها حنجرة، والبحار لها آذان. الإيكو هو حوار سرّي بين الإنسان والعالم، علامة أن الأصوات لا تضيع، بل تعود في هيئة أخرى. أحيانًا يعود الصوت أوضح، وأحيانًا يعود مكسورًا، كروحٍ لم تجد السلام.

في مختبرات العلماء، لم يعد الصدى مجرد حكاية رومانسية. صار أداة كشف. الموجات فوق الصوتية تطرق جدران الجسد، وتعود لتخبر الأطباء عن قلوبنا، عن أجنتنا، عن شرايينا الملتوية. أصبح الإيكو حارسًا

داخليًا، عينًا تستمع بدل أن ترى. وفي البحار، تحوّل إلى سونار يكشف أعماق المحيط، يبحث عن الحيتان والسفن الغارقة. الصدى صار عينًا لا تُخدع بالظلام.

و حين يخلق العازف نغمة، وتعود إليه من جدار المسرح مضاعفة، يشعر أن الزمن نفسه يغني معه. الصدى ليس تشويشًا، بل إضافة؛ إنه يوسع الأفق الصوتي، يجعل الأغنية أكبر من حنجرتها، أوسع من حدود اللحن. الموسيقى بلا صدى كهمس في فراغ، أما معه فهي حوار مع المدى.

نفسياً ، نحن نحمل أصداءنا الداخلية. كل كلمة قيلت لنا في الطفولة لا تموت، بل تعود بصوتٍ آخر حين نكبر. نسمع آباءنا وأمهاتنا يتحدثون في أعماقنا، نسمع النداءات الأولى، الانكسارات الأولى، وكأن حياتنا سلسلة من الأصداء التي لا تهدأ. كل حُبٍّ عظيم هو صدى لحبٍّ ضائع، وكل خوفٍ جديد هو صدى لجرحٍ قديم .. و في الصدى تجسيد لفكرة الكارما التي لا تموت و لأثر الفراشة و أحجار الدومينو التي تلاحق بعضها حتى تعود إلينا ..

الإيكو لا يموت. إنه طريقة العالم في أن يقول لنا : ما من شيء يضيع تمامًا. حتى الصوت العابر في الوادي يبقى، حتى الهمس الذي نظن أنه اختفى يتكرر في أماكن مجهولة. الصدى ليس فقط رجع الأصوات، بل هو وعد : أن كل ما نقوله يعود إلينا، عاجلاً أو آجلاً، في شكل آخر. وهكذا يصبح الإيكو معلمًا صامتًا ، علّمنا أن الحياة نفسها ترديد متكرر، وأن أجمل ما فيها ليس الصوت الأول، بل رجعُه... حين يعود إلينا وقد صار أغنى، أعمق، وأشدّ غموضًا.

******

في ختام مقاربتنا لمغالطتنا الطبية الجديدة (**إيكو**) ، من الأنسب ألا نقول بعد الآن :

= لماذا أتحدث عن الإيكو .. إنه كيان مسالم و وديع .. الأجدر بي التحدث عن أسلحة فتاكة أو سموم خطيرة تهدد حياتي و تزلزل راحتي ، فالإيكو عبد لخدمتي و غيره عدو يجب أن أتجهز له..

بل أن نقول :

= هذا كلام جائر بحق الإيكو .. الإيكو ككيان وديع يستحق منا الثناء و المديح .. أن نتغنى بمزاياه .. نتسامر على أساطيره .. نتعقب أثره في مختلف نواحي الحياة .. أن نتعلم أن نهتم بأصدقائنا المسالمين أكثر من

انشغالنا بالتفكير بعدونا الخبيث المتربص بنا ..

و لعلنا إن منحنا الإيكو حقه الضائع يقودنا إلى الجنة المفقودة .. هناك خلف حدود الكون الأصغر ، حيث يقبع الكون الأكبر ، مستقرنا الأخير .. يهمس لنا بصدى الإيكو : **أنا حقيقة .. أنا موجود ..**

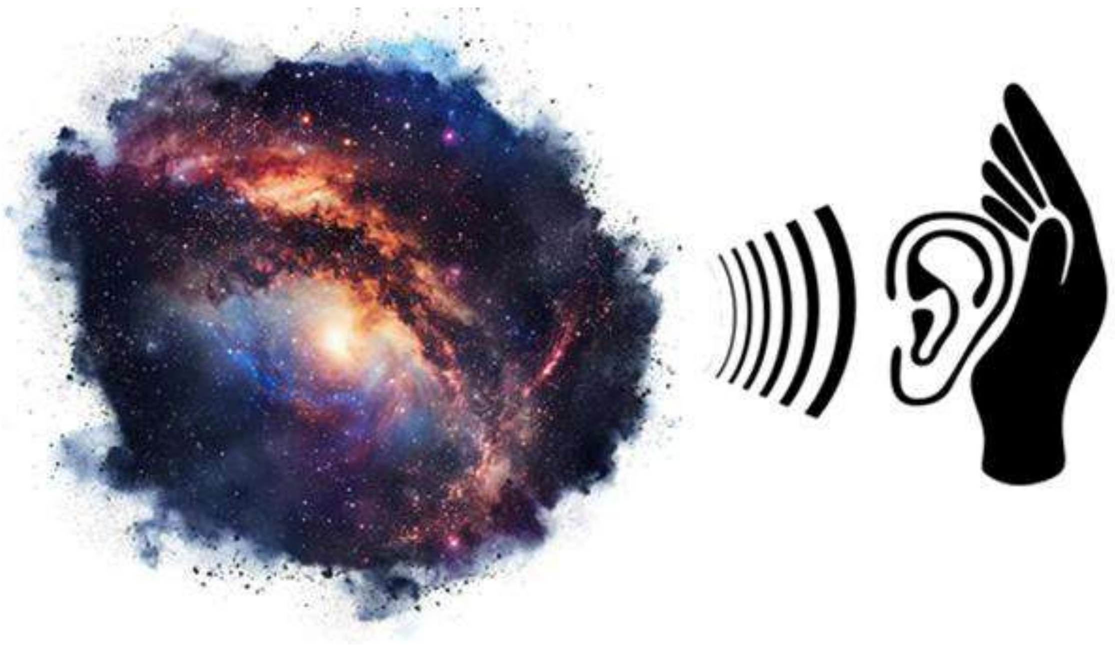

الأخوة الأعداء !!

(بيضة واحدة متحدة)

= لماذا أنت حزين يا صديقي ؟ عساه خيراً ..

= إنه صديقي خلدون ..

= الذي تعرفه منذ عقود و تعتبره أكثر من صديق مقرب ..

= بل كأخ لي .. هو بنفسه قالها ذات مرة ، نحن تجاوزنا حدود الصداقة إلى مرتبة الأخوة ..

= ما خطبه ..؟

= بلغتني أخبار متفرقة أنه يتحدث عني بالسوء في غيابي .. يشوه صورتي في عيون الناس .. و يكيد لي المكائد كي أفشل و أنهار .. بل أخبرني أحدهم أنه يستميل صديقتي كي تبتعد عني و تصاحبه ..

= و لماذا ؟ حسد .. غيرة .. حقد ؟!!

= لا أدري .. لم يرَ مني غير كل خير .. و لم أخطئ في حقه طوال سنوات صداقتنا على الإطلاق .. ربما لديه أوهام خلقها بنفسه عني فحقد علي أو ربما كما تقول شيء من الغيرة ..

= لا تحزن على الإطلاق .. اعتبره و كأنه لم يكن .. شخص بهذه المواصفات لا ندامة عليه .. أنت بالأساس لا تشبهه بشيء .. ابحث عن شخص تتطابق أوصافكما معاً كي يفهم كل منكما الآخر فيصون العشرة و الأخوة و يتمنى لأخيه طول العمر و النجاح و السعادة .. فلا

يمكن أن يفهم نفسك أكثر من نفسك و الصديق الحقيقي هو مرآتك ..

= ما يحزنني بحقّ هو كيف يمكن لإنسان أن يدعي مرتبة عليا كمرتبة الأخ ثم يفعل كل شيء يسيء للأخوة و يبددها و يدمرها .. إن مرتبة صديق كثيرة عليه ، أنت محق يجب أن أبحث عن صديق نسخة عني ، يصون الود و يتمنى كل الخير لصديقه ، فقد بات خلدون أشبه بكابوس بالنسبة لي ، و صنع من نفسه عدواً في عيني ..

= ذكرتني برئيس وزراء بريطانيا **وينستون تشرشل** ..

= ما خطبه ؟!!

= لقد تحول **هتلر** في عيون تشرشل إلى كابوس بسبب أفعاله ، إذ سبب له نتيجة وحشيته و غروره الاكتئاب ..

الاكتئاب الذي أسماه تشرشل فيما بعد (**الكلب الأسود**) لأنه زرع في تفكيره شتى أنواع الأفكار السلبية السوداوية ، حتى تحرر تشرشل أخيراً من سطوته السادية تلك و قتل ذلك الوحش منتصراً عليه بالحرب العالمية الثانية ، لتنتهي أحلام النازية الظلامية في حكم العالم و الترويج لعقيدتها السوداوية فيه ..

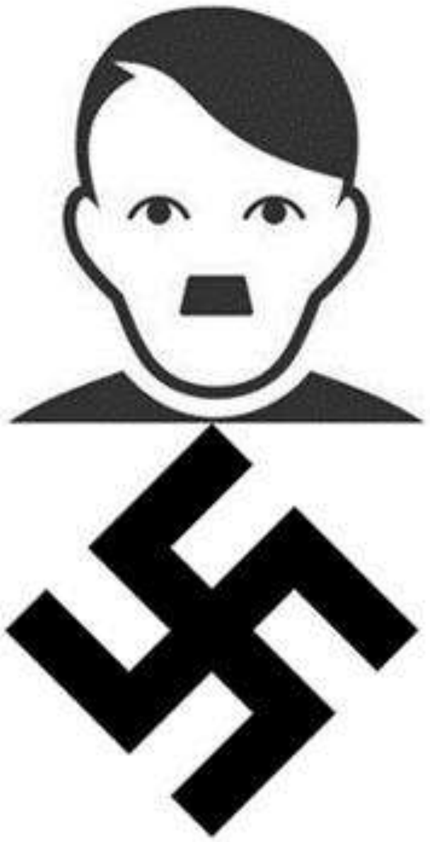

= تشبيه دقيق .. إن علاقتي بخلدون كانت أشبه بعبور نفق معتم ، و اليوم سأخرج منه إلى النور مجدداً ..

= على كل حال أنا بجانيك إلى النهاية ، فأنت صديق وفي لا يستحق سوى الوفاء المتبادل ..

****

الأخوة كلمة عظيمة في القاموس البشري ، كلمة تحمّل مدعيها التزامات كبرى ترتقي لحجمها ، من الوفاء ، الدعم في الملمات ، تمني الخير و النجاح و السعادة ، الكلام عن أخيه بالخير في المجالس ، أن تفرح لأخيك كما تفرح لنفسك و بالطبع كما قال نبي الرحمة أن تحب لأخيك ما تحبه لنفسك و هذا شرط من شروط الإيمان و ليس حبراً على ورق .. و للأسف نجد في أيامنا هذه بشراً كثر مصابين بانفصام الشخصية و العقيدة ، يدعي أخوة شخص آخر ثم يسيء له بكل الوسائل المتاحة بل البعض يصل به الحال و المآل إلى أدنى الدرجات بأن يتمنى الموت لصديقه أو حتى أن يقتله بيده و هو يقبله على طريقة يهوذا الإسخريوطي بمنتهى الخسة و الدناءة

و الموضوع لا يقتصر على الأفراد بل يتوسع ليشمل الدول بل كوكب الأرض برمته شرقه و غربه ، ليجعل من ذاته مغالطة كبرى لا بد من تناولها في سلسلة كتبنا هذه و مقاربتها من مختلف الزوايا كي نشرّحها و نفهمها بوعي و عمق أكثر علّنا نخرج بنتائج حاسمة في هذا الصدد ، فهيا بنا عزيزي القارئ ننجز ذلك سوياً عبر تحليل النقاط الهامة التالية :

(1) ملائكة و شياطين ..
(2) الأخوة الأعداء !! يا قاتل يا مقتول ..
(3) بيضتان متطابقتان ..
(4) ثنائية النور و الظلام مستمرة إلى الأبد ..

لننطلق ..

أولاً ، **ملائكة و شياطين** :

في أعماق النفس البشرية، ثمة نزوع غامض لا يهدأ، نزوع يدفع الإنسان **للبحث عن عدو** .. إن لم يكن هذا العدو موجوداً في الخارج، ابتكرته المخيلة وخلع عليه المرء كل مخاوفه و مكبوتاته وأشباحه. فالإنسان – وقد أثقلته تناقضاته الداخلية وأعياه صراعه مع ذاته – يجد في وجود عدوٍّ خارجي فرصة لتبديد ما يختلج في داخله من قلق وارتباك. إنّه يختصر العالم في صورة واحدة، يركّز الظلال جميعاً في شخص أو كيان، ويصبّ فيه كل ما يعجز عن احتماله من ظلمة نفسه. و هنا يظن أنه قد حاصر مشاكله، وجعلها جسداً واحداً يمكن أن يُسقطه بضربة واحدة.

إنها آلية نفسية عتيقة، تشبه ما كان يفعله الإنسان الأول حين يقدّم قرباناً لآلهته طمعاً في أن تُرفع عنه اللعنة. العدو المعاصر هو **كبش الفداء** الذي به نتوهّم أننا نغتسل من قذاراتنا، وأننا ننتصر على هشاشتنا. وما أشد غرور الإنسان حين يظن أن سحقه للآخر يمحو ما ينهش داخله من ضعف ! إن الانتصار على عدو خارجي قد يمنح نشوة عابرة، لكن الجروح الداخلية تظل مفتوحة، لا يندمل نزيفها لأن أصلها لم يكن في الآخر، بل في الذات نفسها.

ولهذا تتكرر المأساة عبر العصور : كلما سقط عدو، تَطَلَّبَت النفس عدواً جديداً. كأن البشرية محكومة بدوامة لا تعرف الفراغ، لا تقبل أن تبقى بلا خصم تتصارع معه. في غياب العدو، يلوح الفراغ، ويطلّ سؤال المعنى. وأخطر ما يواجهه الإنسان ليس عدواً خارجياً، بل فراغاً داخلياً يسائله باستمرار : من أنت ؟ وماذا تصنع هنا ؟

غير أن الحقيقة الأعمق تكمن في أنّ تقسيم البشر إلى ملائكة و شياطين ليس سوى وهم مريح. فالإنسان – أي إنسان – ليس هذا ولا ذاك وحده، بل هو الاثنين معاً في صورة واحدة. في داخله يقطن نور وظلمة، رحمة وقسوة، صدق وكذب، محبة وكراهية. لا يوجد إنسان بريء تماماً كما لا يوجد إنسان شرير تماماً.

وما ينطبق على الأفراد، ينطبق على الجماعات والأحزاب والدول والتحالفات. فليست هناك قوة سياسية تلبس ثوب الطهارة الخالصة، ولا أخرى غارقة في الرجس المطلق. إنها جميعاً تعبيرات مختلفة عن هذا الخليط البشري، عن هذا الكائن المزدوج الذي هو الإنسان.

حين ننظر إلى الأمم بعين منصفة، ندرك أنها تسلك سلوك الأفراد أنفسهم : تتباهى بفضائلها لتغطي عيوبها، وتهاجم الآخرين لتُخفي ما في داخلها من ضعف، وتتذرع بمبادئ نبيلة لتبرّر جشعها وسعيها وراء النفوذ. وكما يزعم الفرد أن عدوه يجسّد كل الشر، كذلك تفعل الدول حين ترسم حدود الخير والشر وفق مصالحها وأوهامها. وهكذا يستمر الصراع، لا لأنه صراع بين الحق المطلق والباطل المطلق، بل لأنه صراع بين ذوات مزدوجة، كلٌّ منها تحمل نورها وظلالها في آن واحد.

إن الإقرار بهذه الحقيقة – حقيقة أن كل إنسان هو ساحة مزدوجة تتجاور فيها القمم والهاويات – هو الخطوة الأولى نحو الحكمة. فبدلاً من أن نُسقط شرورنا على الآخر، يجدر بنا أن نتأمل وجوهنا في المرايا الصامتة، أن نعترف أن ما نراه في العدو ليس سوى صورة مشوهة لما نخفيه في دواخلنا. العدو الحقيقي قد يكون

مرآة، يكشف لنا ما لا نجرؤ على رؤيته في ذواتنا.

لكن هذه الحكمة عسيرة المنال، لأن النفس البشرية تميل إلى البساطة واليقين. إنها تخاف من **الرمادي**، من الاعتراف بأن الخير والشر متداخلان بلا حدود واضحة. لذلك تُصر على خلق الثنائيات الحادة : "نحن" مقابل "هم"، "الخير" مقابل "الشر"، "الملائكة" مقابل "الشياطين". هذه الثنائية الوهمية تمنح الناس شعوراً بالوضوح، بالاستقرار، حتى وإن كان زائفاً.

إن مواجهة حقيقة الثنائية داخل كل فرد وجماعة ودولة تتطلب شجاعة نادرة : شجاعة أن نقول إننا لسنا أنقياء ولا مدنسين بالكامل، وأننا لسنا أبطالاً مطلقين ولا أوغاداً مطلقين. إنها شجاعة أن نقبل بالتعقيد، أن نكف عن اختزال العالم في صور كاريكاتورية مريحة.

ولعل أكبر مأساة للبشرية أن معظم صراعاتها الكبرى نشأت من هذا العجز عن تقبّل التعقيد. كل حرب كبرى، كل انقسام سياسي، كل تحالف دولي لم يكن إلا مسرحاً تتجلى فيه هذه الحاجة المرضية إلى تبسيط الواقع : (نحن الملاك ، وهم الشيطان) .. (نحن الخير و هم الشر) .. (نحن الحق و هم الباطل) ، وما إن يرفع كل طرف رايته، حتى تُستباح الدماء باسم الطهر، ويُشرّع العنف باسم الفضيلة.

فلنقلها بصراحة : لا خلاص للبشرية إلا حين تعترف أن

العدو يسكن داخلها قبل أن يكون خارجها، وأن الملائكة والشياطين يتجاورون في كل قلب قبل أن يتمثلوا في أي حزب أو دولة. حينها فقط قد نكسر الدوامة، ونحرر أنفسنا من عبودية الأوهام.

فالحكمة لا تعني إنكار وجود الشر في العالم، بل إدراك أنه ليس غريباً عنا. والفضيلة لا تعني ادعاء الطهر المطلق، بل شجاعة مواجهة ظلالنا الخاصة. وربما كانت أعظم رحلة يخوضها الإنسان ليست تلك التي ينتصر فيها على عدو خارجي، بل تلك التي يتصالح فيها مع نفسه، مع ازدواجيته، مع حقيقته المعقدة التي لا تختزل في ملاك أو شيطان.

ثانياً ، الأخوة الأعداء !! يا قاتل يا مقتول :

هناك عادة بشرية عتيقة تتكرر على امتداد الخرائط واللغات : كلُ واحد منا يميل إلى تصوير نفسه مُطهّراً، مُستحقّاً للثناء، ومُنجِزاً للخير؛ بينما الآخر ـــ ذاك الذي يقف على الضفة المقابلة ـــ يُختزل في صورةٍ مظلمة تُعبّر عن كل الشرور الممكنة. على هذا النحو، أخذ الشرق والغرب ـ عبر تاريخٍ طويل من اللقاءات والصراعات والتبادلات ـ يمارسان لعبة السرد : الشرق ينسب إلى نفسه خلفية روحيةً وعمقاً اجتماعياً ، والغرب ينسب إلى نفسه تقدماً تقنياً وحمايةً للحرية؛ وفي المقابل يُصوّر كل طرف الآخر كبديلٍ شرير، كتهديدٍ حضاريٍ

أو أخلاقيٍ يستوجب الحذر أو العداء.

هذا النسبُ المتبادل للملَكة والشيطنة ليس محض نزقٍ ثقافي فقط؛ بل هو آلية دفاعية نفسية واجتماعية. عندما تتشبث مجموعة بصورتها المثالية، فإنها تحتاج إلى قبحٍ خارجي تُبرّر به اختلافاتها، وتحشد به ولاءها، وتبرّر به مواقفها. هكذا تتحول الكتابة عن الآخر إلى مرآة مُقلوبة : لا يرى المرء في الآخر إلا ما يخدم سردية ذاته، ويُغلق أبواب الحوار، ويُشعل في النفوس نيران القطيعة .. و هذا ما يسمى في علم النفس بانزياح الانحياز التأكيدي ..

لا أؤمن بالاختزالات المطلقة. لكل حضارة وجهٌ يليق بها من الجمال، ولكل مجتمعٍ خللٌ يليق به من العيب. إن المدح والذم المتطرفان يفسدان القدرة على الفهم.

من جهةٍ، يمكن أن نتحدث عن مزايا بارزةٍ تُنسب تقليدياً إلى الشرق : غنىٌ عقائدي في أشكال العبادة والطقوس،

حسٌّ بالجماعة والقرابة، احترامٌ للتاريخ والذاكرة. ثمة في كثير من التقاليد الشرقية قدرة على تحمل الغياب والانتظار، وميلٌ إلى الحلول الوسطى والسعي للتوازن الاجتماعي، وتركيزٌ على الروابط الأسرية والعملية التي تمنح الأفراد هويةً متينة. كل هذا لا يعني أن الشرق بلا قصور؛ فالتمسك المفرط بالتقاليد قد يعرقل التجديد، وقد يولّد تقنيناً اجتماعياً يقمع الحرية الفردية، وقد يتحوّل احترام السلطة إلى تعطيل للإبداع . ناهيك عن غرق الشرق في دوامة من الأوهام و الأساطير ، اعتناقها غير القابل للشك و اتباعها بكل ما يحمله من ظلم و عواقب ..

ومن الجهة الأخرى، يمتلك الغرب امتيازاتٍ أيضًا : ديناميكيةٌ تكنولوجية، مؤسساتٌ قانونيةً تسعى للفصل بين السلطات واحتواء الاختلاف، ثقافة نقدية تشجع على السؤال والتشكيك، ونظامٌ اقتصادي يُنتج وفرةً وسرعة في الابتكار و قد سبق لنا و أن قاربنا كثيراً من هذه الإيجابيات في مغالطة بعنوان (**الغرب الفاجر**) . لكنها مزايا لا تخلو من عيوب بدورها : الإفراط في الفردانية قد يولّد عزلةً اجتماعية، والاعتماد على السوق كمحركٍ وحيد للقيم قد يهمش الروابط الاجتماعية ، والنموذج التقني قد يخلق صوراً من الاغتراب لدى أولئك الذين لا يملكون أدوات المشاركة.

أما عن موضوع الاحتلال و الاستعمار فلا تتلو علي ما

فعلته الإمبراطورية التي لا تغيب عنها الشمس قبل أن تحدثني عن وحشية المغول و التتار .. و لا تؤكد وجهة نظرك عن الامبريالية الأمريكية قبل أن تعود و تراجع فظائع اليابان و الصين بمن جاورهم ..

إن السمعة الطيبة أو السيئة ليست ملكاً لأرضٍ أو زمنٍ وحسب، بل هي تتبدّل بحسب سياقٍ وسياساتٍ و أشخاصٍ.

في أغنية البشر القديمة، تُغنَّى كلمة أخ بأصوات متعددة : أخٌ بالدم، أخٌ بالوطَن، أخٌ بالإيمان، أخٌ بالمسار التاريخي. لكن كلمة الأخ ـــ رغم دفئها ـــ لا تمنع أن يتسلل العداء إلى الجسد ذاته. فكم من أخٍ رفع شعار (يا قاتل يا مقتول) على أخيه، وكم من أخٍ شوه سمعة أخيه بلفظ أو بجرح مرئي !؟ فأين الأخوة في ذلك بحق السماء ؟!!

الأخوّة ليست مجرد تسمية؛ هي فعل وممارسة. أن تكون أخاً يعني أن تَصون ولا تُفسد، أن تُساند ولا تقطع، أن تُصغي ولا تشتم. وعندما يتحوّل الأخ إلى مروّجٍ للشائعة، أو يرفع شتيمة القتل المعنوي (أنت قاتلٌ) بمعنى أنك تهدد شرفي أو توشك على نزع كرامتي في عيون الناس ، فذاك تحوّلٌ في الدور الاجتماعي : من الأخ إلى الخصم. إذا تمنّى أحدهم لشقيقه السوء، فذلك يتجاوز الخلاف ليصبح رغبة في النزاع، والرغبة في الخراب لا تتماشى مع الأخوّة.

ثمة مثل شعبي مشهور :

(من حفر حفرة لأخيه، وقع فيها.)

هذه الحكمة الشعبية ليست دعوة إلى الانتقام، بل تحذير أخلاقي بسيط من عواقب الكارما : من يريد أن يهدم صورة أخيه، أو يُسوِّق إشاعةً تُنزع منه الاحترام، فإنه أولاً يضع وصمة خيانة على يده، وحين تُقلب مصالحه

أو يُكشف أمره، سيجد نفسه في الحفرة التي حفرها للآخر. لأن الهتاف ضد الأخ، والشتيمة في حقه، تمس منظومة الثقة التي تحمينا جميعًا.

كيف يمكن لمن يدّعي الأخوّة أن يصرخ بلا حياء :
(يا قاتل يا مقتول ؟) ، الجواب في ضعف الإرادة الأخلاقية. حين تختلط المصالح بالهوى، وتغلب نزعات القوة على واجب الرحمة، يتحوّل الخطاب الأخوي إلى خطابٍ هجوميٍّ، ويصبح الأخ أداةً لمصالحٍ أو كراهيّة. من يريد الأخوّة فعلاً لا يُشوّه صورة أخيه أمام الناس، لأن سمعة الأخ هي أيضاً حبل نجاة اجتماعي للجميع؛ تشويه السمعة رسالة عن هشاشةٍ أخلاقية بليغة، ويمثل في العمق عجزاً عن مواجهة الخلاف بالحُجّة والنقاش.

إذا أردنا أن نحافظ على معنى الأخوّة، فعلى كل منا أن يتعلّم فصل الائتلاف الأخلاقي عن الصراع السياسي، وأن يرفض أن يُحوِّل الخلافات إلى قتلٍ رمزيٍّ للآخر. الأخوّة الحقيقية ليست تعاطفاً أبدياً بلا شرط، بل التزامٌ بالإنصاف والحوار والصدق. ومن ينوح على صورة أخيه في العلن، ويشوهها في السر أو في الجهر، **فهو منافق باع مكانته الإنسانية مقابل نصرٍ زائف، وسيكون عربون ذلك سقوطه حين تنقلب الدنيا.**

علّمنا التاريخ أن الشرق والغرب، الأخ والأخ، ليسا صفحتين متواجهتين من نور أو ظل. إنهما مشهدان

لبشرية واحدة، تحمل في طياتها الشقاء والسماء. فلتكن أخوّتنا مبنية على إدراك هذه الثنائية، ولتكن محادثاتنا وساحاتنا العامة منصات للاعتراف بالخطأ، وليس ساحاتَ لتشييع الضغينة. فمن ينشد الخير الحقيقي لا يُبالغ في طبع الملَكة على جبينه، ولا يلعن الآخر بوصفه شيطاناً؛ بل يخرج من معركة التشويه إلى ميدان الاعتراف المتبادل، حيث يمكن للإنسان أن يظل أخاً ويظل إنساناً في آنٍ معاً.

ثالثاً ، بيضتان متطابقتان :

ليس الشرق والغرب أخوين متخاصمين كما توارثت الأذهان سرديات التاريخ والسياسة؛ بل الأعدل أن نراهما معًا كبيضة واحدة، كاملة في شكلها، متوازنة في تناقضاتها.

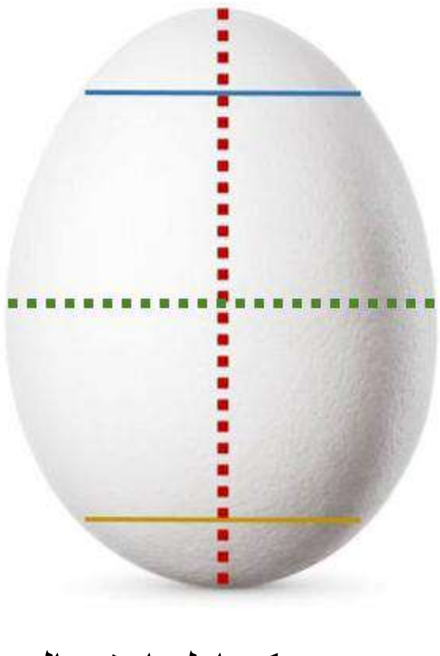

بيضة لها شرق وغرب، كما لها شمال وجنوب، تحمل

في أحشائها بذور الحياة، وتحتضن التناقض بوصفه شرطًا للجمال. في البيضة يلتقي الضوء بالظل، وفيها يكمن معنى الكمال : فلا قيمة للنور إذا لم يجاوره الظلام، ولا معنى للظلام بلا ومضةٍ تنيره. بهذا المنظور، الكلّ واحد، و الفوارق مجرّد أوهام تُغذيها رغبة البشر في الانقسام.

إن من يصرّ على تصوير العالم كحلبة صراع بين أخٍ ملائكي وأخٍ شيطاني يخطئ مرتين : مرة حين ينكر ازدواجية ذاته، ومرة حين يُشيطن الآخر ليُبرّر قصوره. أما الحقيقة فتبدو أبسط وأعمق في آن : الشرق والغرب، مع الشمال والجنوب، ليسوا سوى أوجه لبيضة واحدة، كيان متكامل لا يكتمل إلا بتعدد أبعاده. **الكمال ليس نصراً لجزء على آخر، بل هو انسجام الأضداد في كيانٍ واحد.**

النظرية الوحيدة التي أؤمن بها، وأراها عادلة، هي التي تُحررنا من ثنائية الوهم : فلا شرق ملاك معصوم، ولا غرب شيطان مطلق و لا العكس. إنهما ــــ في جوهرهما ــــ بيضتان متطابقتان، توأمان حقيقيان، كل منهما يحمل الخير والشر معًا، يحمل القدرة على البناء كما على الهدم. وما أشبههما بخطَّين رمزيَّين يقطعان الكرة الأرضية : أحدهما **خط غرينتش**، يفصل الشرق عن الغرب؛ والآخر **خط الاستواء**، يقسم الشمال عن

الجنوب. كلاهما ميزان تتهادى كفتاه على الجانبين بالتساوي مهما حاولت كل جهة أن تثقل بالأوهام و التعامي عن عيوبها كفتها ..

في هذه النقطة، لا أحد يسحب الغطاء إلى جهته وحده، بل الجميع شركاء في المعنى. المنتصر ليس طرفًا ضد آخر، بل كل من اعترف بإنسانيته المركّبة، وحمل مسؤوليته في كونه خليطًا من نور وظلال. وما أتعس ذاك الذي يصرّ على تصوير نفسه طاهراً منزّهاً، والآخر نجساً ملعوناً ! إنه بائس لأن إنكاره لا يغير الحقيقة، ومثير للشفقة لأنه يهرب من مواجهة ذاته فينغمس في خداعه.

الحكمة إذن أن نكفّ عن بناء الخنادق بين أخوين وهميين صنعناهما بأنفسنا ، بل أن نرى العالم بيضةً متكاملة، توازنها سر حياتها .. توأم متطابق يحمل كل منهما النقيضين معاً في ذاته. عندها فقط يتحقق معنى الأخوّة، لا بوصفها خصومة ولا تباهياً ، بل كياناً واحداً

يعيش بتناقضاته الجميلة، ويستمر بها .. فالله واحد أحد Sunday و ليس اثنين moonday و الله لا يقبل شريك في ملكوته ..

رابعاً ، ثنائية النور و الظلام مستمرة إلى الأبد:

الكون، في اتساعه الذي لا يُدرَك وفي دقّته التي لا تُرى، هو لوحة من تناقضاتٍ متوازنة. منذ القدم أدركت الديانة التاوية هذه الحقيقة فجسّدتها في رمزها الشهير: نصف أبيض ونصف أسود، الخير ممتزج بالشر، النور ملازم للظلام، الإيجابي قرين السلبي. هذه ليست صدفة ولا خللاً، بل هي بنية الوجود ذاتها. فالكون قائم على قطبيه، ويستمر بفضل شدّهما وجذبهما. ولو انتصر أحدهما وألغى الآخر لانطفأت الشرارة، وانتهى النبض، وزال المعنى.

تأمل أبسط شواهد الحياة : لن تجد نهاراً بلا ليل، ولا دفئاً بلا برد، ولا راحة بلا تعب، ولا حباً صادقاً بلا خصومات تعطيه نكهةً خاصة كتوابل هندية . حتى الذرات، وهي لبنات المادة، تنبض بإيجابيات وسلبيات،

بشحنات تتكامل لا لتتنافى. هذه هي الميزة الحقيقية للوجود : تناقضاته. إنها ليست لعنة، بل سرّ الاستمرار. والحياة التي تحاول أن تنفي التناقض، أو أن تدّعي الكمال الأحادي، محكوم عليها بالفناء. فالانسجام لا يُصنع بالتماثل، بل بالاختلاف.

في ضوء هذه الحقيقة الكونية، تبدو نظرية (الأخ الملاك و الأخ الشيطان) فكرة مشوّهة، بل معتوهة. كأنها جسد مصاب بخلل جيني يمنعه من النمو، وغير قابل للحياة، محكوم عليه بالزوال عاجلاً أم آجلاً . هذه النظرية ستفشل ليس فقط لأنها غير منطقية و ظالمة و عنصرية ، بل لأنها تتجرأ على الخالق نفسه، فتتهمه بالظلم والانحياز: كأنه يخلق أقواماً ملائكة طاهرين، ويُنتج أقواماً آخرين شياطين مدنسين، على أساس الجغرافيا أو لون البشرة. وحاشى لله أن يكون في حكمه جور أو في إرادته عنصرية.

الله في جوهره ميزان عادل، بكفتين متساويتين : شرق وغرب، شمال وجنوب، نور وظلام.

والميزان الإلهي لا يميل لكفة دون أخرى، مهما حاولت كل جهة أن تحتكر الطهر وتُلصق بالآخر الدنس. فالتوازن قائم بقرار إلهي، وسرمدي، لا ينكسر ولا يزول. وما على البشر إلا أن يتعلموا من الكون نفسه : أن الاعتراف بالازدواجية هو عين العدل، وأن محاولة احتكار النقاء ليست سوى ادعاءٍ أجوف سرعان ما يتهاوى.

الحقيقة إذن أن كل إنسان، وكل أمة، وكل حضارة، تحمل الخير والشر معاً، كما تحمل الأرض الليل والنهار معاً. ما من روح خُلقت ملاكاً محضاً أو شيطاناً محضاً. و الله سبحانه هو من جعلها قانوناً للكون. أما نحن، فوجودنا مشروط بالعيش داخل هذا الميزان .. و قد سبق لنا و قاربنا هذه الزاوية في مغالطة (**الخير و الشر**) ..

إن المأساة ليست في التناقضات، بل في إنكارها. والكارثة ليست في الصراع بين كفتين، بل في أوهام من يتوهم أن كفّته ستُقصي الأخرى إلى الأبد. ذلك هو الغرور الذي يُسقط الأمم، والتعصب الذي يفتك بالأخوة، والعمى الذي يحجب عن الإنسان جمال الكون كما هو : نصفه نور ونصفه ظلام، لكن النصفين معاً هما سرّ الحياة، و بدونهما لا حياة.

****

في ختام مقاربتنا لمغالطتنا الجديدة (**الأخوة الأعداء !!**) ، من الأنسب ألا نقول بعد الآن :

= أنا الخير كله .. الحق كله .. الجمال كله ، أما أنت فنقيض كل ذلك ..

بل أن نقول :

= هذا الكلام مفعم بالغرور و العنصرية و الفوقية و إنكار للعيوب الذاتية أو تعامٍ عنها ، بل هو اعتداء على الذات الإلهية و اتهامها بأنها تخلق البشر مسبقاً بعباءة خير أو شر و لا قيمة لأفعال الإنسان في الحياة ..

و ألا نقول :

= أنت أخي ..

بل أن نفعل ..

= أن نحب لأخينا ما نحبه لأنفسنا و نبغض له ما نبغضه لها .. أن نتمنى له الخير ، النجاح ، السعادة و طول العمر ، أما من يرفع شعار الموت لك فلا يحدثني عن الأخوة فهو يجعل من نفسه بهلواناً مضحكاً عندما ينطق كلمة أخ على شفتيه و الأنسب لها أن يخيطهما إلى الأبد ..

الخلاصة : الكون كلّه بيضة متكاملة، تكتمل أجزاؤها بالشرق والغرب، بالشمال والجنوب، بالنور والظلام

معًا. أما وهم تقسيم البشر إلى ملائكة مطلقين وشياطين مطلقين ، ليس سوى انحراف عن عدل الخالق، واعتداء على حكمة التوازن التي سارت بها السنن منذ الأزل. فالإنسان، كالأمم، خليط من خير وشر، من قوة وضعف، من صفاء وكدر، ولا بقاء له إلا بهذا الامتزاج. وكل محاولة لإنكار هذه الثنائية أو احتكار الفضيلة ليست إلا وهماً بائساً ينتهي بأصحابه إلى السقوط في الحفرة التي حفروها لغيرهم. إن الحقيقة العظمى تكمن في الاعتراف بالازدواجية، وفي التسليم بأن **الكمال لا ينجز بالجزء، بل بالكل**. من وعى هذا سرى في قلبه نور الحكمة، ومن أنكره تاه في عتمة الوهم .. فالإنسان يرى بعينين ، يتحرك بقدمين ، يكتب بيدين ، يشعر بقلبين أيمن و أيسر و يفكر بنصفي كرة مخية تلتحمان معاً في دماغ واحد أحد ، فمن يمكنه أن يعيش بنصف جسد فليفعل !!!

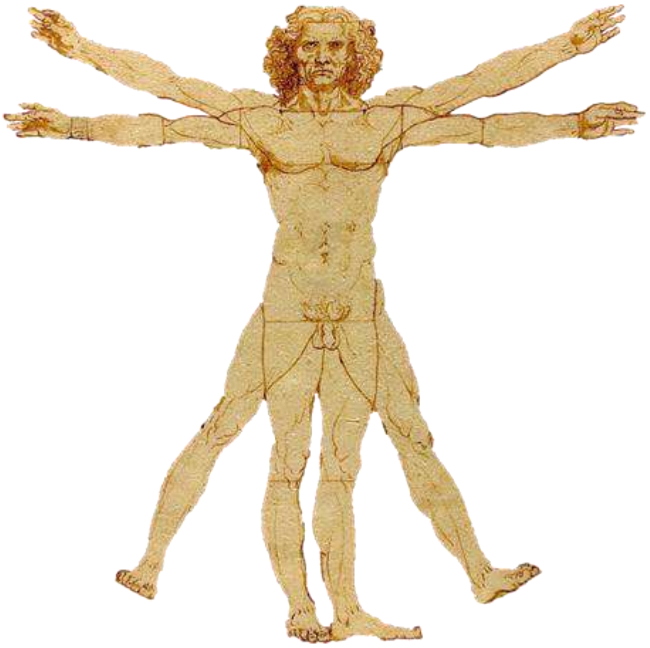

حلال على الشاطر

(سيزيف ملك التزييف)

الولايات المتحدة الأمريكية ..

نيويورك ..

المشفى مجدداً ..

انتهى الطبيب بنجامين من تشريح جثة رجل نُقل إلى المشرحة في ساعة متأخرة من ليل الأمس، وقد لفّ الغموض أسباب وفاته المباغتة. وما إن أمعن النظر في تجاويف الجسد المنطفئ تحت سكينه، حتى تكشّفت له الحقائق، كأن شفرة مشرطه لا تفتح الجلد فحسب، بل تكشف الستائر عن أسرار الحياة والموت.

كانت يده ثابتة، لا ترجف، وعيناه تتابعان بصبر نادر كل تفصيلة مخبأة بين الأنسجة والعروق. وبعد فحص دقيق لأعضاء الصدر، اتسعت حدقتاه قليلاً، كأن الحقيقة ظهرت له فجأة كوميض برق في ليلة مظلمة.

كتب في ملاحظاته بخط صارم :

(وفاة طبيعية ناجمة عن **صمّة رئوية سَرْجِيّة** ضخمة، أدّت إلى انسداد كامل في الشريان الرئوي الرئيسي)

كان ذلك النوع من الجلطات الصدرية الحادة كمن يضع صخرة على قلب الجبل، لا تترك فرصة للنجاة، حتى لو كانت الحياة لا تزال تتشبث بخيط واهٍ.

نزَع كمامته الطبية بحركة بطيئة كمن يودّع معركة، ثم خلع قفازيه الواحد تلو الآخر، وقد طُبع عليهما أثر دمٍ باهت كأنّه تذكير بأن الحياة، رغم أناقتها، لا تخلو من لمسة فناء. غسل يديه وساعديه بالماء البارد الذي أعاد إليه شيئًا من صمته المعتاد، ثم عبر الممر القصير إلى مكتبه الملاصق لغرفة التشريح، وهو يحمل عقله المثقل بالتفاصيل كما يحمل الكاهن صلاته الأخيرة.

جلس إلى مكتبه الذي غمره ضوء أصفر خافت كأنه خارج الزمن، وأدار قلمه فوق الورق بثقل العلماء، لا الأطباء فقط. كل كلمة في تقريره كانت كأنها حجر يُرصّ في ضريح الحقيقة، لا يقبل التزييف ولا المجاملة.

وبينما كان يغوص في سطور التقرير الأخير، خاشعاً لمهابته، دوّى في الفضاء صوتٌ خافت... ثلاث طرقات خفيفة على باب المكتب، كأن أحدهم يطلب إذناً للدخول إلى عالم لا يُدخله سوى الصمت والموت.

رفع رأسه بهدوء، وجفلت عينه إلى الباب...

- بنجامين : تفضّل ..

لم يكن سوى مساعده **أرون** و هو يحمل بين يديه أحد الملفات ..

○ أرون : تحياتي حضرة الطبيب ، وصلتنا للتو سجلات الأسنان الخاصة بالمليونير **جيمس ماك أرثر** مع رسالة مرفقة من **المحقق فرانك** ..

● بنجامين بلهفة : ناولني إياها على الفور ..

كان الملف بلون أسود لماع و مرفق معه ورقة بيضاء قرأها الطبيب مباشرةً :

((**حضرة الطبيب أطلس العدالة المحنّك المحترم ، هذه السجلات التي طلبتها ، زودني بتقرير مفصل عن تطابقها مع أسنان الجثة المتفحمة و لك جزيل الشكر**))

سارع الطبيب بنجامين بإنهاء كتابة تقريره الخاص بمريض الصمة الرئوية على عجالة ثم أخرج السجلات الخاصة بالمليونير من الملف متضمنةً صوراً شعاعيةً بانورامية لأسنانه .. قارنها مع تقريره الخاص بأسنان الجثة المتفحمة الذي أعده مسبقاً و كانت النتيجة عدم التطابق بشكل قطعي ، مما يؤكد أن المليونير جيمس لا يزال حياً حتى الآن و أنه زيف موته بحادثة انفجار اليخت و غرقه ، فتناول هاتفه على الفور و اتصل مباشرة بالمحقق فرانك ليخبره بالنتيجة التي كان

ينتظرها كأسد جائع متربص بفريسته ..

○ فرانك : هذه نتيجة صادمة حضرة الطبيب ستفتح التحقيق بشأن وفاة المليونير على مصراعيه .. يا له من مخادع محتال .. لولا عزيمتك على كشف هوية الجثة لاكتفينا بشهادة من تواجد يوم الحادث و أقفلنا القضية على موت المليونير ..

● بنجامين : بالفعل مخادع من العيار الثقيل، ذكرني بقوة **بأسطورة سيزيف الإغريقية** ..

○ فرانك : سيزيف ؟!

● بنجامين : أجل **سيزيف ملك التزييف** ..

○ فرانك ضاحكاً : اسم فني يوحي بأسطورة مثيرة .. حدثني عنها قليلاً حضرة الطبيب ..

● بنجامين بتفاؤل واضح في نبرته : تتمحور الأسطورة حول شخص سيزيف الإغريقي الذي امتهن التجارة والإبحار كما امتلك نزلاً خاصاً به، لكنه كان مخادعاً وجشعاً خرق قوانين وأعراف الضيافة بأن قتل المسافرين والضيوف (النزلاء) عنده و استحوذ على ممتلكاتهم ، فصوّره هوميروس ومن تلاه من الكتّاب بأنه أمكر وأخبث البشر على وجه الأرض قاطبة وأكثرهم لؤماً ..

○ فرانك : لكن ما وجه التشابه بينه و بين المليونير جيمس ؟

● بنجامين : سآتيك بالكلام .. بحسب الأسطورة فقد أمر كبير الآلهة **زيوس** إله العالم السفلي **هاديس** أن يسلسل سيزيف بأصفادٍ في الجحيم بسبب خرقه لقوانين الآلهة فوكل هاديس **ثانتوس** بهذه المهمة .. لكن سيزيف بمكره المعتاد طلب من ثانتوس أن يجرب الأصفاد والسلاسل على نفسه أولاً ليختبر مدى كفاءتها، وعندما فعل ثانتوس ذلك أحكم عليه سيزيف الأصفاد و فرّ بجلده من الموت ..

○ فرانك : يا له من مخادع حقيقي كحال المدعو جيمس ..

● بنجامين : انتظر حضرة المحقق ، فالقصة لم تنتهِ

بعد .. أحدث تقييد ثانتوس الموكل بنقل الموتى إلى العالم السفلي تمرداً ، انقلاباً ، ثورةً وهياجاً، إذ لم يعد أحد من البشر يموت ، حتى امتعض **آريس إله الحرب** من ذلك بشدة بسبب فقدان المتعة من معاركه لأن خصومه فيها لا يموتون أبداً ، لذلك تدخل وأطلق سراح ثانتوس وأرسل سيزيف إلى الجحيم مجدداً .. و عاقبته الآلهة بإجباره على دحرجة صخرة كبيرة إلى قمة جبل على نحوٍ متكرر يومياً و إلى الأبد ..

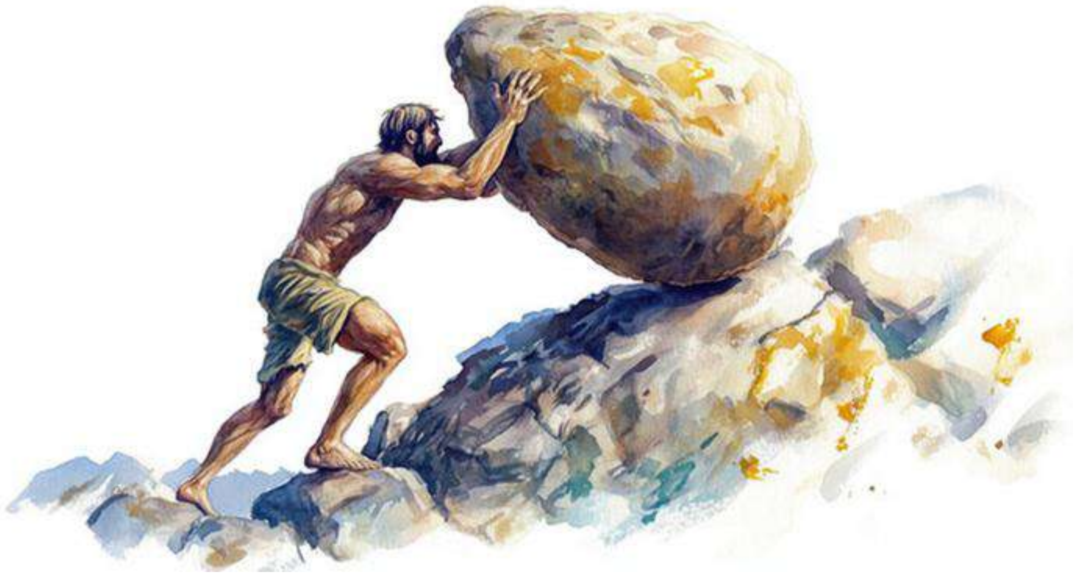

○ فرانك : فنال عقابه في النهاية ..

● بنجامين : هذا ما تظنه حضرة المحقق ..

○ فرانك : و هل ثمة مزيد في القصة ؟ ..

● بنجامين : بالطبع .. فقبل أن يرسل آريس سيزيف إلى الجحيم مجدداً أخبر زوجته أنه عندما يموت عليها أن تمتنع عن تقديم أضحيتها المعتادة و كأنه لم يمت أبداً

، أما هناك في العالم السفلي فقد شكا سيزيف **لبيرسفوني ملكة العالم السفلي** زوجته بأنها تهجره وتهمله وتتجاهل تقديم القرابين لأجله ، فاستأذنها السماح له بالصعود للعالم العلوي ليطلب من زوجته أن تؤدي واجبها وتقدم أضاحيها ، اقتنعت برسيفوني مباشرة بكلامه المعسول و المنمق بل بأكثر من ذلك ، اقتنعت بأنه قيد إلى الجحيم بطريق الخطأ و هو بريء فأمرت بإطلاق سراحه فانسل كالزئبق من جرائمه و عقابه المستحق ليعود حياً من الموت للمرة الثالثة توالياً بعد أن خدع ثانتوس و آريس و بيرسفوني ..

○ فرانك ضاحكاً : ياه ، كم هي قصة معبرة تصف بتشابه غريب حالة ذلك المليونير المخادع جيمس تماماً ، و إن كان هنالك تناسخ للأرواح فعلاً فلا شك أن سيزيف عاد للحياة مجدداً في شخص المدعو جيمس كي يزيف موته بهذه الطريقة الشيطانية لينجو من العقاب .. يبدو أنك على اطلاع واسع بالميثولوجيا الإغريقية حضرة الطبيب فهذه ثاني مرة تستشهد بها بعد تشبيهنا بأطلس من قبل..

● بنجامين: محق حضرة المحقق، فأنا من عشاق الأساطير عموماً و الإغريقية و النوردية و الفرعونية على وجه الخصوص .. سأنكبّ الآن على كتابة تقرير تطابق الأسنان و أرسله إليكم في قسم الشرطة بشكل

رسمي .. سيكون متوفراً أمامك غداً صباحاً..

○ فرانك : جزيل الشكر لك حضرة الطبيب أطلس العدالة ، بانتظار تقريرك بفارغ الصبر ..

أغلق المحقق فرانك الهاتف ببطء، وهو يرسم على وجهه ابتسامة واسعة، انتصرت على كل تعبيرات التوجس التي سبقتها، وتفوّقت في سطوتها على ابتسامة **وينستون تشرشل** ذاتها، تلك التي دوّنتها ذاكرة التاريخ عقب اندحار جحافل الحرب العالمية الثانية الكبرى.
غير أن هذه الابتسامة، لم تكن موجّهة لعدو خارجي، بل لعدو من نوع آخر: الكذب، التنكر، والخداع المتقن.

استدار فرانك نحو مساعده نوح، الذي ظل يرمقه بدهشة تتصاعد كالبخار فوق قدر الحقيقة المغليّة. كانت الضحكات التي تسللت من فم المحقق قبل لحظات، أشبه بشيفرة خفيّة؛ ضحكات رجل فكّ شيفرة لعبة قديمة،

وأدرك أن ما حسبه موتًا كان مجرّد ستار دخان.

بخفة العالم الذي أماط الغبار عن مخطوطة ضائعة، ألقى فرانك على مسامع نوح نتيجة التقرير الطبي الشرعي التي قلبت الموازين. كان الصوت المألوف للطبيب بنجامين يحمل في نبرته تلك النغمة الخافتة التي لا تصاحب إلا اكتشافات مذهلة. فالرجل في القبر لم يكن المليونير جيمس، بل نسخة بشرية مشوّهة من

سيزيف المحتال ذاك ، تلاعب بالأقدار تمامًا كما تلاعب سيزيف بقدر دفع الصخرة، غير أن صخرته كانت جثّة، وصعوده كان إلى قمة المال لا الجبل.

وبين قهقهات متقطعة وسرد مشوّق، حكى فرانك لنوح قصة سيزيف، لا كأسطورة يونانية بل كحقيقة أمريكية، تمشي على قدمين، وتُخفي خلف ربطة عنق فاخرة شبكة من الأكاذيب، أُحيكت بخيوط من مخدرات و أموال .

ثم، كما لو أن المسرحية لم تنتهِ بعد، مدّ يده إلى الهاتف، واتصل بالرئيس **ويلتون**، ليُلقي بين يديه القنبلة :

التحقيق لم يعد حول موت المليونير، بل حول اختفائه، بعد أن رتّب مشهداً دراميًا لتزييف موته. الهدف ؟ التملّص من التبعات القانونية ، ومواصلة إدارة إمبراطوريته المظلمة في تجارة المخدرات، من وراء ستار.
لكن ما حدث بعدها، لم يكن متوقعًا...

فبدل أن يعبّر الرئيس عن حماسته لهذا الاكتشاف، خيّم على صوته ظلّ ثقيل من الانزعاج، بل وربما القلق. بدا كأن ويلتون لم يتلقَ خبرًا سارًا، بل ضربة في الصميم.

كانت كلماته شاحبة، مجهدة، تختبئ خلف ضباب من التوتر غير المبرّر. وكأن الحقيقة التي كشفها فرانك

هزّت شيئًا ما داخل المؤسسة... شيئًا لا ينبغي له أن يُمسّ.

وهنا، تبادلت أعين فرانك ونوح نظرة خاطفة. لم يقولا شيئًا. لكن الصمت بينهما كان أبلغ من أي تعليق.

هناك سرّ آخر خلف الستار، سرّ أكبر من سيزيف... وأخطر من مجرد تاجر مخدرات.

وللمرة الأولى، شعر فرانك أن الشطرنج الذي يلعبه ليس مع مجرم عادي، بل مع نظام بأكمله.

*****

حلال على الشاطر ..

مقولة منتشرة للأسف في جميع المجتمعات و عبر صفحات التاريخ، عندما يصبح الاحتيال على الآخرين حلالاً و مباحاً بحجة أنه ذكاء و حنكة و أنّ القانون لا يحمي المغفلين ..

لكن ..

أي مجتمع سنبنيه ، و أي حياة سنعيشها عندما يتحول البشر إلى قطيع من الذئاب المتربصة ببعضها ، التي تنتظر خاصرة ضعيفة أو زلة عفوية كي تنقض عليها و تحتال على صاحبها .. عندها سنفقد الأمان و الطمأنينة و ستصبح حياتنا و أرزاقنا على المحك ، بحيث يمكن أن نصحو ذات نهار و كل شيء من حولنا يتداعى ..

فهل الاحتيال حلال على الشاطر بحق **؟!** أم أن ذاك مغالطة جديدة و خطيرة بدورها لا بد من إسقاط الضوء عليها كي نفضح المستور بشعاع من نور ..

هذا ما سنحاول معرفته خلال الصفحات التالية عبر مقاربة موضوع **الاحتيال** الشائك من الزوايا التالية :

① أشكال الاحتيال ..
② ذكاء أم دهاء ..
③ كارما ..

فهيا بنا عزيزي القارئ نخوض غمار هذا المعترك كي

لا نتعرض للاحتيال من قبل جهلنا و قلة حيطتنا ..

أولاً ، أشكال الاحتيال :

يعيش الإنسان في عالمٍ يثقل فيه السعي وراء الذات، ويبحث في كل زاوية عن طمأنينة مزيفة، عن قدرٍ من القوة أو المال أو الاعتراف. وفي هذا المضمار، يظهر الاحتيال كفلسفة دنيئة، فلسفة تتسلل في خيوط الحياة كعطر مسموم، يلفّ القلب قبل العقل، ويزرع الظلّ في أكثر الأماكن إشراقًا. الاحتيال ليس مجرد تصرّف عابر أو كذب عابر، بل هو نمط حياة، طريقة يفهم بها بعض البشر العالم، ويختارون فيها أن يزيّفوا الواقع بدل أن يواجهوه.

إن الاحتيال يشبه ذلك النهر الساكن في الغابة، الذي يختبئ تحت سطوح هادئة، بينما تياره تحتها عاصف وجارف. فمن يراه من بعيد يظن أن كل شيء على ما يرام، لكنه يغوص في أعماق منطق مختلف، منطق يعتمد على خداع الآخرين، واستغلال ضعفهم، وتحويل الحقيقة إلى أداة للربح الشخصي. وهكذا يصبح الاحتيال جزءًا من فلسفة الإنسان، فلسفة تقوم على الاستفادة القصوى من كل موقف، حتى لو كان الثمن نزاهة الروح وصدقها.

وللاحتيال أشكال لا تعد ولا تحصى، كل منها يحمل في

طياته سحرًا مظلمًا، وأثرًا مؤلمًا. هناك **الاحتيال المالي**، الذي يشبه السراب في صحراءٍ لا ترحم؛ يلوح أمام العيون مغرٍ وواعد، لكنه لا يقدم سوى الوهم، ويترك الضحايا تائهين في كثبان الخيبة. وهناك **الاحتيال العاطفي**، وهو أعمق وأخطر، لأنه يتسلل إلى أعمق دواخل الإنسان، فيخدع قلبه كما تخدع الريح أوراق الخريف، ويجعل من الحب وسيلة للتحكم والإشباع الشخصي. كذلك **الاحتيال المعرفي**، الذي يظهر في الادعاء بالعلم والحكمة، فيتحوّل الجهل المتأنق إلى سلاح، ويصبح التظاهر بالمعلومة لوحة فنية من الخداع.

لكن الاحتيال لا يقتصر على الآخرين فقط، بل يمكن أن يكون **ضد الذات**، حين يختبئ الإنسان خلف ستار من

الأكاذيب ليطمئن قلبه، فيوهم نفسه بأنه على الطريق الصحيح، بينما الواقع يفضح ضعفه وتردده. في هذه الحالة، يصبح الاحتيال مرآةً قاسية، تعكس الوجه الحقيقي للروح، الوجه الذي اختاره الخوف بدل الشجاعة، والكسل بدل الجهد.

إن الفلسفة الحقيقية للإنسان تكمن في مواجهة الواقع، في الصدق مع النفس والآخرين، وفي الشجاعة على أن نعيش كما نحن، لا كما يملأ الاحتيال الفراغ من حولنا. الاحتيال جميل في تصويره، لكنه قبيح في مفاعيله، مثل زهرة سوداء تتفتح في صمت الليل، سامة لكل من يقترب منها، مهما كانت عطرها فاتنًا.

في النهاية، يبدو الاحتيال كحافة حادة تفصل بين النور والظل، بين الحقيقة والوهم، بين الشرف والدنس. إنه

امتحان مستمر للضمير، يدعو الإنسان لمواجهة ذاته، واختيار الطريق الذي يليق بروحه، لا بالمصلحة العابرة. والروح التي تسمح للاحتيال أن يصبح فلسفتها، تشبه سفينة بلا بوصلة، تهيم في محيط من التضليل، لا تعرف إلى أين تتجه، ولا متى ستغرق في بحار العار.

ثانيًا ، ذكاء أم دهاء :

في رحلة البشر عبر عالمٍ لا يرحم، تتكشف أمامنا أسئلة أخلاقية وفلسفية عميقة، من بينها السؤال الذي يثير دهشة وقلق الفلاسفة والمفكرين : **هل الاحتيال حلال على الشاطر**؟ هل هو ذكاء بالفعل أم مجرد دهاء يلتف حول الحقيقة ويخدشها؟

يعيش الإنسان في مجتمعٍ معقد، حيث تتشابك المصالح وتتقاطع الأوهام، فيظهر البعض وكأنهم يتقنون فن الاحتيال كأنه لعبة شطرنج محكمة. الشاطر في هذا السياق ليس مجرد من يمتلك حيلة، بل من يحول الخداع إلى أداء دقيق، يجعل الآخرين يعتقدون أن ما يرونه واقع، وأن ما يسمعونه حقيقة و هذا ما ناقشناه من قبل في مغالطة (**هاكر العقول**) ، و مغالطة (**بروباغندا**). هنا يبدو الاحتيال وكأنه ذكاء استراتيجي، قدرة على فهم النفس البشرية، واستغلال ثغراتها، لكنه في جوهره يبقى خداعًا، فلسفة دنيئة تغلف الطمع بعباءة الفن ..

فالذكاء الحقيقي لا يحتاج إلى تزييف الواقع ليبرهن على قوته، أما الدهاء فيحتاج إلى تزييف الحقيقة ليبدو منيرًا و لامعاً ، فيختلط على الآخرين الواقع بالوهم، والخير بالضرر. حين يتحول الاحتيال إلى وسيلة للبقاء أو للربح، يصبح السؤال الأخلاقي حادًا : هل ما يقوم به (الشاطر) حلال؟ أم أن الحلال الحقيقي يكمن في الصدق مع الذات والآخرين؟ المحتال الشاطر يملك قدرة ساحرة على إبهار العيون وإلهاء العقول كما وعد إبليس الله عندما رفض السجود لآدم بأنه سيغوي البشر أجمعين ، لكنه يترك أثرًا خفيًا على الروح، كخدش عميق تحت جلد لا يشعر به إلا صاحب الروح ..

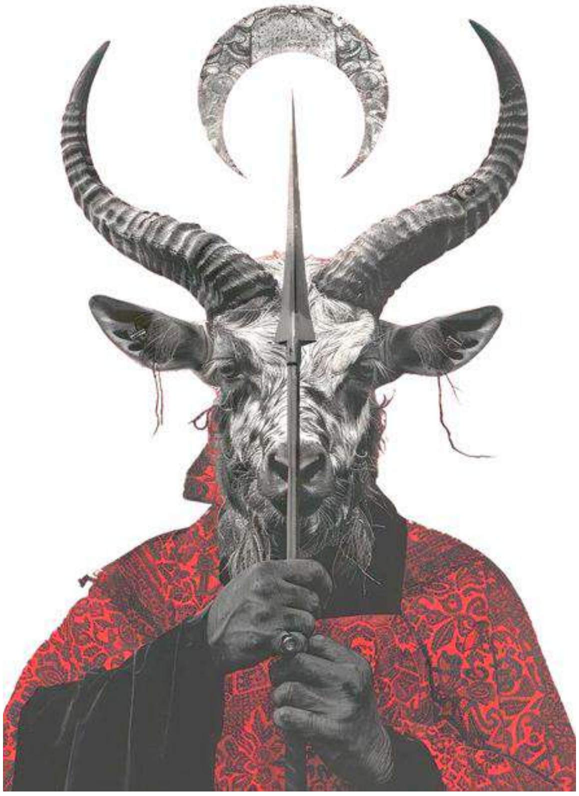

أما السؤال الثاني فهو : **هل القانون بالفعل لا يحمي المغفلين** ؟ إنه أشبه برحلة في متاهة بلا نهايات.

القانون مصمم لحماية الضعفاء من الظلم، لكنه لا يمكن أن يحميهم من دهاء بعض المحتالين، الذين يعرفون كيف يلتفون حول النصوص والفجوات القانونية، فيستغلونها لمصلحتهم، فيصبح الاحتيال مزدوجًا : احتيال على الآخرين، واحتيال على القانون نفسه.
هؤلاء الدهاة يشبهون صيادي الظلال، يرصدون كل خطوة للضحية قبل أن تعرف الضحية نفسها أنها وقعت في الفخ .. إنه احتيال بتحويل الضحية الى مغفل ثم احتيال على رزقه ..

وفي هذا السياق، المغفل ليس ضعيفًا فحسب، بل يصبح ضحية لعبة أوسع، لعبة يفهم فيها المحتال قواعد العقل البشري أفضل من الضحية نفسها. الاحتيال هنا ليس مجرد تصرّف دنيء، بل فن قائم على فهم النفس،

وفلسفة تلتهم البراءة بذكاء. هو اختبار للقوة والفهم، اختبار للحدود بين العقل والغرور، بين الثقة والدهاء.

ومع كل هذا، يبقى السؤال الأهم : **هل المحتال الشاطر يستحق الإعجاب** ؟ أم أن دهاءه يشبه البرق : سريع، ساحر، لكنه يترك خرابًا خلفه ؟ الفلسفة الحقيقية تقول إن الذكاء لا يقاس بخداع الآخرين، بل بمدى قدرة الإنسان على العيش بصدق مع نفسه ومع محيطه، دون الحاجة إلى تحويل الحياة إلى مسرحية من الأكاذيب.

في النهاية، الاحتيال ليس بوجهين فقط : (الدهاء و استغلال الفرص) ، بل هو أكثر من ذلك، هو مرآة تكشف ضعف الإنسان أمام نفسه وأمام الآخرين.
الشاطر قد يربح الآن، لكن الزمن طويل، والقيم ثابتة.
الاحتيال يظل سحرًا قاتمًا، يبهرك اليوم، ويتركك غدًا أمام حقيقة قاسية : أن الذكاء الحقيقي لا يحتاج إلى خداع، وأن القانون قد يحمي الجسد، لكنه لا يمكن أن يحمي الروح من عبث الدهاة ..

ثالثًا ، كارما :

في عالم يسير وفق قوانين أخلاقية خفية، يظهر الاحتيال كخطٍ مظلم في مسرح الحياة، يتحدى العدالة، ويجعل البعض يظن أن الخداع ساحة يمكن للشاطر أن يرقص فيها بلا ثمن. لكن الكون، في حكمته الصامتة، لا يترك

الظلم بلا حساب. **الكارما**، تلك القوة الخفية التي تعيد لكل فعل جزاءه، تعمل كقاضي لا يخطئ، يراقب الأعمال، ويعيد لكل محتال ثمن ما زرع.

الاحتيال قد يمنح الشاطر انتصارًا لحظيًا، لكنه لا يمكن أن يمحو الحقيقة الداخلية التي يعرفها قلبه، أو تأثير أفعاله على عالمه. كل خداع يولّد طاقة سلبية، وكل خدعة تُزرع اليوم، تعود غدًا، ربما بشكل مباشر، وربما بطريقة غير متوقعة، لكنها دائمًا حاضرة. الكارما هنا ليست مجرد فكرة روحانية، بل فلسفة وجودية تعلم الإنسان أن السماء لا تُخدع بسهولة، وأن الزمن دائمًا يدور ليكشف المستور و ينثر في الظلام شعاع نور ..

ولنقف عند بعض الأمثلة الواقعية التي تثبت أن المحتال مهما كان داهية، فالثمن لا مفر منه : لدينا مثلاً **بيرني مادوف**، المحامي والمستثمر الأمريكي، الذي خدع آلاف الناس **بمخطط بونزي** ضخم، جمع مليارات

الدولارات بطرق احتيالية. بدا في البداية كأنه الأذكى، لكنه في النهاية سُجن لمدة **150** سنة، وخسر كل ثرواته، كما خسر ضحاياه أحلامهم وأموالهم. هنا الكارما تجلت في الحقيقة القانونية والواقعية معًا.

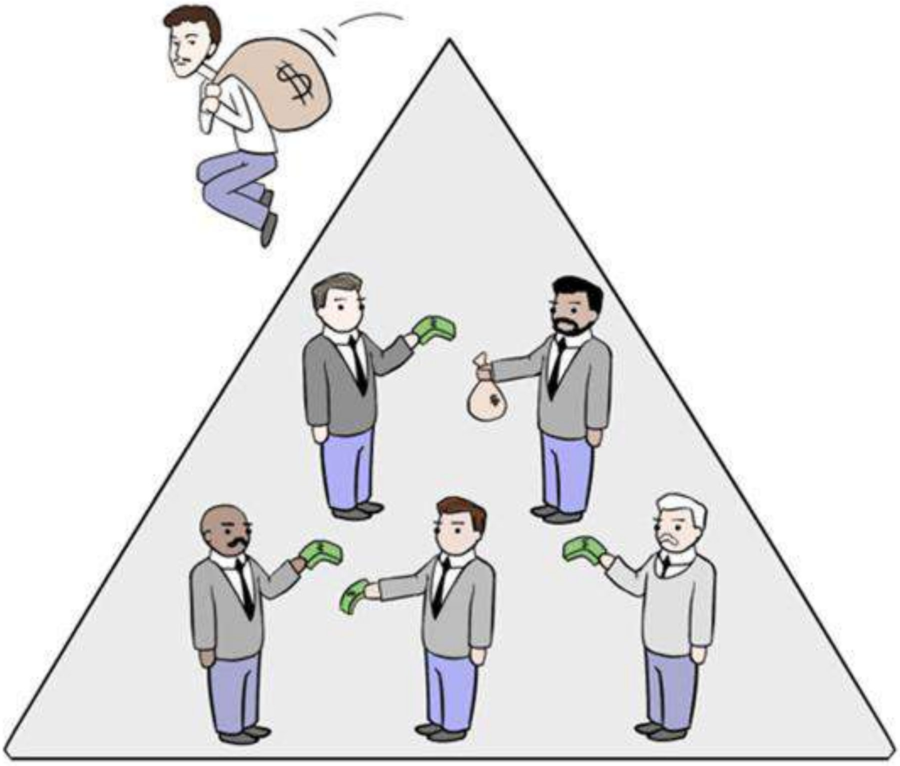

ثم لدينا **إليزابيث هولمز** ، مؤسسة **شركة ثيرانوس،** التي وعدت العالم بثورة في فحوصات الدم، لكنها كانت تختلق النتائج، وتضلل المستثمرين. على الرغم من نجاحها المؤقت وإعجاب الإعلام بها، إلا أن كذبتها انكشفت، وأدت إلى محاكمتها وسجنها، ليكون العقاب نتيجة طبيعية لتجاوزها الحقيقة.

و لا ننسى أيضاً **فضيحة شركة فودافون الهندية** ، ففي هذا المثال القانوني المعقد، حاول بعض المسؤولين

والوسطاء استخدام الحيل القانونية لتجنب الضرائب بملايين الدولارات. في النهاية، أُعيد الجزء الأكبر من الأموال إلى الدولة، وتعرض المخادعون للمساءلة القانونية. هنا الكارما عملت من خلال النظام ذاته، لتعيد الحق لأصحابه.

هذه الأمثلة تؤكد أن الاحتيال قد يمنح شعورًا مؤقتًا بالقوة والدهاء، لكنه يزرع بذور الانكسار والخسارة. الكارما تعمل بصمت، غالبًا بعيدًا عن أعين البشر، لكنها لا تخطئ أبدًا. المحتال، مهما فكر أنه ناجح، سيجد نفسه أمام مرآة أفعاله، عاجزًا عن خداع الحقيقة نفسها.

في النهاية، الاحتيال ليس مجرد تصرف دنيء، بل هو اختبار للضمير وللطبيعة الأخلاقية للعالم. الكارما تعلمنا أن العدالة لا تأتي دائمًا بسرعة القانون، لكنها حتمية، وأن كل فعل، مهما كان صغيرًا أو كبيرًا، يحمل وزنًا لا يمكن تجاهله. المحتالون قد ينجحون مؤقتًا، لكن حياتهم، بروحها العميقة، تعيد دائمًا الحق لأصحابه، في صورة

درس لا يُنسى، وفي ثمن يدفعونه عاجلًا أم آجلًا.

****

في ختام مقاربتنا لمغالطتنا الجديدة (**حلال على الشاطر**) ، من الأنسب ألا نقول بعد الآن :

= سأنتهز أي فرصة تتاح لي كي أجمع المكاسب من الضعفاء .. فذاك حلال على الشاطر و القانون لا يحمي المغفلين ..

بل أن نقول :

= الاحتيال قذر مهما حاولنا تجميله بمساحيق الذكاء و الحنكة أو الغطاء القانوني .. و الكارما لا ترحم أبداً ، فمن يزرع الشوك لن يحصد إلا الندامة و من يبذر الريح لن ينمو في وجهه سوى أعاصير تودي بحياته ..

الدهاء يلوح أمام أعين المحتال كضوء بعيد، يعده بالقوة ، لكنه فخ للآخرين سيقع هو نفسه فيه ..

كل خدعة زرعها تتحول إلى حجر يثقل صدره و روحه، كما سيزيف يدفع صخرته بلا توقف ..

الربح المبني على الظلم سراب جميل يذوب كندى الصباح مع مرور الزمن ، تاركًا الفراغ و الندم.

الكون يرقب بصمت، يعيد لكل فعل جزاءه، مهما طال

أو قصّر، فالكارما تغفو لكنها لا تموت .. و كل ساقٍ سيسقى مما سقى ..

كل ابتسامة مخادعة تتحول إلى عبء ثقيل، وكل سر احتيالي يصبح وزرًا لا يطاق ..

المحتال يدور في دائرة أفعاله، يدفع صخرة كل كذبة وكل قلب خان، بلا نهاية ..

و أخيرا الدهاء بلا أخلاق وهم، فالصدق وحده يكسر دائرة العقوبة، ويحرر الروح من دحرجة صخرة الكارما ..

يوم القيامة

(نهاية البداية و بداية اللانهاية)

مصر / الاسكندرية

أواخر عام 2472 م ..

في بيته الحجري المطلّ على الشاطئ الأزرق الحالم و الهادئ، حيث تتناغم ضوضاء الأمواج و صيحات النوارس مع نبضان العروق ، جلس **الطبيب منذر** كأنّه آخر حارس على حافة العالم. الشمس تتهادى إلى المغيب في هدوء شبه أبدي، تعانق الأفق المبلل بضوءٍ غامضٍ يلامس أسرار الأزل. كان البيت صامتًا إلا من موسيقى **هايدن**، **سيمفونية الوداع** ، و هي تعزف كما لو أن الزمن ذاته يعزفها لأخر مرة على أوتار الضوء والغياب.

وضع ساقاً فوق ساق، ورشف من فنجان قهوته كأنّها آخر رشفة من دفء هذا العالم، ثم أغلق عينيه للحظة، ليستمع لما هو أبعد من الموسيقى : لحشرجة الأرض المكتومة، وهمسات القدر التي ترتجف بين طيات النسيم قبل العاصفة. لم يكن الطبيب منذر يؤمن بنظريات المؤامرة ولا يستسلم لنبوءات الكهنة، لكن شيئًا في داخله، شيئًا قديمًا ومرعبًا وجميلًا، أخبره أن النهاية لم تعد احتمالًا... بل أصبحت يقينًا.

لقد سمع ما قالته وكالات الفضاء، وحفظ تصريحات

علماء الفلك :

(لقد عانت الأرض بما يكفي لعامين .. أما النيزك فسيمر بأمان، لا خطر على الأرض، بياناتنا مؤكدة)

لكنّ يقينه لم يأتِ من الرادارات ولا من المسارات المحسوبة. كان يقرأ النجوم على طريقته، بالتلسكوب، بل بالآيات.

لقد جلس طويلًا يراجع حساباته القرآنية، تلك التي طالما سخر منها زملاؤه في المؤتمرات، وقالوا إنها أوهام غيبية تُهدر ذكاءه العلمي. لكنه لم يكن يبحث عن تأييد أحد. فقد كان العقل عنده سلّمًا للصعود إلى الروح، لا جدارًا لردّ الإيمان. وكان قد وجد في نصوص القرآن الكريم مفاتيح للزمن، إشارات نائمة بين الكلمات، كأنها أصداء من المستقبل تتسلل عبر الحروف.

الآيات التي كانت تُتلى في المساجد بخشوع تقليدي، صارت بين يديه شيفراتٌ من نور. رأى فيها أنّ هذا العام هو الأخير، هذا الشهر هو الأخير، هذا اليوم الذي سيبدأ فيه كل شيء... وينتهي فيه كل شيء..

هو لم يكن نبيًّا، ولم يدّعِ كشف الغيب، لكنه كان يعلم كما يُعلِّم الطبيب مريضه أن الموت قادم، حتى لو أصرّت التحاليل على العكس.

قال لنفسه بصوتٍ خفيض :

(الأرقام تنحني و تتنحى أمام مشيئة القدر. المكتوب لا يكترث بالعلم و لا الإحصائيات.)

كان يعلم أن بعض الحقائق لا تُقاس بالحسابات، بل تُحسّ، ترتجف لها العظام، وتدمع لها الأرواح قبل العيون.

و تمامًا كما لا تمطر السماء بلا غيوم، فكذلك، لا تتكثف الغيوم في سماء العالم بلا وعد خفي بمطرٍ قادم.

علامات الساعة التي توالت في السنوات الأخيرة لم تعد مجازًا دينيًا بل واقعًا يَخزُ القلب في يقظته : الفتن التي لا تنطفئ، الزلازل و البراكين التي تنحرف عن منطقها كما لو أن الأرض تلفظ جلدها، التصدّعات في قلب المدن الكبرى، تلال الذهب ، الأعور الدجال ، يأجوج و مأجوج .. ظهور يسوع و المهدي ثم اختفاؤهما الغامض بدون تفسير أو مقدمات .. والأهم... سكون العدل.

كان منذر يشعر أن الحياة أصبحت كفصلٍ أخير في مخطوطة عتيقة غامضة. فسرها عقله المتيم بالبحث ، بالتقصي ، بالعدسات و المجاهر ، و ليس الذكاء الاصطناعي المتطور هذه المرة ، و الذي ينحني بجلاله أمام عظمة العقل البشري الذي لم تتجلى أسراره بعد رغم أن النهاية باتت على العتبات ..

كل شيء في مكانه، لكن بلا حركة. الطيور تطير لكن

بلا غناء. الناس تبتسم لكن بلا رجاء. الزمن يمشي ببطءٍ غريب، كأنه يتحضّر لانكماشه الأخير.

(هذه اللحظات هي آخر أنفاس الحياة البشرية)

قالها لنفسه، لا كتنبّؤ، بل كتأكيد نهائي، أشبه بآخر تقرير طبي يكتبه عن جسد الكوكب الذي أحبه.

لم يعد يهتم بالجدل، ولا بإقناع أحد، فكل ما حوله – من زرقة البحر إلى لمعان النجوم، ومن نصوص النبوءة إلى رماد البركان البعيد – يهمس له بالحقيقة التي لم تعد تحتمل التجاهل : الآتي مدمّر.

لكن وسط كل هذا الإدراك، لم يكن مذعورًا، بل هادئًا. كأنّما السلام ليس في النجاة، بل في الاستعداد. في أن تُسلّم قلبك لحقيقة النهاية، دون أن تفقد الجمال في لحظة الحياة.

رفع فنجان القهوة من جديد، وأغمض عينيه على أنغام هايدن، وقال :

(ليكن ما يكون. المهم أن أكون حاضرًا حين يسدل هذا العالم ستارَه، وأصافح الضوء الأخير كمن يشكر الحياة على كل ما أعطت... وكل ما أخذت.)

*****

عندما ينزل الستار ..

مع اقتراب النيزك ، كانت الأرض ساكنة كجسد نائم على وسادة من الوهم. لم تُعلَن حالة الطوارئ، لم تُفرغ المدن، لم تُعطّل حركة الطيران، لم تُصدر بيانات إلا تلك المشبّعة بالغطرسة العلمية :

(لا خطر، النيزك سيمر بسلام.)

كانت وكالة سانا الفضائية تبثّ صورًا حرارية و مسارات محاكاة تحاكي انتصارات الإنسان على المجهول، لكنّ الطبيب منذر، من على شرفته المطلة على البحر، لم يكن يرى إلا شيئًا واحدًا : **غرور الإنسان و هو يبتسم في وجه الهاوية.**

لقد ألغى البشر الروح، وسخروا من الغيب، وعلّقوا قلوبهم بأجهزة تقيس السرعة والميل والانحراف، ونسوا أن للقدر مداراتٍ لا تراها أقمارهم الصناعية. ظنّوا أن المجرة كتاب رياضيات، وأن الكارثة مستحيلة طالما الأرقام في صفهم.

لكن في صدر الطبيب القديم، كان شعور لا يخطئ. لقد رأى ذلك قبلًا في النصوص، في الأحلام، في ارتعاشات الجلد حين يتلو آيات المصير. لم يكن ذلك النيزك عابر سبيل، بل زائرٌ يُشبه ملَك الموت، لا يطرق الباب، بل يقتحمه بقبضته النارية.

مرت الدقائق الأخيرة كأنها قرون. كل شيء بدا عادياً لوهلة، حتى حدث الانحراف الذي توقعه منذر و أنكره البقية ..

ارتجّ مسار النيزك فجأة، كما لو أن شيئًا في قلب الأرض تنفّس فجأة فامتصه. قال العلماء : **هذا غير ممكن.** وقالت الأرض : **هذا موعدي ، و ماذا يعني الممكن في حضرة الإله ..**

ربما تأثر المجال المغناطيسي الأرضي بثورة البراكين في المحيط الهادئ، أو باهتزاز القشرة من الزلازل الأخيرة التي لم يجد لها العلماء تفسيرًا ، فأصبح أقوى و غير الحسابات و القوانين. لا يهم .. لا يهم .. لم يعد يهم ، فلن يكون هنالك غداً من يحلل و يفسر .. المهم الآن أن النيزك لم يعد يمرّ، بل يهبط.

هبط لا ببطء، بل كقبلة الموت، مندفعًا كرمح من رماد المجرات، اخترق الغلاف الجوي بسرعة تفوق أي صاروخ بشري، أضاء الليل بألف شمس. السماء لم تعد رمادية، بل صارت حمراء وذهبية وبرتقالية، كلوحة يوم القيامة ترسمها يد الجلال لا أنامل مايكل أنجلو كجدارية على جدران **كنيسة سيستينا** في مدينة **الفاتيكان** ..

رفع منذر عينيه من على شرفته إلى سماء الليل، ورأى

النور يعمي العين ويشفي القلب. ابتسم بهدوء من عرف، لا من خاف. ثم قرأ، بصوتٍ كأنّه يرتّل للنهاية لا للنجاة :

﴿ و التفت الساق بالساق ۝ إلى ربك يومئذٍ المساق ﴾

كأنّ السماء سكتت، وانحنت. ثم صرخ الكون صرخة الميلاد العكسي.

اصطدم النيزك في المحيط الأطلسي بين أوروبا و أمريكا الشمالية، ضاربًا بعمق لا تصل إليه الغواصات،

محرّرًا طاقة تفوق ملايين القنابل النووية. المياه لم تعد سائلة ، بل جدران من الرعب ترتفع آلاف الأمتار وتهوي فوق اليابسة كجناح طوفان عظيم .

اجتاحت أمواج التسونامي أربع قارات دفعة واحدة.
أفريقيا لم تعد قارة، بل ساحة غرق. أوروبا ضاعت بين رغوة البحر ومزيج الحمم. شواطئ الأميركيتين لم تكن جاهزة لوداع الحياة، لكنها وُدِّعت. مدن بأكملها ابتلعها الموج، عواصم غربية انهارت على مرأى الكاميرات ثم اختفت إلى الأبد، كأنها لم تكن.. أطلنتس لم تعد أسطورة قارة غارقة ، بل واقع قارات برمتها ..

في اللحظة نفسها، تصدّعت الأرض في كل مكان.

زلازل تفوق مقياس ريختر، تحوّلت إلى خسوفات عظيمة، حيث انفتحت الأرض وابتلعت معالم التاريخ والحداثة بلا رحمة. أبراج هونج كونج، أهرامات الجيزة، المساجد، الكاتدرائيات، الجسور، وحتى طرقات مكة، كلّها تمايلت كأنها تقرّ بأن الساعة في برجها عزفت نشيد الوداع ..

و على ذات الدرب التي ودعت فيها الديناصورات الكوكب ، و دعت البشرية بغرورها و خطاياها موطنها إلى الأبد ..

لم يبقَ شيء.

هدأت الأرض.

اختفى صدى البشر.

لم يعد للكوكب صوت، فقط رماد وحطام وأصداء بكاءٍ انقطع قبل أن يكتمل.

انضمت الأرض إلى باقي كواكب النظام الشمسي، ككوكب بلا حياة، بلا ضوءٍ داخلي، فقط جثة زرقاء تدور ببطء في صمت المجرة.

وهكذا طُبعت قبلة النيزك، ليست على سطح الأرض... بل على جبهتها.

قبلة الموت.

قبلة القيامة.

نعم، نزل الستار على مسرحية الحياة التي ظلّت تُعرض لآلاف السنين، بلا توقف، بلا فواصل، بلا جمهور يُصفق في النهاية. أُسدلت الستارة لا بيد فنيٍّ في كواليس الزمن، بل بأمرٍ علويٍّ قاطع، لا يُلغى ولا يُبدّل.

وراء ذلك الستار، انطفأت الأنفاس، و تلاشت الشخصيات : عصمت .. ديفيد .. منذر .. ميغيل و ماريانا .. باسكال .. يأجوج و مأجوج و البقية ..

لا مال نفع، ولا بنون.

لا أبراج شاهقة، ولا عملات مشفّرة.

لا وعود سياسية، ولا ترانيم دينية محفوظة عن ظهر قلب.

كل شيء تهاوى كدمى قش فقدت خيوطها.

كل المعادلات الرياضية صار صفراً.

و كل التطمينات غدت كوابيساً أو أضغاث أحلام ..

فقدت القوانين قدرتها على التفسير، وانكمش الزمن على نفسه كما يفعل القلب حين يسمع صدى الحقيقة المطلقة.

كانت قبضة الإله هي الفصل الأخير.

قبضة لا تضرب... بل تمسك.

تمسك بكوكب بأسره، كما يُمسك حجر كريم في كفٍ خفية، حجر كان في البدء أبيضًا، ناصعًا، لكنّه سوّدته خطايا البشر، حتى كاد أن يختنق من ثقلهم.

ومع النفَس الأخير، لفظهم الكوكب كما تلفظ الروح آخر أنينها، واستعاد بياضه. بياضه الحقيقي. البياض الذي لا يعرف الزيف، ولا يُلوّثه الطمع، ولا يسكنه الكذب.

وها هو الستار مغلق.

لا تصفيق، لا تصحيح، لا موسم جديد.

فقط خشبة خالية... وكوكب طاهر يدور في صمت، يشبه السجود بعد التوبة.

*****

لمن تقرع الأجراس .. ؟

نعم، إنها حكاية من روح الخيال العلمي، لكنها ترتكز على جوهر الحقيقة، على ما يختبئ خلف الحسابات الجافة والتقارير العلمية الصارمة : هشاشة الإنسان، وغطرسته، وشوقه الأعمق إلى الخلاص... لا من كارثة سماوية، بل من نفسه.

وما بين زلزلة الصدوع ، و دخان البراكين، وانحناء الزمن، و وهج النيازك، هناك سؤال لا يموت :

هل نتعلم من نبوءاتنا، أم ننتظرها لتضرب ؟

الأجيال القادمة، التي ستولد بعينٍ إلكترونية وقلبٍ ميت، ستمرُّ حتماً بعتبات تلك الأسطورة... ربما لن يُدعى البطل منذر أو عصمت أو ديفيد أو ميغيل أو باسكال .. لكن سيكون هناك دومًا من يعلم و من لا يصغي ..

سيكون هناك طفل يقرأ كتابًا قديمًا ويكتشف أن الشمس قد أشرقت يومًا من الغرب.

سيكون هناك باحث يرى في الرماد البركاني علامة

على شيء أعمق من المناخ و في زلزلة الأرض غضباً إلهياً ..

وسيكون هناك قلب، واحد فقط، يبتهل في العتمة قائلاً :

يا رب، اجعلها خاتمة رحيمة.

لقد كتبت أنامل الخيال - من خلال هذه الرواية - احتمالات النهاية، لكنها في الواقع كتبت أيضًا نبوءة الفرصة الأخيرة.

حكايتنا ليست مجرد خيال، بل مرآة تطرح على القارئ سؤالًا خفيًا :

(هل يمكن للروحانيات أن تكون هي الذكاء الاصطناعي الحقيقي ، ذاك الذي سينقذنا من أنفسنا ؟)

فإن كان في السماء غضبٌ، فلعلّه يُرجى...

وإن كانت النهاية مكتوبة، فربما في هامشها دعاءٌ قابل للتوقيع.

و إن كان حجر القلب كحجر الكعبة المقدس قد اسود من كثرة الخطايا ، فلا يزال للنور كوة يمر منها و يغسل القلوب بطهارة لتنبض من جديد ..

أكمل الفصول و الأحداث بنفسك .. فالحكاية لا تنتهي

عندما يسقط النيزك، بل عندما ينهض الضمير.

****

إن الساعة آتيةٌ أكاد أخفيها و لا ريب فيها ..

هذا عهد الله للبشر كوعد لا يقبل التأجيل أو الحوار .. موعد ثابت لن يتقدم أو يتأخر و لو جزءاً من الثانية ، منقوشاً على عقارب ساعة فوق ذرية لا تخطئ الميعاد.. عندها سينتهي كل شيء و يبدأ كل شيء ..

و مع ذلك يشكك كثير من البشر بهذا اليوم الموعود فيصفونه تارة ببدعة بشر ادعوا النبوة ، أو إرهاصات زائفة من حضارات قديمة عاشت في دنيا من الخيال و الأوهام في عصر ما قبل العلوم و التنوير ..

فهل هذا التشكيك منطقي و مبرر ؟ أم أنه مغالطة جديدة حانت ساعة قيام مقاربتها بأيدينا ؟

هذا ما سنحاول معرفته سوياً خلال الصفحات التالية عبر تحليل **يوم القيامة** الموعود من الزوايا التالية :

1. **يوم القيامة عند الحضارات القديمة ..**
2. **علامات قيام الساعة في الإسلام ..**
3. **يوم القيامة فلسفياً ..**
4. **تحديد موعد يوم القيامة ..**

فهيا بنا عزيزي القارئ نسابق عقارب ساعة القيامة علنا نسافر عبر الزمن فنشهد على ما لم يحدث قبل أن يحدث ، متكلين على زادنا من الأديان التي وصفت ذاك اليوم بإسهاب ، بل أكثر من ذلك حددت توقيته بدقة دون أن يعي جميع البشر ذلك !! ..

أولاً ، **يوم القيامة عند الحضارات القديمة** :

منذ فجر الإدراك، حين بدأ الإنسان يرفع عينيه إلى السماء ويتساءل عن المصير، كانت فكرة نهاية العالم تُخيّم على الخيال الجمعي كظلّ لا ينزاح. لم تكن مجرد خوف من الموت، بل خوف من نهاية كل شيء :
الأرض، والبحر، والنجوم، والذاكرة. لحظة تتوقّف فيها عقارب الزمن، ويتحوّل الكون إلى أنقاض صامتة.

وفي كل حضارة على امتداد المكان و الزمان ، نجد حكايات عن ذلك اليوم المريع الذي ستنتهي فيه الحياة كما نعرفها. اختلفت الأسباب والرموز، لكن النتيجة واحدة : الفناء المطلق.

الطوفان العظيم: **الغرق الأول في الذاكرة** :

ربما تكون أسطورة الطوفان هي أقدم صور نهاية العالم المتداولة بين البشر. وردت في **ملحمة جلجامش السومرية**، وسُجّلت في التوراة، وتناقلتها شعوب الهند

والصين وأمريكا الجنوبية.

تحكي الأسطورة عن طوفان يغمر الأرض كلها، يُرسل من السماء غضبًا أو تطهيرًا، فيمحو الحضارات ويترك الناجين القلائل وحدهم وسط الماء، ليبدؤوا من جديد.

لم يكن الطوفان مجرد كارثة طبيعية، بل تطهير كوني، كأن العالم يضيق بأهله، فيُغسل ليولد من رماده إنسانٌ آخر. حتى الآن، يشعر البشر برهبة غريبة تجاه الماء الغامر، كأنه يحمل ذاكرة فناء قديم، محفور في اللاوعي.

النار الإلهية في الأساطير النوردية: الراجناروك

في شمال أوروبا، حيث العواصف الثلجية لا ترحم، تخيّلت قبائل الفايكنغ نهاية العالم عبر مشهد أسطوري

اسمه: الراجناروك.

فيه تنفجر الشمس كشرارة شيطانية، وتلتهم النيران الجبال والأنهار، بينما تنطلق الذئاب والعمالقة من سجونهم، وتبتلع الثعابين السماوية السماء. لا أحد ينجو. تموت الآلهة مع البشر، وتُمحى المدن، ويذوب الجليد في طوفان ناري لا يُبقي شيئًا.

لكن بعد الفناء، يولد عالم جديد من الرماد : نظيف، ناعم، فيه أزهار تنبت على المقابر، وسماوات لا تعرف الحرب. تصور نادر لا يرى في النهاية ختامًا، بل بداية متطهّرة.

الكون يبتلع ذاته: الفناء في الهندوسية

في الفلسفة الهندوسية، نهاية العالم ليست حدثًا مفاجئًا، بل جزء من دورة كونية أزلية. الكون يُخلق، ثم يزدهر،

ثم ينهار في النهاية مع رقصة **الإله شيفا** ، الذي يُدمّر العالم كي يولد من جديد.

الزلازل، الفيضانات، الجفاف، الانفجارات الكونية... ليست عقوبات، بل إيقاعات كونية ضمن تنفّس الزمن. الكواكب تحترق، النجوم تنهار، ولكن من هذا الانهيار يُصاغ عالم جديد، كما يولد الطفل من رحم الموت.

الخطر من فوق: مذنبات، نيازك، ودمار شمسي

في حضارات المايا و الإنكا، وحتّى عند بعض قبائل أستراليا القديمة، رُبطت نهاية العالم بانفجارٍ قادمٍ من السماء: مذنب، أو شهاب، أو شمس تغضب.

رأى شعب المايا أن الزمان يسير في دورات ضخمة، وفي نهاية كل دورة، قد ينهار كل شيء بسبب حدث سماوي هائل. والنصوص الحجرية تتحدث عن نيران

تنهمر من السماء، واهتزازات في الأرض، واختفاء الشمس لثلاثة أيام.

العلم اليوم لا يستبعد هذا. اصطدام نيزك بقطر عشرة كيلومترات قد يكفي لإبادة الحضارة، كما حدث مع الديناصورات. ربما كان الخيال الشعبي أسبق من العلم، وقد يكون حدس الإنسان عن السماء نابعًا من ذاكرة كارثة قديمة حُفرت في الحمض النووي.

الجمود التام: العالم يتجمّد في الأساطير السيبيرية

في أقصى الشمال، حيث الليل يدوم أشهرًا، تخيّلت بعض الشعوب نهاية العالم كشتاء لا ينتهي. في الأساطير السيبيرية، تموت الشمس يومًا، ويتجمّد العالم كله في صمت أبيض. لا ضوء، لا دفء، لا حياة.. الكون يتحوّل إلى تمثال جليدي هائل، معلّق في الفراغ.

لا فوضى، لا نار، لا طوفان. فقط البرودة الصامتة، كأن الزمن ذاته توقف عن الحركة. ورغم بساطة هذا التصوّر، إلا أنه من أكثرها رعبًا، لأنه لا يمنح فرصة للنجاة، بل فقط الخمود.

النهاية بالعبث: **الخلق يفقد المعنى**

في بعض الأساطير الفلسفية – خصوصًا في اليونان والرومان – ظهرت فكرة أن العالم لا ينتهي بطوفان أو نار، بل بفقدان المعنى. حين يصبح العدل نادرًا، والأخلاق منهارة، والمجتمعات متفسخة، يتفكك الكون تلقائيًا.

هذه ليست نهاية كونية، بل نهاية داخلية. الإنسان نفسه يتحوّل إلى آلة شهوانية، واللغة تفقد صدقها، والروابط تنقطع. حينها، يتهاوى العالم من الداخل. وهذه الفكرة

تشبه نبوءات بعض الحكماء الذين قالوا : **العالم لا يُدمَّر بصاعقة، بل بـ لا مبالاة الجميع**.

في الأديان السماوية : **يوم الحساب** :

لم تكن الأديان السماوية بمعزل عن ذلك الهاجس الكوني. لقد حملت الكتب المقدسة رؤى مروّعة ومهيبة لنهاية الزمان، لكنها – على عكس الأساطير القديمة – لم تكتفِ بوصف الدمار، بل ربطت النهاية بمغزى أخلاقي وروحي. العالم لا ينتهي فجأة، بل كنتيجة لانحراف البشر، كأن الفناء ليس مجرد حادثة طبيعية، بل حكمٌ يصدره العدل الإلهي بعد طول صبر.

في اليهودية: **يوم الظلمة العظيمة** :

في التوراة، وخاصة في أسفار الأنبياء مثل عاموس وإشعياء، نجد إشارات إلى يوم الرب ، يوم رهيب لا

يُشبه سواه. تقول النصوص إن الشمس تُظلم في الظهيرة، والقمر يتحوّل إلى دم، وتنتشر الزلازل والمجاعات. المدن تنهار، والنجوم تتساقط، والجبال تذوب أمام غضب الرب.

لكن هذا اليوم ليس فقط كارثة، بل أيضًا نقطة تحوّل. فبعد الخراب، يأتي العهد الجديد: يعود المنفيّون، يُقام المعبد من رماده، وتبدأ مملكة السلام التي طال انتظارها.

الرؤية اليهودية تمزج الألم بالأمل، والدمار بالخلاص، وكأن النهاية ضرورية لتطهير العالم من الخطيئة الجماعية.

في المسيحية: سفر الرؤيا وعنف النهايات

أما في المسيحية، فقد تجلّت أكثر صور نهاية العالم رعبًا وعمقًا في سفر الرؤيا، آخر أسفار العهد الجديد. هناك، نجد سردًا رمزيًا مليئًا بالختم السابع، والمذبح المكسور، والفرسان الأربعة، والوحش الذي يخرج من البحر.

ينفخ الملائكة الأبواق، فتهطل النار من السماء، وتُصاب المياه بمرارة، وتنتشر المجاعات والأوبئة. قوى الظلام تحكم الأرض لفترة، ثم تُشنّ حرب نهائية في **هرمجدون** ، حيث ينتصر المسيح وتبدأ السماء الجديدة والأرض

الجديدة ..

الرؤية المسيحية تُقدّم نهاية العالم كدراما كونية ذات طابع ثنائي: صراع مطلق بين الخير والشر، ينتهي بانتصار النور، لكن بثمن هائل. لا أحد يخرج منها كما دخل. إنها النهاية التي تمهّد لفجرٍ مختلف.

في الإسلام: انفراط النظام الكوني

في القرآن الكريم والحديث الشريف، نجد أوصافًا دقيقة ليوم النهاية. لا تُقدَّم كمجرد مشهد مرعب، بل كيقين قادم، محفور في صلب العقيدة. يسميه القرآن بأسماء متعددة: الساعة ، القارعة ، الطامة ، الصاخة ، يوم الفصل ، يوم الحساب ، يوم القيامة ، الغاشية ...

يبدأ المشهد بنفخة في الصور، فتبدأ علامات الساعة بالتوالي ؛ تتزلزل الأرض، وتتفكك الجبال، وتُسجّر البحار، وتتساقط النجوم، ويغشى الدخان السماء. لا مكان يُلجأ إليه. لا زمن يُمهل. كل شيء يُجرد من زخرفه. كل نفس تحضر لتحاسب.

ثم تأتي النفخة الثانية، ويُبعث الموتى، وتُعرض الصحف، وتُوزن الأعمال. الجنة والنار تنفتحان على المصائر الأبدية.

لكن ما يميّز التصوّر الإسلامي هو الربط القوي بين

نهاية الكون ونهاية العدالة المؤجّلة. يوم القيامة ليس مجرد فناء، بل كشف للحقيقة، محكمة لا يضيع فيها صوت أو أثر. وكل ذرة فعل، مهما خفي، يُستدعى..

ثانياً ، علامات قيام الساعة في الإسلام :

أشراط قيام الساعة وردت في حديث **حذيفة بن أسيد الغفاري** على لسان نبي الرحمة و تشمل :

- انحسار نهر الفرات عن جبل من الذهب
- الأعور الدجال
- نزول عيسى بن مريم و ظهور المهدي
- خروج يأجوج ومأجوج من وراء السد
- ظهور دابة تكلم الناس
- شروق الشمس من مغربها
- الدخان العظيم
- خسف أرضي بالمشرق و خسف بالمغرب
- نار عظيمة تخرج من اليمن

هذه هي الأشراط الكبرى و لم يتحقق أي منها حتى الآن ، لكن توجد أشراط صغرى كثيرة تحقق كثير منها و لسنا في وارد ذكرها كلها ..

ثالثاً ، يوم القيامة فلسفياً :

في المخيال الفلسفي، يوم القيامة ليس مجرد حدث غيبي مؤجل، بل هو لحظة الحقيقة القصوى التي تنكسر عندها كل الأقنعة التي اعتاد عليها الوعي البشري. إنّه الانفجار الأخير للزمن، حين يتوقف جريان اللحظة فلا يبقى ماضٍ يُروى ولا مستقبل يُنتظر، بل حضور مطلق يبتلع الوجود ابتلاعاً. هناك، حيث تنحلّ صيغ العالم التي نسجها العقل، تتجلّى العدالة في صورتها العارية : عدالة لا تتوسّل قوانين ولا تخضع لموازين بشرية، بل هي تجسّد لمعادلة الوجود مع ذاته. الفيلسوف يرى القيامة كمرآة للذات، مواجهة عارية بين الإنسان وما أصبحه، حيث لا سلطة إلا لضمير متحرر من خداع اللغة والزمن. في هذا الأفق، تتحول الكواكب المتساقطة والبحار المشتعلة إلى رموز لانهيار كل البُنى الخارجية التي كانت تخدّر الروح، كي تُستدعى إلى أعمق و أهم امتحان : هل كان الوجود مجرد صدفة عابرة أم وعداً متجاوزاً ؟ القيامة، إذن، هي اللحظة التي يُسحب فيها المعنى من الظل ويُلقى في الضوء الحارق، حيث يواجه كل إنسان صورة ذاته النهائية، تلك التي شكّلها بأفعاله وأفكاره، فيصبح الحساب ليس سجلاً يُتلى، بل كينونة تَظهر. وفي هذا الكشف العظيم، يتضح أن نهاية العالم ليست فناءً، بل اكتمالاً : اكتمال الحقيقة التي ظلّت مؤجلة في دهاليز التاريخ، حتى آن لها أن تُعرّي نفسها،

مهيبة، صافية، لا ترحم ولا تجامل .. ببساطة انها نهاية البداية و بداية اللانهاية ..

رابعاً ، تحديد موعد يوم القيامة :

سبق لنا و أن تطرقنا إلى هذا الموعد من قبل في مغالطة (النسبة الإلهية) ، و من المناسب أن نعيد التذكير بها هنا في مغالطة مختصة بيوم القيامة .. في الحقيقة لتحديد هذا الموعد يجب أولاً التعرف على مصطلح رياضي شهير و هام للغاية و هو النسبة الذهبية فاي أو ما يطلق عليه العلماء النسبة الإلهية

هذه النسبة عبارة عن ثابت رياضي قيمته تقريباً **1.618** نحصل عليه بتقسيم قطعة مستقيمة إلى قسمين **A** و **B** بحيث تكون نسبة الطول الكلي **A + B** إلى القطعة الأطول **A**، مساوياً لنسبة طول القطعة الأطول **A** إلى القطعة الأقصر **B** ..

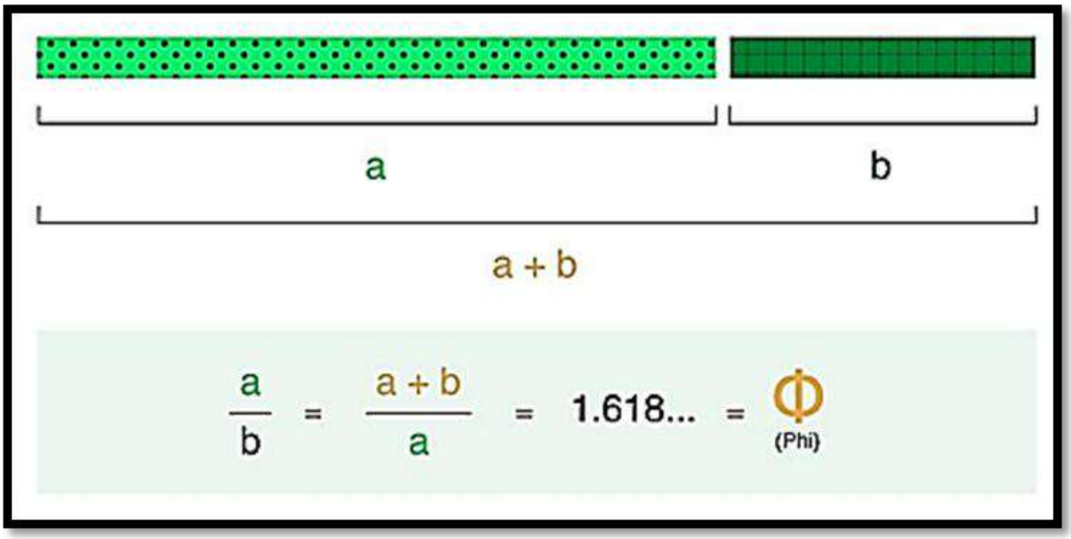

و عادةً ما يتمّ تجسيد هذه النسبة المقّدسة بطرقتين شهيرتين : **المستطيل الذهبي** : الذي يقسم إلى مربع مع مستطيل ذهبي آخر الذي يقسم بدوره إلى مربع آخر مع مستطيل ذهبي جديد و هكذا بحيث تكون النسبة بين هذه الأشكال الهندسية المتتالية هي فاي ..

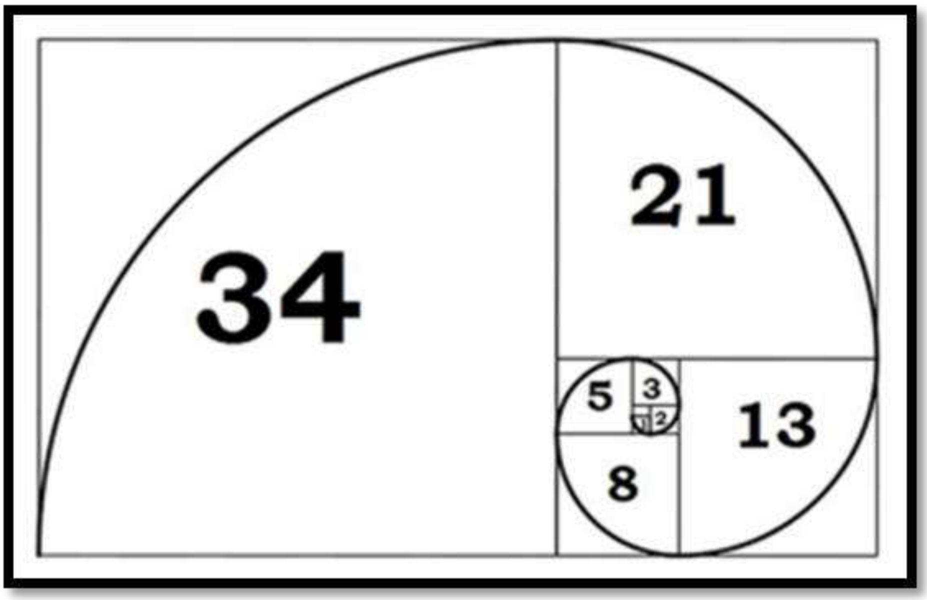

أو **متوالية فيبوناتشي الرياضية** : هي عبارة عن سلسلة من تتابع أرقام مرتبة بحيث كل رقم يكون نتيجة جمع الرقمين السابقين (**0**، **1** ، **1**، **2** ، **3** ، **5** ، **8** ، **13**، **21** ...) ..

و قد وضعها عالم الرياضيات الإيطالي ليوناردو فيبوناتشي في القرن **13** و هو نفس العالم الذي أدخل الأرقام العربية إلى الثقافة اللاتينية و ما تزال مستخدمة في الغرب حتى اليوم و تعرف خطأً بأنها الأرقام الأجنبية أما الأرقام العربية الحالية فهي هندية ، أما

الغريب في هذه المتوالية أن قسمة كل رقم فيها على الرقم الذي يسبقه هو النسبة فاي دائما فمثلاً **8** تقسيم **5** يساوي **1.618** وهكذا ..

إن النسبة فاي تحكم كل شيء في هذا الكون حرفياً ، بدءاً من الذّرة و انتهاءً بالمجرّة .. منها ما تمكّن البشر من كشفه لكن ما خفي كان أعظم ، فنجدها في **علوم الذرات و الجزيئات** ، حيث تبين أنّ النسبية فاي تلعب دوراً محوريّاً فيها ..

كما تحكم تلك النسبة **الظواهر الطبيعية** أيضاً كالأعاصير مثلاً ..

و نجدها في **تشريح الجسد البشري** ، في نسب أطوال أجزاء الجسد لبعضها البعض ، و في تركيب صيوان الأذن أو قوقعتها ، و في تركيب الجمجمة و الأسنان و الرحم و العين ، كذلك في بنية الصبغيات و **DNA** الخلايا و غيرها ..

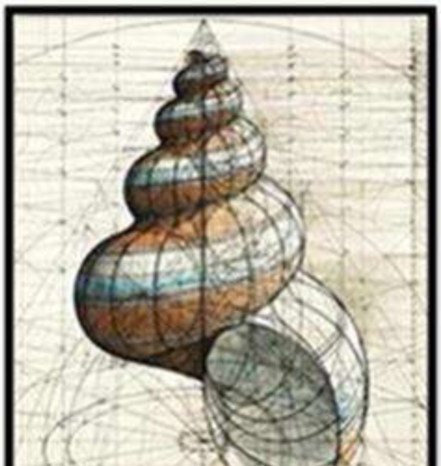

و أيضاً في **عالم الحيوان** ، نجد النسبة فاي في تركيب قوقعة الحلزون أو كائن نوتيلوس أو نجمة البحر أو النمل أو بيوت النحل أو الفراشات ... إلخ

و في **عالم النبات** ، فنجد أنّ عدد بتلات الأزهار تتبع أرقام متوالية فيبوناتشي حصراً ، كذلك حال تراتب بذور زهرة عبّاد الشمس ، و بنية أكواز الصنوبر ، و تفرع غصون الأشجار و عدد أوراقها .. إلخ

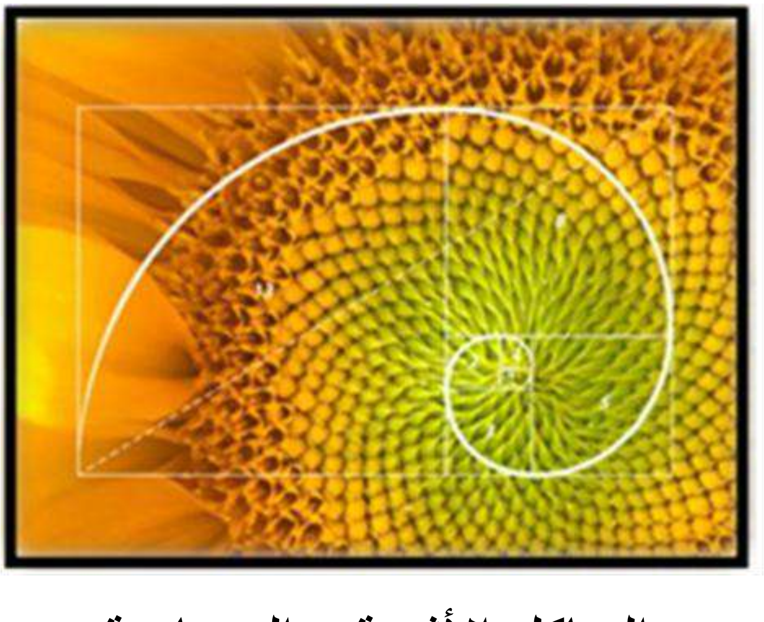

حتى كثير من الهياكل الأثرية و المعمارية بنيت اعتماداً على هذه النسبة كحال أهرامات الجيزة في مصر و أبي الهول ، و **جامع عقبة بن نافع** أقدم جامع في مدينة

القيروان ، و المعابد الإغريقية القديمة كحال **معبد البارثينون** القابع على قمّة **هضبة الأكروبوليس** في العاصمة اليونانية **أثينا** ..

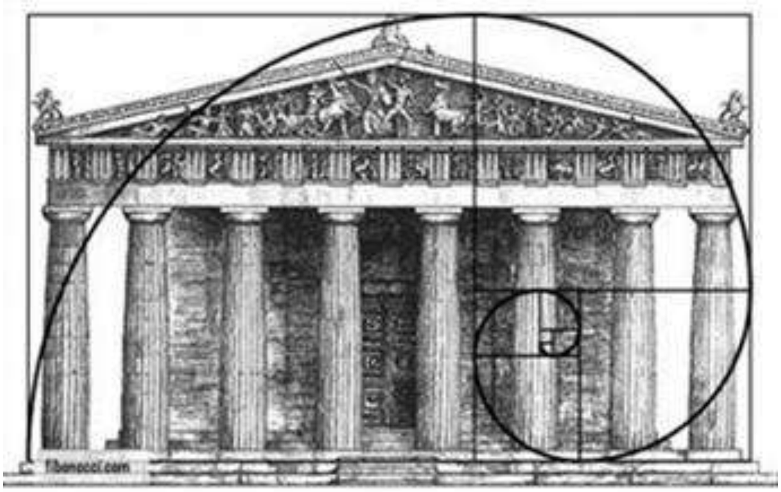

بل إن كثيراً من **الأعمال الفنية الخالدة** صممت على أساسها ، فنجد النسبة فاي في لوحة الموناليزا الشهيرة للفنان ليوناردو دافنشي و في أيقونة الرجل الفيتروني الشهيرة له أيضاً .. كذلك الحال في سمفونية بيتهوفن الشهيرة الخالدة .. حيث لحّنت على أساس هذه السمفونية بطريقة ساحرة تأسر القلوب و تسحر العقول .. لتصبح أشهر سمفونية في التاريخ ..

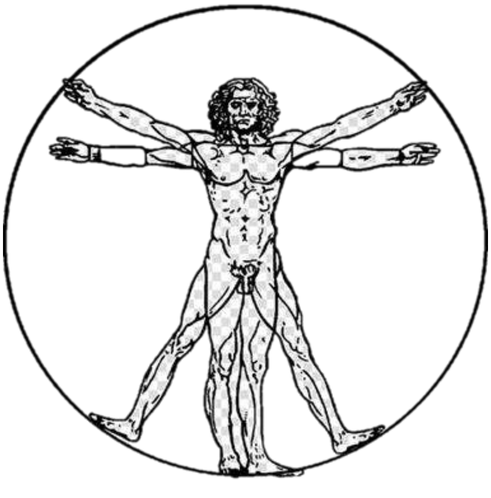

و عندما نبلغ الفضاء الكوني نجد بينة المجرات تتبع بحّد ذاتها هذه النسبة بدقّة غريبة ..

و كما ترى عزيزي القارئ فالكون برمته مصمم بالفعل وفق هذه النسبة .. إنها نسبة ذهبية بحقّ و إلهية بما لا يدع مجالاً للشك .. لكن ما علاقتها بتحديد موعد يوم القيامة ؟!

هنا لا بد من التفكير قليلاً خارج الصندوق و سؤال أنفسنا سؤال آخر هام ، و هو : لماذا جعل الله ميلاد السيد المسيح علامة فارقة في التاريخ الذي قسم إلى (قبل الميلاد و بعد الميلاد) ؟

ماذا لو أن فترة الحياة البشرية على الأرض كزمن هي قطعة مستقيمة تبدأ مع آدم و حواء وبداية البشر و تنتهي بقيام الساعة ، ثم وضعنا ميلاد المسيح كنقطة ثابتة عليها ، عندها ستصبح عبارة عن قطعتين طويلة و قصيرة ، فإن كانت هذه النقطة تحقق النسبة الذهبية كما وضحنا من قبل ، عندها يمكننا تحديد موعد نهاية الحياة البشرية بدقة .. لمَ لا ؟!!

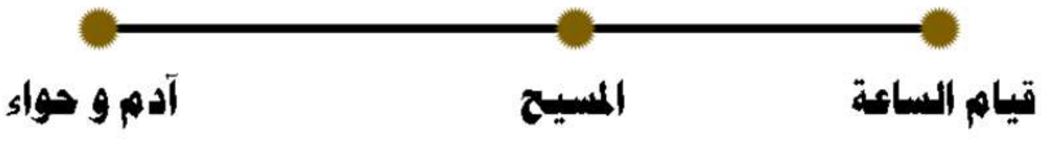

لكن أولاً علينا أن نحدد قيمة الفترة الزمنية منذ بدء الحياة بآدم و حواء حتى ميلاد المسيح كي نتمكن من

تحديد النهاية لاحقاً .. فكيف يمكننا فعل ذلك ؟

يمكننا ذلك بالاستعانة **بتسلسل آشر الزمني** الذي وضع في القرن **17** عبر قراءة دقيقة و مدروسة للعهد القديم عند اليهود و أعمار الأنبياء فيه من قبل **جيمس أشر**، رئيس أساقفة أرماغ و رئيس أساقفة كل أيرلندا .. حيث توصل آشر إلى أن الفترة الزمنية بين آدم و يسوع بناءً على تلك الأعمار هو تقريباً **4000** سنة أرضية

الآن يمكننا افتراض أنّ المدة الزمنية بين آدم و قيام الساعة هو كقطعة مستقيمة تقيس **X** و بما أن ميلاد السيد المسيح هام كما أخبرته شجرة السماء لأنه يأتي في نقطة من هذه القطعة تحقق النسبة الذهبية فاي ، فيمكننا بحسبة بسيطة أن نستنتج أن عدد السنوات من ميلاد السيد المسيح إلى قيام الساعة يحسب عن طريق تحديد قيمة **X** بالطريقة التالية **X = 4000 × 1.618 = 6472** سنة (لأنّ نسبة طول القطعة الكلية **X** و هو عمر الحياة البشرية على طول القطعة الكبرى منها و هو الفترة من آدم إلى السيد المسيح أي **4000** سنة يساوي النسبة الذهبية فاي **1.618** كما افترضنا .. و بالتالي يكون تاريخ قيام الساعة المقدّر هو **6472 – 4000 = 2472** من ميلاد السيد

المسيح ، أي أنه تقريباً بعد قرنين و نصف من الزمن من الآن ..

و مما يعزز صحة هذه الفرضية ليس فقط اعتمادها المنطقي على النسبة الإلهية ، بل أيضاً وجود حادثة منسوبة لنبي الرحمة ، حين وقف و رفع اصبعين متجاورين في يده و قال : **أنا و الساعة كهاتين** .. أي أن بعثته كنبي ليست ببعيدة عن قيام الساعة ، عندما تقرع الأجراس فتوقظ الأجساد السماوية من غفوتها دفعة واحدة .. بل إن هنالك حديثاً آخر منسوباً إلى نبي الرحمة قال فيه : **الدنيا جمعة من جمع الآخرة حوالي سبعة آلاف عام** .. و هذا ينسجم بدقة لا متناهية مع حساباتنا السابقة التي أجريناها باستخدام الرياضيات و النسبة الذهبية الإلهية فاي ..

يا إلهي هل النهاية قريبة إلى هذه الدرجة ..؟!!

****

في ختام مقاربتنا لمغالطتنا الجديدة (**يوم القيامة**) ، من الأنسب ألا نقول بعد الآن :

= القيامة بعيدة للغاية و لربما لا وجود لها من الأساس و الكون سيتمدد إلى الأبد ..

بل أن نقول :

= لا دخان بلا نار ، و لا مطر بلا غيوم .. و لقد أمطرت علينا الأديان و الحضارات القديمة بوابل من إرهاصات قيام الساعة و حلول القيامة ، و كل هذا لم يأتِ من فراغ ، بل من وعي الإنسان الأزلي إلى أنه لم يأتِ بالصدفة و لن يمضي إلى الفناء و أن بين هاتين الحالتين خيط رفيع هو القيامة و الحساب ثم الخلود في دار البقاء ، فذلك يجيب على كل الأسئلة ..

ربما القيامة ليست بعيدة كما يتوهم العقل المشغول بتفاصيل يومه .. و قد تكون أقرب من نبضٍ يتوقف أو نفسٍ يتعثر في صدرٍ مثقل.

فما الحياة إلا مهلة قصيرة، نُختبر فيها بما نزرع من فكرة وما نُطلق من كلمة وما نصنع من فعل.

ومن لم يطهّر داخله بالصدق، سيجد كتابه فضيحة مفتوحة أمام الخلائق.

إنها لحظة لا تحابي أحداً، حيث يتجسد الضمير في صورة واضحة لا مجال لإنكارها.

فلنستبق الخطوة بالإصلاح، علّنا نلقى ربنا بوجه منير لا يطأطئ خجلاً.

فالخلاص ليس في كثرة الأيام، بل في صفائها وصدقها حين يُعرض كتاب الحياة على الملأ.

الكوكب المضجر !!

(و ما خفي كان أعظم)

في صباح يوم الجمعة **16** سبتمبر **1994**، شهدت بلدة صغيرة تُدعى رووا (**Ruwa**) على أطراف العاصمة **هراري** في **زيمبابوي** واحدة من أكثر الحوادث غرابة في تاريخ ظاهرة الأجسام الطائرة المجهولة (**UFO**) ما يزيد الأمر غرابة أن شهود العيان لم يكونوا طيارين عسكريين ولا باحثين محترفين، بل كانوا أطفالاً في مدرسة ابتدائية، يبلغ عددهم أكثر من **60** طفلاً تتراوح أعمارهم بين **6** و **12** عاماً.

كان ذلك اليوم عادياً حتى خرج الطلاب إلى فترة الاستراحة الصباحية. وبينما كانوا يلعبون في ساحة المدرسة، لفت انتباه بعضهم وجود أضواء غريبة في السماء. دقائق قليلة مرت قبل أن يلاحظوا جسماً غريباً يهبط في منطقة مليئة بالأعشاب والشجيرات على بُعد مئات الأمتار فقط من ساحة المدرسة. وصف الأطفال الجسم بأنه معدني ولامع، يشبه طبقاً طائراً أو مركبة غريبة ، وأكد بعضهم أنه رأى فتحة تفتح في جانبه.

هنا بدأت أكثر لحظة إثارة في القصة : قال العديد من الأطفال إنهم شاهدوا مخلوقين أو أكثر يخرجون من المركبة. أوصافهم اختلفت في التفاصيل لكنها تشابهت في الجوهر :

- طول المخلوقات يقارب طول الإنسان ..

- ذات رؤوس كبيرة، وعيون لامعة وواسعة.
- أجسادهم نحيلة، ولباسهم أشبه ببدلة سوداء ضيقة.

ما جعل الشهادة أكثر غموضاً هو أن بعض الأطفال أكدوا أنهم لم يكتفوا برؤية الكائنات، بل شعروا أنها تخاطبهم ذهنياً. قالوا إن الرسالة التي وصلتهم تمحورت حول التحذير من **تدمير البيئة** و **التكنولوجيا الخطيرة**، وهو أمر غير مألوف بالنسبة لعقول أطفال في ذلك العمر.

لم يصدق المعلمون في البداية روايات الطلاب، خاصة أن الكبار لم يروا شيئاً، لكن الإجماع شبه التام بين الأطفال جعل الأمر يستحق المتابعة. تم استدعاء الصحافة المحلية، وسرعان ما انتشر الخبر عالمياً.

أبرز من قام بدراسة الحادثة كان **البروفيسور جون ماك** ، وهو **طبيب نفسي** من **جامعة هارفارد** وحاصل على **جائزة بوليتزر**. سافر ماك إلى زيمبابوي بعد أسابيع من الحادثة، وأجرى مقابلات مطولة مع الأطفال. لاحظ أن رواياتهم متماسكة وغير متأثرة بخيال الطفولة المعتاد، بل مليئة بتفاصيل دقيقة ومتشابهة رغم أن كل طفل كان يُسأل بشكل منفصل.

حادثة **مدرسة آرييل** في زيمبابوي تبقى حتى اليوم من أكثر الحوادث الغامضة إثارة للدهشة، لأنها تختلف عن غيرها من مشاهدات الأجسام الطائرة بكونها مرتبطة بالأطفال، الذين غالباً ما يُفترض أنهم أبعد ما يكونون عن المؤامرات والقصص المركبة. سواء كانت القصة دليلاً على زيارة كائنات فضائية أو مجرد لغز نفسي/اجتماعي لم يُفك بعد، فإنها تمثل علامة فارقة في تاريخ تقارير الـ **UFO**، وتستمر في إثارة الجدل بين الباحثين والعلماء والهواة على حد سواء.

****

لا أشك للحظة أن هذه القصة أثار حماسك و فضولك عزيزي القارئ بسبب غرابتها و خطورتها ، بعد أن اعتدت على الأخبار اليومية المعتادة حول العالم ..
زلزال هنا ، حرب هناك ، وباء آخر ، اتفقايات دولية جديدة بشكل معاد و متكرر يثير الضجر بلا ريب ..

و إن بلغت الإثارة ذروتها سمعت أن أنثى باندا أنجبت توأم لطيف في إحدى حدائق الحيوان ، حتى تشكل عند الناس قناعة حقيقية بأن كوكب الأرض كوكب ممل يدور في حلقة مفرغة من الأحداث المتشابهة ، فلا الطبيعة تتغير ، و لا الأحداث تتجدد ، نفس الجوهر بأسماء مختلفة و مناطق مغايرة و أشخاص جدد .. فهل هذه القناعة منطقية و مبررة ؟

من سوء الحظ و حسنه في آن ، أن هذه القناعة الشمولية واحدة من أكبر المغالطات المنتشرة على كوكب الأرض .. فكوكبنا في الواقع مرتع لإثارة حقيقية منتشرة في أصقاعه ، لكن و كما هو حال الأحجار الكريمة ، نادرة للغاية بين عدد هائل من الحصى ، كذلك الأماكن أو الأحداث أو الظواهر أو الاكتشافات الغامضة و المثيرة موزعة بشكل اقل على بلدان العالم ، ليبحث عنها و يجدها كل عاشق للإثارة و الغموض ، تماماً **كحادثة مدرسة آرييل في زيمبابوي** المبهمة و الخطيرة التي تحدثنا عنها منذ قليل .. و مهمتي في هذه المغالطة عزيزي القارئ أن اثبت لك أن كوكب الأرض أكثر حماساً مما تعتقد بأن أجمع لك كوكبة من أكثر الأمور غموضاً و إثارة عليه فأضعها بين يدك بمنتهى السهولة لتتعرف عليها و تستمتع بها .

فهيا بنا في هذه المغامرة الشيقة ..

أولاً ، **ظواهر غامضة** :

❁ **أصوات السماء** :

منذ عام **2011**، والعالم بين حين وآخر يصحو على أصوات أشبه بأبواق عظيمة أو هدير لا يُعرف مصدره، تأتي من السماء وكأنها نداء كوني غامض. في **كندا وأوكرانيا وأمريكا** وأماكن أخرى، ترددت هذه الأصداء المخيفة، حتى أن بعض الناس وقفوا مذهولين في الشوارع، يرفعون وجوههم نحو الفضاء وكأنهم ينتظرون جواباً من الغيب.

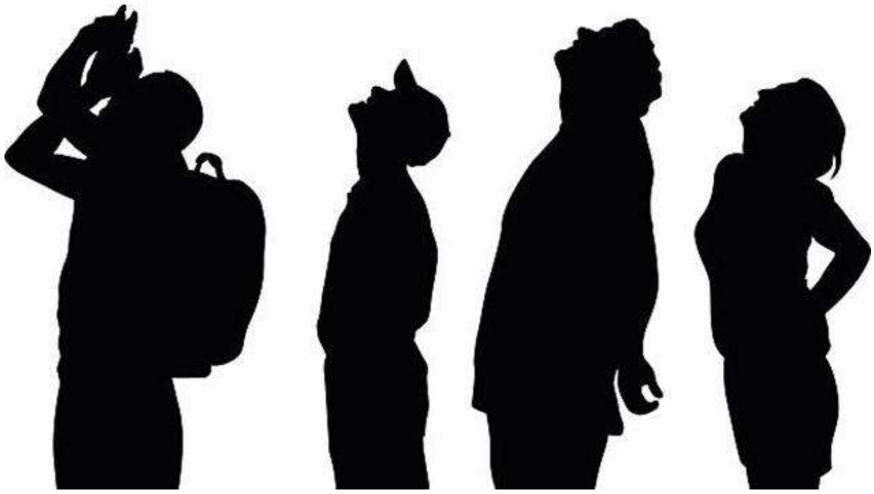

العلماء حاولوا أن يفسروا ما يحدث : منهم من قال إنها **ارتدادات جيولوجية**، ومنهم من أرجعها إلى **حركات في طبقات الغلاف الجوي**، لكن الحقيقة ظلت عصيّة، مخفية بين السحاب. شيء في تلك الأصوات يجعل الروح ترتجف، وكأن السماء تكشف فجأة عن وجهها الغامض، أو كأنها تحاول أن تهمس للبشر برسالة لا يفهمونها

بعد. أصوات لا تُشبه أي لحن مألوف، بل أقرب إلى موسيقى كونية مخيفة، تُذكّرنا كم أن عالمنا، رغم كل ما نظن أننا نعرفه، لا يزال مملوءاً بأسرار تتجاوز إدراكنا.

❁ انفجار تونغوسكا في سيبيريا :

في صباح بعيد من صيف عام **1908**، تحولت غابات سيبيريا الهادئة إلى مشهد من القيامة. كرة نارية مجهولة عبرت السماء قبل أن تنفجر بقوة تفوق آلاف أضعاف قنابل البشر، فتساقطت آلاف الأشجار صريعة على مدى آلاف الكيلومترات، وكأن يدًا غامضة قد صفعت الأرض.

الغريب أن هذا الانفجار لم يخلّف وراءه حفرة ارتطام،

كما يحدث عادة مع النيازك. لم يجد العلماء سوى الدمار المدوّي والدهشة المعلّقة في الهواء. هل كان مذنباً احترق في السماء؟ أم جسماً كونيّاً مجهولاً اخترق غلافنا الجوي ليترك أثره ثم يتلاشى؟ لقد فشل العلم في منحنا إجابة نهائية، وبقيت غابات تونغوسكا شاهداً على حدث يتجاوز حدود التفسير. حتى اليوم، حين يزور أحدهم تلك الأرض الموحشة، يشعر أن الصمت هناك يخفي صرخة قديمة، وأن الهواء نفسه يحتفظ بذاكرة الانفجار، كأن الأرض لم تنسَ ذلك اليوم الذي اقترب فيه الغامض من أسرارها.

❁ حادثة ممر دياتلوف :

في شتاء عام **1959**، خرجت مجموعة من المتسلقين الروس إلى **جبال الأورال**، ولم يعودوا. حين عُثر على جثثهم، كان المشهد كابوسياً : خيم ممزقة من الداخل، أجساد مبعثرة في الثلج، بعضها بلا ملابس في صقيع قاتل، وبعضها يحمل كسوراً لا تفسرها أي قوة طبيعية. الأغرب أن آثار إشعاع غريب وجدت على ثيابهم، وكأنهم عبروا في حقل من أسرار غير بشرية.
التحقيقات الرسمية قالت انهيار ثلجي، لكن القلوب لم تصدّق : لا انهيار يقطع الخيم من الداخل، ولا برد قارس يترك جثثاً تحمل علامات غامضة. من يومها، أصبحت حادثة ممر دياتلوف رمزاً لكل ما لا نعرفه،

وما نخاف أن نعرفه. بين نظريات عن تجارب عسكرية سرية، وتفسيرات عن لقاءات مع شيء غير أرضي، **يبقى السؤال معلقاً فوق قمم الأورال، يجلجل مع الريح :** ماذا حدث فعلاً في تلك الليلة المظلمة؟

۞ كرات النار فوق نهر الميكونغ :

في **تايلاند و لاوس**، يتجمع الناس كل عام عند ضفاف **نهر الميكونغ** مع غروب الشمس، في انتظار معجزة متكررة. فجأة، ترتفع من قلب الماء **كرات نارية حمراء**، تصعد إلى السماء في صمت ثم تختفي كما ظهرت. السكان المحليون يسمونها **أنفاس التنين** ، ويربطونها بأساطير قديمة عن كائنات غامضة تعيش

في أعماق النهر. أما العلماء، فقد حاولوا البحث عن تفسير : **غازات مشتعلة؟ تفاعلات كيميائية في الماء؟** لكن المشهد، بكل سحره، يرفض أن يُحصر في مختبر. إنك حين ترى تلك الكرات تتوهج في عتمة الليل، لا تفكر في الكيمياء، بل في الشعر الكوني الذي ينساب من قلب النهر. هناك، على ضفاف الميكونغ، يتحول الواقع إلى أسطورة، والناس يتشاركون لحظة نادرة حيث يلتقي العلم بالعجز، ويترك المجال للخيال أن يحلّق.

۞ الأهرامات تحت الماء في جزيرة يوناغوني :

في أعماق البحر قرب جزيرة يوناغوني اليابانية،

اكتُشف شيء يربك العقول : هياكل صخرية ضخمة، متدرجة، أشبه بأهرامات غارقة أو مدينة نائمة. البعض يرى أنها مجرد تكوينات طبيعية نحتتها المياه عبر آلاف السنين، لكن آخرين يقسمون أنها من صنع حضارة

قديمة اختفت مع الزمن أشبه بحضارة أطلنتس و بذات المصير. حين يسبح الغواص بين تلك الدرجات المغمورة، يشعر وكأنه يتجول في أطلال أسطورة مفقودة. الجدران تبدو منتظمة، الزوايا تكاد تنطق بأنها صُممت بيدٍ بشرية، لكن اليقين غائب، مثل سرّ دفين يأبى أن يُكشف. البحر هناك ليس مجرد ماء، بل كتاب غامض يحفظ بين طياته تاريخاً آخر للأرض، تاريخاً لا نجرؤ على الاعتراف به بعد. الأهرامات تحت يوناغوني تذكير أن حضارتنا، مهما بدت عظيمة، ليست أول من حلم وبنى، وأن البحر يخفي أكثر مما يكشف.

ثانياً ، أماكن غامضة :

❁ سرداب أوزيريس – مصر :

في قلب الجيزة، حيث تقف الأهرامات شامخة تتحدى

الزمن، يختبئ تحت الرمال ما يُعرف بسرداب أوزيريس، ممر غامض يقال إنه يقود إلى عالم آخر. يصفه البعض بأنه بوابة تربط الأرض بالآلهة، بينما يراه آخرون مقبرة ملكية لم تُكشف أسرارها بعد. الأساطير تقول إن من يدخله دون إذن قد يفقد عقله أو يُحاصر في عتمة لا مخرج منها. الماء الراكد الذي يغمر أجزاءً منه يضفي عليه رهبة تشبه الأبدية. وعلماء الآثار حين ينزلون إليه، يشعرون أنهم ليسوا وحدهم. الجدران الصامتة تُحدث همساً غير مسموع، كأنها تخبئ سر الخلق والموت معاً. سرداب أوزيريس ليس مجرد موقع أثري، بل لغز يختبر شجاعة من يقترب منه. وفي كل مرة يُكتشف فيه ممر جديد، يزداد الغموض اتساعاً بدل أن ينكشف. كأن السرداب نفسه يرفض أن يُروى حكايته كاملة.

❁ حفُرة يعقوب – تكساس :

في ولاية تكساس الأمريكية، تتلألأ المياه الصافية لنبع عجيب يُسمى حُفرة يعقوب. من الأعلى يبدو كمجرى مائي هادئ، لكنه يخفي في أعماقه فوهة عميقة تتشعب منها ممرات مظلمة لا نهاية لها. غواصون كُثر نزلوا ليستكشفوا أعماقه، لكن بعضهم لم يعد أبداً، كأن الحفرة ابتلعتهم بلا رحمة.

القصص تقول إن المياه هناك تخدع الحواس، فتجعل الغواص يظن أنه يعرف طريقه، بينما هو يتوه في

متاهة صخرية لا مهرب منها. العمق المجهول يبعث في النفوس رهبة، وكأنك تقف على عتبة بوابة إلى العالم السفلي. ومع ذلك، لا يتوقف المغامرون عن محاولة اختراقه، كأن سحر المجهول أقوى من الخوف. كل متر تنزل فيه تشعر أن الضوء يخونك شيئاً فشيئاً. فتسود عتمة مطلقة لا ينجو منها إلا الأجرأ أو الأوفر حظاً. وهكذا تبقى حفرة يعقوب بين جمال ساحر وموت يتربص في الصمت.

۞ كهف شاندونغ – فيتنام :

في أعماق غابات فيتنام، يفتح كهف شاندونغ فاه كوحش أسطوري، كاشفاً عن أكبر جوف عرفه البشر. حجمه هائل لدرجة أن طائرة صغيرة يمكن أن تحلق داخله، وفي قلبه غابة مستقلة وعالم بيئي مكتمل. أشعة الشمس تتسلل عبر فتحاته العملاقة، لتضيء أنهاراً تحت الأرض وأشجاراً شاهقة تنمو بعيداً عن أعين البشر. أصوات الطيور والحيوانات تعكس حياة لم تطأها القدم البشرية إلا نادراً. من يدخله يشعر أنه انتقل إلى كوكب آخر، حيث تمتزج الواقعية بالخيال. الضباب يلف الممرات، والهواء رطب كثيف برائحة الطحالب القديمة. العلماء ما زالوا يكتشفون أنواعاً جديدة من الكائنات هناك، وكأن الكهف يخبئ أسرار الأرض الأولى. زواره يقفون مذهولين أمام عظمة المكان،

كأنهم ضيوف على حضارة طبيعية عتيقة. أما الظلام في أركانه البعيدة، فيظل يلوح بما لم يُكتشف بعد.

۞ سلسلة جبال ماكو – نيبال/التبت :

تتسلق السحب القمم البيضاء لجبال ماكو، حيث يقف الجليد كحارس أبدي للغموض. هناك، بين الثلوج والوديان السحيقة، تنتشر **أسطورة اليتي** ، ذلك الكائن الغامض الذي يقال إنه نصف إنسان ونصف وحش. الرعاة يتحدثون عن خطوات عملاقة تترك آثاراً على الثلج ثم تختفي فجأة. المتسلقون يقسمون أنهم سمعوا عواءً غريباً يدوّي في الليالي المظلمة. البعض يراه مجرد وهم صنعه الخوف، بينما يؤكد آخرون أن الجبال تخبئ مخلوقات لا نعرفها بعد. المناظر هناك تبعث هيبة في النفس، وكأنها مسرح لأسرار لا يريد الجليد أن يكشفها. كل قمة في ماكو تحمل صمتاً ثقيلاً، يقطعه

أحياناً هدير الرياح كرسائل غامضة. والإنسان مهما بلغ من شجاعة، يبقى ضيفاً عابراً في حضرة هذه الطبيعة العاتية. جبال ماكو ليست مجرد تضاريس، بل أسطورة حية تنبض بين الجليد والغيوم.

۞ صخرة أولورو – أستراليا :

في قلب الصحراء الأسترالية تقف صخرة أولورو، كتلة هائلة من الحجر الرملي يتغير لونها مع كل شروق وغروب، فتبدو ككائن حي يتنفس مع السماء. بالنسبة لقبائل السكان الأصليين، ليست مجرد صخرة، بل كائن مقدس يحمل ذاكرة الأرواح الأولى. الأساطير تقول إن الأرواح خلقت الأرض من حولها، وإن كل تجويف و شق فيها يحمل قصة من قصص الخلق. الزائرون

يشعرون أن للأرض هناك نبضاً خفياً، كأنها تهمس لمن ينصت. السياح يلتقطون الصور، لكن أبناء القبائل يقتربون بخشوع وصمت. في الليل، حين يكتسي الأفق بالنجوم، تتوهج أولورو بهالة غامضة تجعلها أشبه بمذبح كوني. من يقف أمامها يشعر أنه صغير جداً أمام عظمة مجهولة. وحين تهب الرياح، تملأ الأذن بنغمة خفية كأنها تراتيل قديمة. أولورو ليست حجراً فقط، إنها معبد الزمن الذي لا يشيخ.

ثالثًا ، طبيعة خلابة :

❁ سالار دي أويوني – بوليفيا :

حين تسقط الأمطار على هذا الامتداد الملحي العظيم، يتحول إلى مرآة لا نهائية تعكس السماء. تبدو الغيوم وكأنها تسبح تحت قدميك، ويتلاشى الخط الفاصل بين

الأرض والفضاء. هو مكان يجعل العابر فيه يتوه بين الوهم والحقيقة. كأنك تمشي في حلم ممتد بلا نهاية.

۞ كهوف الرخام – تشيلي :

في قلب باتاغونيا، تحتضن المياه جدرانًا رخامية نُحتت عبر آلاف السنين. ألوانها الزرقاء والرمادية تتماوج مع انعكاس البحيرة فتبدو كلوحات فنية سماوية. الدخول إليها يشبه عبور ممر سحري إلى عالم آخر. إنها معابد الطبيعة التي لم يلمسها إنسان إلا برهبة.

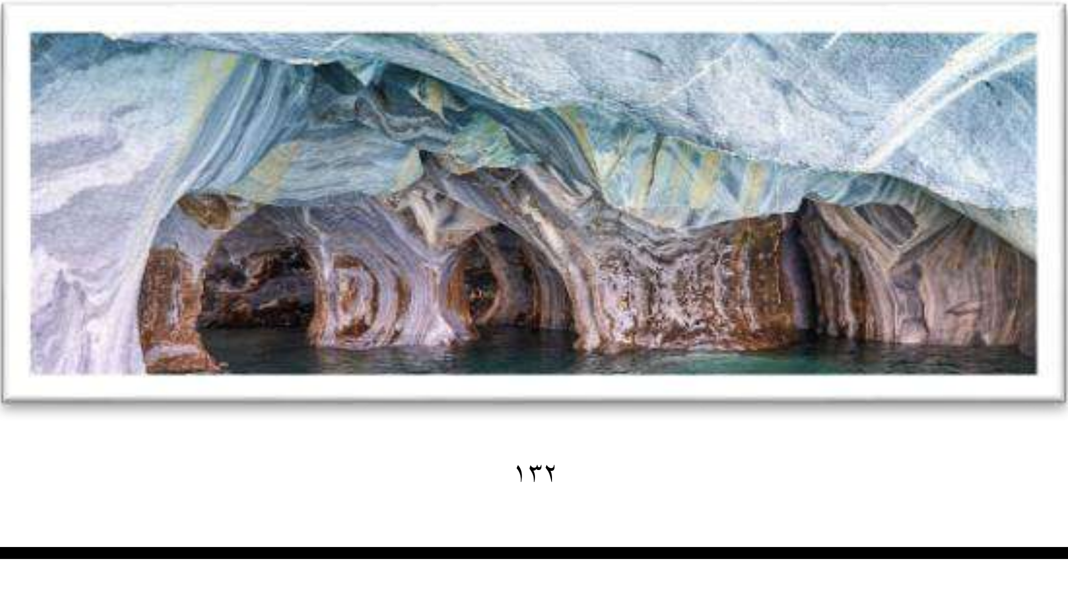

۞ بحيرة ميفاتن – شمال أيسلندا :

هناك حيث تتنفس الأرض من باطنها، تتناثر بحيرات بركانية بين سهول البخار والحمم المتجمدة. المشهد يبدو وكأنه قطعة من كوكب بعيد لا يعرف الاستقرار.
الألوان الداكنة والتكوينات الغريبة تحكي عن صراع مستمر بين النار والجليد. وفي صمت المكان، تسمع أنفاس الأرض تتردد .. ما يميز المنطقة وجود دوائر من رماد تتناثر هنا و هناك دون تفسير واضح لآلية تشكلها !!

۞ كهف الكريستال العملاق – المكسيك :

في أعماق المناجم، يستقر عالم يلمع بضوء خافت من بلورات جبسية عملاقة. بعضها يبلغ عشرة أمتار، كأعمدة نور نبتت من رحم الأرض. الدخول هناك أشبه

بالولوج إلى قلب أسطورة منسية. كل خطوة تُذكرك بأن الطبيعة لا تعرف حدودًا لحجم إبداعها.

❁ شلالات بلتفيس – كرواتيا :

في حضن الغابات الكثيفة، تتساقط المياه من بحيرة إلى أخرى، كأنها سلّم سماوي من زمرد وماء. أصوات الشلالات تملأ المكان بنشيد لا ينقطع. الألوان تتراقص بين التركواز والأخضر والفضي. إنه مسرح مفتوح للخلود، حيث تتصافح السماء مع الأرض عبر الماء.

❁ جبال تيانزي – الصين :

أعمدة صخرية ترتفع كحرّاس أسطوريين، متغلغلة وسط الضباب الكثيف. تبدو وكأنها جزر طافية في بحر من السحاب. المشهد يستحضر عوالم الأحلام، حتى أن السينما استعارت جماله لتصنع عوالمها كما في فلم أفاتار الشهير. من يقف هناك يدرك أن الأرض قادرة على رسم لوحات تفوق الخيال.

رابعاً ، حيوانات و نباتات عجيبة :

❁ الأخطبوط المقلد ذو العيون الثلاثة :

في أعماق المحيطات، يسبح الأخطبوط المقلد ذو العيون الثلاثة بين الصخور والشعاب، وكأنه ممثل ماهر في ارتداء الأقنعة. كل حركة له تحمل سحرًا غريبًا، حيث يقلد أكثر من خمسة عشر نوعًا من الحيوانات البحرية،

كأنه يحكي قصصًا بلا كلمات. تتراقص أذرعه في المياه كلوحات حية، تحمل في طياتها سر البقاء والمكر. يظل هذا الكائن لغزًا حيًا، يذكرنا بأن الطبيعة أحيانًا تتقن فن التمويه بطريقة تفوق خيال الإنسان.

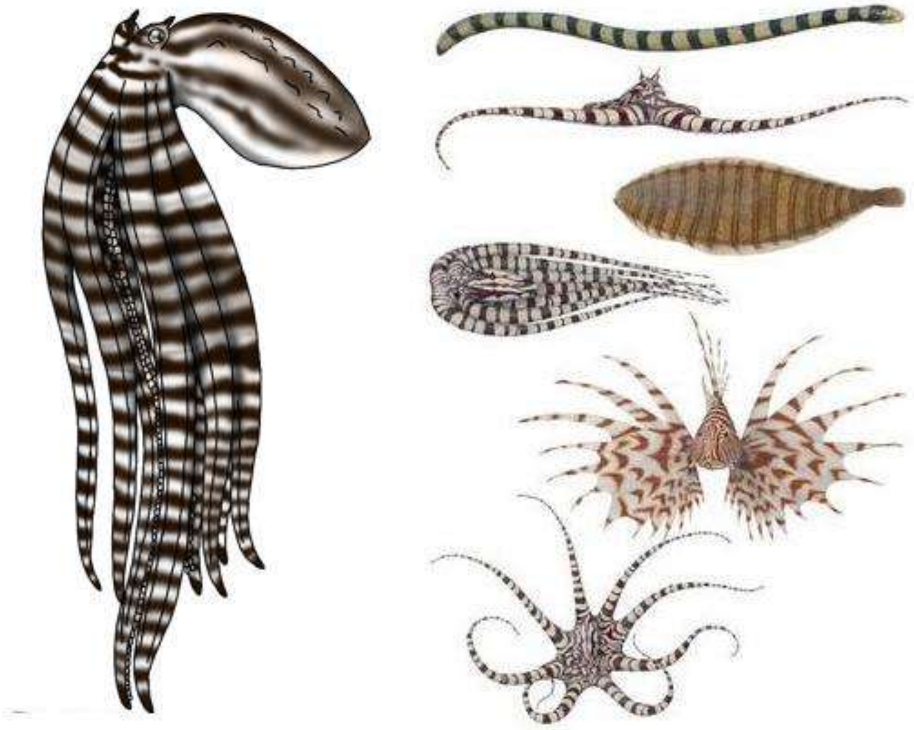

۞ **خلد الماء** :

خلد الماء مخلوقٌ يخرج من الأساطير ليعبر ضفاف الأنهار في **أستراليا** البعيدة .. جمع بين منقار البطة و جسم القندس، وكأن الطبيعة رسمته بريشة شاعرٍ حالِم.

عيناه اللامعتان تتوارى خلف هدوء الماء، فيما يغوص بخفة كطيفٍ مائي .. هو **ثديي يضع البيض**، في تحدٍّ عجيب لنواميس الخليقة المعهودة .. وفي ساقه شوكة سُمٍّ خفيّة، تذكيرٌ بأن الجمال قد يخفي أسرارًا مُرهِبة.

يتنقّل بين اليابسة والماء وكأنه رسولٌ بين عالمين ..

❁ الضفدع الشفاف :

الضفدع الشفاف يظهر كحلمٍ خفيف على أوراق الغابات المطيرة في أمريكا الوسطى والجنوبية، جسده يكاد يختفي عن الأنظار. أعضاؤه الداخلية تبدو كاللوحات المضيئة، تكشف عن معجزة الحياة بكل تفاصيلها الدقيقة.

كل نظرة إليه تثير الدهشة، فهو يوازن بين الظهور والاختفاء، بين الغموض والجمال. يظل هذا الكائن الصغير رسالة صامتة عن أسرار الطبيعة وعجائبها التي لا تنتهي.

❁ سمك الرئة :

سمك الرئة يتحدى قوانين الحياة كما نعرفها، قادر على التنفس في الهواء، بينما يسكن المياه العذبة في إفريقيا وأستراليا. يبدو كأن الزمن قد نسيه في عالم حديث، يحمل بين زعانفه تاريخًا من الصمود والتكيف. كل حركته في الماء تنطق بالحياة، وكل صعوده إلى السطح يذكرنا بعظمة الطبيعة في ابتكار الحلول للبقاء. إنه شاهد حي على قدرة الكائنات على التكيف، وعلى الروعة الغامرة لعالمنا المائي الغني بالأسرار.

❁ زهرة بيرونيلا :

تعلو زهرة بيرونيلا بين قمم جبال أمريكا الجنوبية

كعملاق صامت يراقب العالم من علوه، يصل ارتفاعها إلى عشرة أمتار، فتبدو كبرج أخضر مزهر. أوراقها الصلبة تحتضن أزهارًا صغيرة تتجمع في عنقود ضخم، كأنها نجم مضيء في سماء الغابة. مع كل نسيم، تهتز أزهارها كأنها تهمس بأسرار آلاف السنين. إنها شاهدة على صمود الطبيعة، ورمز للقوة والجمال المتفرد الذي يتحدى الزمن.

❁ زهرة الجرس الأزرق :

على الصخور الجرداء، تتدلى زهرة الجرس الأزرق بأناقة غريبة، كأنها أقداح صغيرة معلقة تحاكي صمت

الطبيعة الصخري. لونها الأزرق العميق يشبه لوحة رسمها الغروب على الجبال، ويجذب العيون كالسحر الخفي. رياح الجبال تمر بين أزهارها فتصدر موسيقى خفية، موسيقى للحياة رغم القسوة المحيطة. كل زهرة تهمس بحكاية الصبر والقدرة على التألق في أصعب الظروف.

❁ زهرة التنين :

زهرة التنين تتلألأ بألوانها الزاهية كما لو أن ألف تنين صغير أخذ مكانه على الأرض، أوراقها وبتلاتها تشبه الرؤوس الصغيرة المشتعلة. كل لمسة لها تحمل إحساسًا

بالحركة والحياة، وكأنها تتحرك في رقصة صامتة مع الرياح. عند النظر إليها، يختلط الواقع بالخيال، فتشعر أن عالماً سحريًا ينبض خلف كل زهرة. إنها رمز للغرابة والجمال الذي يخرج عن المألوف ويثير الدهشة.

۞ **نبات ولويتشيا** :

في قلب صحراء **ناميبيا** القاحلة، تنبض ولويتشيا كمعجزةٍ خضراء ضد النسيان .. هي نبات لا يعرف الفناء السريع، أوراقه تمتد كجدائلٍ أبدية تنمو ولا تتوقف .. ورقتان فقط، لكنهما تصيران بساطًا أخضر

متشابكًا يروي حكاية آلاف السنين .. تشرب من ضباب البحر البعيد، كأنها تستنشق أنفاس الغيم لتبقى حيّة .. تتحدى قسوة الرمل والقيظ، لتصبح رمزًا لصبرٍ لا ينكسر .. من ينظر إليها يظنها بقايا زمنٍ أسطوري، نجت من طوفان العصور ..

*****

في ختام مقاربتنا لمغالطتنا الجديدة (**الكوكب المضجر**) ، من الأنسب بعد الآن ألا نقول :

= كوكب الأرض ممل للغاية ، فالأحداث الطبيعية و البشرية فيه معروفة و تتكرر باستمرار ..

بل أن نقول :

= كوكب الأرض يعجّ بالظواهر و الأحداث و الأماكن الغريبة و الغامضة و المثيرة ، لكن علينا أن ننقب عنها

بأنفسنا في مغامرة شيقة تحبس الأنفاس ، بل إن أجمل ما في كوكبنا العزيز أنه يتحفنا بمزيد من الإثارة مع كل يوم جديد..

في صفحات التاريخ أسماء كثيرة لرحالة دفعهم حب المغامرة و البحث عن الإثارة للتجوال بين قارات العالم و التعرف على كل ما هو جديد و مثير و غامض قاطعين آلاف الكيلومترات في سعيهم هذا ، **كابن بطوطة** و **ماركو بولو** و غيرهم .. أما أنت عزيزي القارئ فلن تصدق كم أنت محظوظ .. فبوجود الأجهزة الذكية و الانترنت ، يمكنك زيارة كل العالم و التعرف على كل ما هو غريب و غامض و أنت جالس في مكانك تحتسي فنجان شاي .. لذا لا تفرط بهذه النعمة العظيمة و استثمرها .. علّ هذه المغالطة تكون بمثابة فتيل إشعال لقنبلة البحث و الاكتشاف لديك .. فما خفي من عجائب كوكب الأرض أعظم بكثير مما ذكرناه !!

ميثولوجيا

(تفسير ما لا يفسّر)

منذ أن بدأ الإنسان يتلمس طريقه في ظلال هذا الكون الرحب، شعر بحاجة غريبة إلى السرد، إلى خلق عالم يمزج بين الملموس والخيال، بين ما يراه وما يتوق إلى فهمه. هنا ولدت **الميثولوجيا**، تلك اللوحة السحرية التي جمعت بين الخيال والفلسفة، بين الروح والطبيعة، لتصبح مرآة النفس البشرية وعينها الثاقبة على العالم. لم تكن مجرد حكايات تروى، بل كانت محاولات فطرية لفهم المجهول، لتفسير النجوم، الرياح، والموت، وللتواصل مع قوة أكبر من الإنسان ذاته، قوة تسكن كل حجر وكل نهر وكل شعلة نار.

الإنسان ابتدع الميثولوجيا لأنه وجد نفسه عارياً أمام أسرار الكون، يبحث عن معنى في دائرة الحياة والموت، عن سبب لوجوده في هذا المسرح العظيم. في كل أسطورة، نجد انعكاساً لشغف الإنسان بالبحث عن ذاته، عن الأخلاق، عن الحب والخيانة، عن الخير والشر، وعن التوازن بين الفناء والخلود. كانت الميثولوجيا مرشداً، وأحياناً صديقاً صامتاً، يرشد الإنسان إلى فهم نفسه قبل فهم العالم، ويعلمه أن القوة العظمى ليست في التحكم بالطبيعة فقط، بل في القدرة على قراءة رموزها وفهم دروسها العميقة.

لقد تركت الميثولوجيا بصماتها على حياة البشر بطرق لا يمكن حصرها. فقد شكلت عقولهم، وأثرت على معتقداتهم، وألهمت فنونهم وشعائرهم. في حضارات

بابل ومصر القديمة، كانت الأساطير تقود الطقوس الدينية، وتمنح الملك الشرعية، وتفسر الظواهر الطبيعية. أما في **اليونان**، فقد اكتسبت الأساطير بعداً فلسفياً، حينما أصبح زيوس أوديسيوس وأفروديت رموزاً لصراع الإنسان الداخلي، بين الرغبة والشرف، بين الطموح والخوف. ومن خلال تلك القصص، تعلم الإنسان أن كل تجربة في الحياة تحمل عبرة، وكل انتصار أو هزيمة جزء من نسيج أكبر، نسيج الحياة نفسها.

تنوع الميثولوجيا أدهش العالم، فهي زاخرة بالقصص التي تحمل في طياتها الجمال والعبر. خذ مثلًا أسطورة

الإلهة الإسكندنافية **فريا**، التي تعكس الصراع بين الحب والحرب، في الميثولوجيا الإغريقية أيضاً، يعلّمنا **هيراكليس** أن الإرادة تصنع المستحيل، وأن البطولات الحقيقية تقاس بالصبر على المصاعب لا بالقوة وحدها. وفي الميثولوجيا المصرية، تعلمنا رحلة **أوزيريس** أن الموت ليس نهاية، بل بوابة للخلود، وأن الحب والإخلاص قادران على انتزاع الحياة من بين أنياب الفوضى .. أما في الشرق، فنجد **أساطير الهندوسية** تربط بين الآلهة والكون، حيث كل إله يرمز إلى قوة كونية أو قيمة إنسانية، فتتحول الأسطورة إلى خريطة للحياة الروحية. وكل أسطورة، مهما اختلفت أصولها، تحمل رسالة واحدة : الإنسان يسعى إلى التوازن، إلى فهم ذاته، وإلى إدراك أن الحياة أكثر من مجرد عيش يومي، إنها رحلة نحو الحكمة والمعرفة.

إن الميثولوجيا، إذن، ليست مجرد قصص تُحكى، بل هي لغة الإنسان السرمدية مع العالم، حوار دائم بين الحاضر والماضي، بين الملموس والرمزي. هي اختبار مستمر لفهم الإنسان لذاته وللكون، وسحره الأبدي يكمن في قدرته على أن يكون مرآة للروح البشرية، مرآة تتغير بتغير العصور، لكنها تظل وفية لمبدأ أساسي : أنّ الإنسان، في كل زمان ومكان، يحتاج إلى أسطورة ليعيش، وإلى قصة لتفسر له الكون وتغذي روحه.

****

في رحلة مغالطاتنا التي امتدت على تسعة كتب ، تطرقنا في كثير منها إلى الدين ، هذا الموضوع الذي يحتل بديهياً مساحة كبيرة من عقل الإنسان الذي لا ينفك يسأل : من أين أتيت ؟ كيف أعيش ؟ و إلى أين سأمضي بعد الموت ؟ كما أننا خصصنا مغالطات كاملة للدين فحسب ، فتناولنا الأديان السماوية و طوائفها ، الأديان الأرضية ، و الأديان الحديثة العجيبة ..

و الآن نصل إلى آخر فصل من حكاية الأديان : الميثولوجيا التي سبقت كل ذلك ..

و خلال الصفحات التالية سنتطرق إلى أشهر و أثرى الميثولوجيات التي ابتدعها البشر : **الإغريقية ، الفرعونية ، السومرية ، النوردية و ميثولوجيا شعب المايا ..**

فهيا بنا في هذه المغامرات المثيرة على خطى صديقنا هيركليس ..

أولاً ، الميثولوجيا الإغريقة :

حين يتأمل المرء بدايات الإنسان الأولى، يلمح خوفه من الليل الطويل، وهيبته أمام البحر الهادر، ورجاءه في الشمس التي تعود كل صباح. من هذا القلق البدئي ولدت الحكاية، ثم اتسعت حتى غدت أسطورة، وفي بلاد الإغريق القديمة تحولت إلى نسق متكامل من الميثولوجيا، يفسر الكون كما لو كان مرآة لأهواء البشر

وضعفهم وآمالهم.

لم يكن الإغريق ينظرون إلى العالم كفضاء جامد، بل كساحة تموج بآلهة تتصارع، تعشق، وتغضب، تماماً كما يفعل البشر. الأسطورة الإغريقية لم تنشأ بقرار مدون، بل تفتحت مثل زهرة برية على ضفاف بحر إيجة؛ جمعت بين الذاكرة الشفهية، والأناشيد التي يرددها الشعراء المتجولون، وبين الحاجة لتهذيب الفوضى الكونية في صورة قصصية. ومن هنا غدت الميثولوجيا خزاناً للمعنى، ومرآة للخيال الجمعي الذي نسج صورته عن الخلق، القدر، والموت.

يبدأ السرد الإغريقي **بكاوس** ؛ الفراغ الأول الذي منه خرجت **غايا** ـ الأم الأرض ـ ومعها **إيروس** ـ قوة الحب التي تدفع الموجودات للتكاثر ـ ومن غايا وُلد **أورانوس** ـ السماء ـ الذي صار زوجها وخصمها معاً. ومن صراعهما تفتحت أولى الملاحم : فقد أنجبت غايا العمالقة و التيتان، ومنهم **كرونوس** الذي انقلب على أبيه وأطاح به ليصير سيداً. لكن كرونوس نفسه ابتلع أبناءه خشية أن يثوروا عليه، حتى أنقذت **ريا** طفلها الأصغر **زيوس** ، الذي سيكبر ليقود حرباً عظيمة ضد أبيه ويحرر إخوته، معلناً بداية عهد الآلهة الأولمبية.

زيوس، سيد السماء والرعد، جلس على عرش الأولمب محاطاً بإخوته وآلهة شكّلت بانوراما واسعة : **هيرا**، ربة

الزواج والغيرة، **بوسيدون** سيد البحار، **ديميتر** ربة الخصب والزرع، **وأثينا**، ابنة الحكمة التي خرجت مكتملة الدروع من رأس أبيها. هناك أيضاً **أفروديت**، ربة الجمال، التي قيل إنها ولدت من زبد البحر، و **آريس**، إله الحرب، و **ديونيسيوس** سيد الخمرة والجنون المقدس. هؤلاء لم يكونوا مجرد رموز جامدة، بل شخصيات نابضة بالتناقض، تعكس طبائع البشر: قوتهم وضعفهم، عشقهم وغضبهم، وفوضاهم العاطفية.

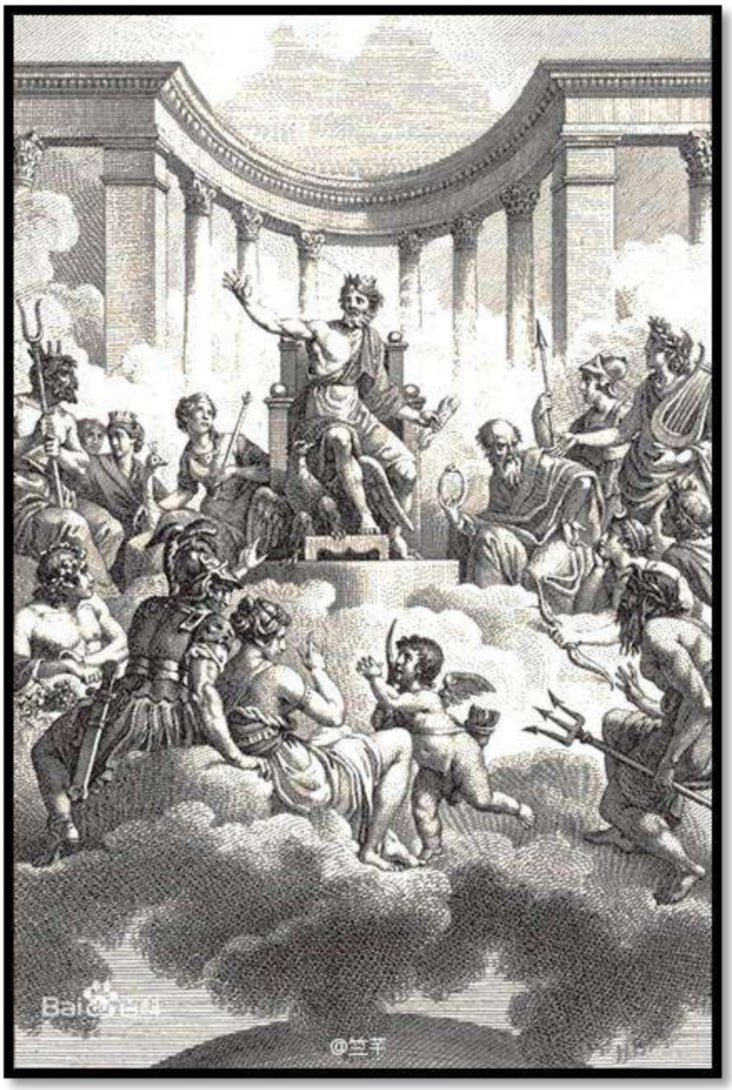

إن كانت الآلهة فوق البشر، فإن الأبطال كانوا جسر

الوصل بينهما : أنصاف آلهة، أو بشرٌ حازوا بركات خاصة. أبطال الميثولوجيا هم الذين جسّدوا الحلم الإغريقي بالقوة والشرف، وإن دفعوا أثماناً باهظة.

أشهر هؤلاء **هرقل** ؛ الذي حمل على كتفيه اثني عشر عملاً مستحيلاً، فصار رمزاً للإرادة الخارقة. وهناك **أخيل** ، الفارس الذي لا يُقهر في حرب طروادة، إلا أن عقبه الصغير ظل ثغرة القدر التي قادته إلى الموت. و **أوديسيوس** ، بطل الحيلة والعقل، الذي تاه عشرين عاماً في بحار الغربة قبل أن يعود إلى عرشه، بعد أن واجه الغيلان والبحارة الساحرات. أما **برسيوس** ، فقد واجه ميدوسا برأسها المفزع ذي الشعر الأفعواني، وانتصر بمرآة درعه قبل أن يجلب رأسها كغنيمة.
هؤلاء الأبطال، وإن اختلفت مصائرهم، ظلوا تجسيداً لعطش الإنسان للإجادة، ولرحلته الأبدية في مواجهة القدر.

ما يميز الميثولوجيا الإغريقية هو تلك الكائنات العجيبة التي تملأ فضاءها. فهي ليست مجرد وحوش، بل رموز لأهوال النفس والطبيعة. هناك **العمالقة** الذين واجهوا الآلهة في معركة أسطورية، و **الهيدرا** التنين ذي الرؤوس المتعددة التي كلما قطع هرقل رأساً لها نبت آخر مكانه، في إشارة إلى شراسة الشر واستمراريته.

وتطل علينا **الغيلان** مثل **المينوتور**، ذلك المخلوق نصفه ثور ونصفه إنسان، الساكن في متاهة كريت، والذي لم يهزمه سوى الشاب ثيسيوس بمساعدة الخيط الذهبي. وهناك **السيرينات** ، العرائس البحريات اللواتي يجذبن البحارة بأصوات فاتنة حتى يهلكوا على الصخور. أما **السايكلوب** ، العمالقة ذوو العين الواحدة، فقد كانوا رموزاً للقوة العمياء التي لا يردعها عقل.

هذه الكائنات ليست محض فانتازيا، بل صور رمزية للتحديات التي يواجهها الإنسان : الخوف من المجهول، غواية الشهوة، طغيان القوة، وفوضى الرغبات.

ثانيًا ، الميثولوجيا الفرعونية :

في البدء لم يكن سوى صمتٍ عميق يغمر الوجود، وظلامٍ كثيف يلف الأفق. ومن هذا السديم، ولد نون ؛ المحيط الأزلي، الذي يحمل في أعماقه بذور الخلق. ومنه خرج التلّ البدئي، أول بقعة يابسة تطل من بين المياه، إيذاناً بميلاد الكون. هناك، فوق هذا التل، بزغ رع ـ إله الشمس ـ ليشق الظلام بضوئه، وينفخ في العالم الحياة.

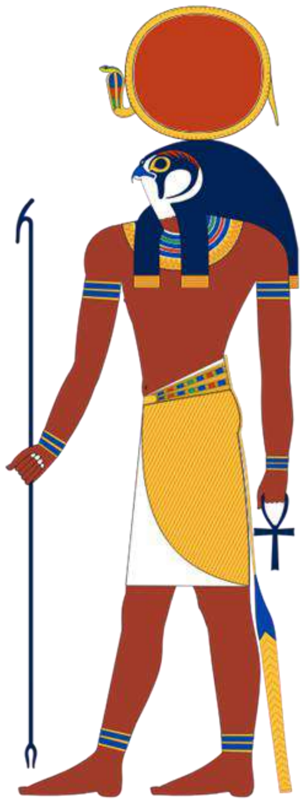

لم تنشأ الأسطورة الفرعونية فجأة، بل تفتحت على ضفاف النيل مثل زهرة لوتس بيضاء، تحمل في أوراقها قصة الكون والإنسان. كانت الأساطير وسيلة المصري القديم لفهم سرّ الفيضان، دورات الليل

والنهار، والموت والبعث. لم تكن مجرد قصص للتسلية، بل طقوس روحية تحيطها الكهنة بالقداسة، وتنسجها الأجيال حول سرّ الخلود الذي ظل أعظم ما يشغل الفكر المصري.

عالم الآلهة الفرعونية كان واسعاً متشعباً، يمزج بين قوى الطبيعة وصور الإنسان والحيوان. في البداية ظهر رع سيد الشمس والخلق، الذي سافر كل يوم عبر السماء في قارب ذهبي، ثم ينزل مع الغروب إلى العالم السفلي ليحارب قوى الظلام قبل أن يولد من جديد فجراً. ومن رع جاء **شو** إله الهواء، و **تفنوت** ربة الرطوبة، وأنجبا **جب** إله الأرض، و **نوت** ربة السماء، ومن اتحادهما وُلدت أهم الآلهة : **أوزيريس** ، **إيزيس** ، **ست** ، و **نفتيس** .

أوزيريس كان رمز الخصب والحياة، و **إيزيس** ربة السحر والأمومة، أما **ست** فقد جسّد العنف والعاصفة

والفوضى، فيما **نفتيس** كانت ظلّاً حنوناً في عالم الموتى. لم تكن هذه الشخصيات آلهة مجردة، بل صوراً للإنسان في قوته وضعفه، في عشقه وغدره، وفي صراعه الأبدي بين النظام والفوضى.

من بين الأساطير الفرعونية، يظل أوزيريس البطل الأبرز. فقد غدر به أخوه ست وقتله، ثم مزق جسده وبعثره في أرجاء مصر. لكن إيزيس، بحبها وإخلاصها، جمعت أشلاءه، وأعادت له الحياة بسحرها، لينجبا حورس ؛ الصقر الذهبي الذي سيقف لاحقاً في مواجهة ست، ويخوض معه صراعاً أسطورياً يرمز إلى انتصار الحق على الباطل، والنظام على الفوضى.

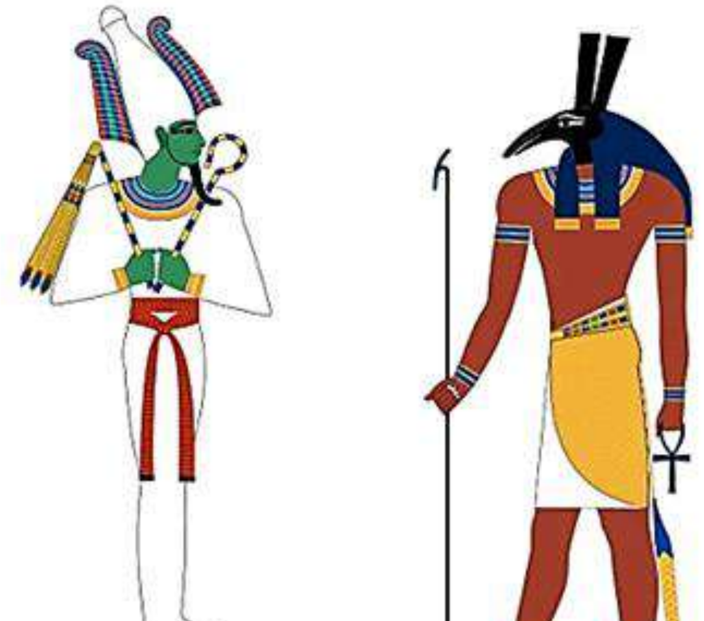

حورس، بعينه التي أصابها ست ثم شُفيت، صار رمزاً للحماية والرؤية النافذة، وعينه ـ العين المقدسة ـ تحولت

إلى أيقونة للقدرة على طرد الشر وجلب البركة.

أما رع، فقد كان بدوره بطلاً في رحلته الأبدية عبر السماء، إذ يقاتل كل ليلة الأفعى الكونية **أبوب** ، ليضمن شروق الشمس من جديد. في هذه الملاحم تجلّت فكرة البطولة كقيمة روحية، ترتبط بالصمود في وجه الظلام، أكثر مما ترتبط بالقوة الجسدية وحدها.

الميثولوجيا الفرعونية امتلأت بكائنات عجيبة، بعضها حامٍ وبعضها مرعب. على رأسها **أبوب** ؛ الأفعى العملاقة التي تجسد الفوضى والعدم، وتهاجم مركب رع كل ليلة. وهناك **آمموت** ؛ الكائن الهجين برأس تمساح، وجسد أسد، ومؤخرة فرس نهر، الذي يلتهم قلوب الأشرار في محكمة الموتى، ليمنعهم من نيل الخلود.

ومن الكائنات أيضاً **البا** و **الكا** ، وهما روحا الإنسان بعد الموت؛ الأولى طائر برأس بشري يرمز لروح الفرد، والثانية طاقة الحياة التي تظل بحاجة إلى القرابين لتستمر. كما نجد كائنات الحماية مثل **تواِرت** ، ربة الحوامل بشكل فرس النهر، و **بس** ، القزم المرح الذي يطرد الأرواح الشريرة بوجهه القبيح.

هذه الكائنات لم تكن مجرد رموز أسطورية، بل انعكاس لرؤية المصري القديم للكون كمعركة مستمرة بين النظام والخراب، وبين الرحمة والعدالة من جهة، والرعب والفوضى من جهة أخرى.

الميثولوجيا الفرعونية لم تكن مجرد مخيلة، بل فلسفة وجودية عاشها المصري القديم بكل وجدانه. في قصصها عن الخلق، أراد أن يفهم سر البداية. في ملحمة أوزيريس وحورس، سعى لترسيخ قيم العدالة والنظام. وفي كائناتها الرمزية، عبّر عن مخاوفه من العدم ورغبته في الحماية.

لقد كانت هذه الأساطير بمثابة لغة سرية للنيل وهو يفيض، وللشمس وهي تغرب وتعود، وللموت وهو يفتح أبواب العالم الآخر. إنها مرآة الروح المصرية، التي آمنت أن الحياة ليست نهاية، بل رحلة نحو الخلود. وما تزال هذه الميثولوجيا، بألوانها الزاهية وعوالمها المدهشة، شاهداً على أعمق ما حلم به الإنسان : أن يهزم الموت بالذاكرة، وأن يخلّد نفسه بالأسطورة.

ثالثاً . الميثولوجيا السومرية :

على ضفاف دجلة والفرات، حيث أول مدينة خطّت على الطين، وُلدت الأسطورة. لم يكن للسومري القديم أن يرى في فيض النهر مجرد ماءٍ يتدفق، بل روحاً

سماوية تمنح الحياة وتأخذها. في عتمة الليل، حين يعلو صمت السهول، كان يسمع همس الآلهة في الريح، فيسجّلها على ألواح الطين لتبقى أبدية.

الميثولوجيا السومرية نشأت من قلب العلاقة بين الإنسان والطبيعة. لم يكن الكون لديهم فراغاً بارداً، بل مسرحاً لآلهة تتصارع وتتصالح، وتتحكم في المطر والخصب والموت. من العمق البدئي المعروف بثنائية **أبزو** و **تيامات** ، تجسدت أولى الصور الكونية : الماء العذب والماء المالح، ذكراً وأنثى، أصل الوجود وأول جدل بين التناسل والصراع. ومن اتحادهما وُلدت سلالة الآلهة التي ستتشكّل مسرح الأسطورة.

في البدء، كان **أن** سيد السماء، رمز العلو والقداسة. ومن بعده جاء **كي** ، الأرض الأم.

اتحاد السماء والأرض أنجب **إنليل** ، إله الهواء والقدر،

الذي غدا سيداً على الكون. كان إنليل هو من فصل السماء عن الأرض، ليصنع للعالم حدوداً واضحة، ويمنح للبشر موطناً.

ثم ظهر **إنكي** ، إله الحكمة والمياه العميقة، الذي أحبّ أن يمنح الإنسان أسرار المعرفة والفنون. وهو الذي يرمز إلى العمق الخفي، وإلى دهاء العقل وقدرته على صناعة المعجزات. ومن بين الآلهة أيضاً برزت **إنانا** ، ربة الحب والحرب معاً، جمالها فتنة وسلطتها غضب. كانت أكثر الآلهة قرباً من البشر، وأكثرهم تناقضاً : تمنح العشق والخصب، لكنها أيضاً تحرّك الحروب وتنشر الدمار.

في أسطورة الخلق، نرى كيف تحوّل **أبزو** إلى ضحية للآلهة الصغار حين أزعجوه بضجيجهم، فقتلوه. أما **تيامات** ، أم المياه المالحة، فقد ثارت غاضبة، وخلقت جيشاً من الكائنات الوحشية لتدمّرهم. عندها ظهر **مردوخ** ـ الذي ورث لاحقاً مكانة عليا في بابل ـ ليقاتلها بريح عاصفة، ويشق جسدها نصفين : نصفه سماء، ونصفه أرض. ومن دمها صُنعت الأنهار، ومن جسدها وُلد الكون الجديد.

الميثولوجيا السومرية لم تكتف بآلهة بعيدة، بل قدّمت أبطالاً يقفون على الحدود بين الإنسان والخلود.
وأشهرهم **جلجامش** ، ملك **أوروك** الأسطوري، الذي حمل نصف طبيعة إلهية ونصف طبيعة بشرية. ملحمته أقدم نص أدبي في التاريخ، وفيها بحث عن سرّ الحياة الأبدية بعد أن واجه موت صديقه الحبيب **إنكيدو**.

جلجامش عبر الغابات والبحار، وقاتل الوحوش، وواجه

الطوفان العظيم حين التقى **بأوتنابشتم** ، الناجي الخالد الذي منحه الآلهة سر النجاة. لكن جلجامش، رغم مغامرته العظيمة، عاد إلى مدينته خالي اليدين من الخلود، ليكتشف أن إرثه الحقيقي ليس في جسده الفاني، بل في ما يبنيه من حضارة، وما يتركه من أثر.

أما **إنكيدو** ، ذلك الكائن الذي صنعته الآلهة من الطين ليكون نداً لجلجامش، فقد تحوّل من وحش بريّ يعيش بين الحيوانات، إلى إنسان كامل بعد أن عرف الحب والخبز والشراب. كان موته الشرارة التي دفعت جلجامش إلى رحلة البحث عن سرّ الحياة، ليصبح بدوره بطلاً في الأسطورة، رمزاً لتحول الإنسان من الطبيعة إلى الحضارة.

الميثولوجيا السومرية زاخرة بكائنات غريبة تحمل رموزاً عميقة. أشهرها **همبابا** ، حارس غابة الأرز، بوجهه المخيف الذي تراه الأساطير أقرب إلى الرعب

الكوني. جلجامش و إنكيدو قاتلاه معاً لينتزعا شهرة ومجداً، وقد جسّد هُمبابا قوة الطبيعة التي لا تُقهر.

وهناك **الثور السماوي** ، الذي أرسلته إنانا عقاباً لجلجامش حين رفض حبها. نزل الثور من السماء ليعيث خراباً، لكن جلجامش وإنكيدو قتلاه، فغضبت الآلهة وأعلنت على إثرها موت إنكيدو.

ومن الكائنات أيضاً **تيامات** في صورتها الوحشية، إذ أنجبت جيشاً من التنانين، والأفاعي ذات الأجنحة، والرجال العقارب، لتقودهم في معركتها ضد الآلهة. كما أن ملحمة الطوفان السومرية حملت كائنات بحرية مرعبة، تمثل الفوضى التي يغمر بها الماء كل شيء، قبل أن يهبط السلام من جديد.

الميثولوجيا السومرية ليست مجرد قصص عتيقة، بل أول مرآة كبرى عكست قلق الإنسان أمام الموت، وأمله في الخلود. من نشأة الكون من المياه الأولى، إلى صراع الآلهة مع تيامات، إلى رحلة جلجامش في بحثه عن سرّ الحياة، نجد خيوطاً متشابكة من الحلم والرهبة، من الطين والسماء.

لقد علّمتنا هذه الأساطير أن الإنسان، منذ فجر الحضارة، لم يرضَ بحدود عمره القصير، فسعى ليكتب نفسه في حجر، وفي أسطورة، وفي مدينة تبقى بعده. وهكذا، ظلّت الميثولوجيا السومرية شاهداً على أن أول الحكايات، مثل أول المدن، وُلدت من الطين، لكنها طمحت دائماً إلى الخلود.

رابعًا ، الميثولوجيا النوردية :

في عتمة الشمال، حيث الرياح تعصف بالسهول والثلوج تغطي الأرض، وُلدت الميثولوجيا النوردية، كأنها صدى صوت الطبيعة نفسها. في البداية، لم يكن سوى الفوضى والفراغ، عالمٌ بلا زمن يُعرف باسم **جينون غاغاب** ، حيث لا نور ولا شكل، بل ضباب هائل يبتلع كل شيء.

من الجليد الشمالي ومن النار الجنوبية ظهرت الحياة : الجليد الميت **نيفل هيم** والنار المقدسة **موثي ليم** ، وعند التقاء الجليد بالنار تدفق الماء الذي خلق **يمير**، العملاق

الأول، ومنه ولدت كل المخلوقات. هذه الميثولوجيا نشأت كرد فعل الإنسان الإسكندنافي على الطبيعة القاسية، محاكية الرياح العاصفة، البحار الهائجة، والليالي الطويلة، حاملة رؤية عن الكون، الموت، والشجاعة في مواجهة المصير المحتوم.

عالم الآلهة النوردية كان غنيّاً وصاخباً، مكتظاً بالصراعات والحكمة. أبرزها **أودين** ، رب الحكمة والحرب والموت، الذي ضحى بعينه ليشرب من ينبوع المعرفة، طالباً الفهم على حساب ذاته. أودين قاد الآلهة، ويقودهم اليوم في صراعاتهم مع العمالقة الذين يمثلون قوى الفوضى.

ثم **ثور**، إله الرعد، صديق البشر، رمز القوة والشجاعة، الذي يحمل **المطرقة ميولنير** ويهزم كل من يقف ضد

النظام الإلهي. هناك أيضاً **فريغ** ، ربة الحب والزواج، و **لوكي** ، الإله المخادع، الذي يثير الفوضى لكنه جزء لا يتجزأ من مسار الأحداث، يرمز للتناقض والدهاء في الطبيعة البشرية والإلهية على حد سواء. و **فريا** إلهة الحب والجمال ..

الآلهة النوردية ليست مجرد صور جامدة، بل شخصيات حية، تمتزج فيها القوة بالضعف، الحكمة بالغرور، والحب بالغضب. كل واحد منهم يساهم في تشكيل شبكة من الحكايات التي تصوغ علاقة الإنسان بالطبيعة وبالقدر.

الميثولوجيا النوردية لا تقتصر على الآلهة وحدها، بل تروي حكايات أبطال يعبرون حدود الإنسان. **سيغورد** ، قاتل **التنين فافنير** ، هو أشهرهم، يرمز إلى الشجاعة

والحيلة، مستخدماً ذكاءه لا القوة وحدها، ليصبح رمز البطولة.

أما **بيلاتش** و **بير** في الأساطير الإسكندنافية، فكانوا يمثلون البشر الذين يقفون في مواجهة العمالقة والمخلوقات الخارقة، مجسدين الصمود في وجه قوى الطبيعة والصراع مع القدر المحتوم. هؤلاء الأبطال يظهرون فكرة محورية في الميثولوجيا النوردية: رغم الشجاعة والذكاء، فإن مصير كل المخلوقات مرتبط **بالراجناروك** ، نهاية العالم، التي ستغرق الآلهة والبشر في معركة كونية عظيمة، قبل أن يولد عالم جديد من الرماد.

الميثولوجيا النوردية تزخر بكائنات مرعبة ومذهلة. من أبرزها **ينغفي** أو الثعبان العملاق **يورمونغاند** ، الذي يحيط العالم بأسره ويهدد سكانه بقدرته الهائلة على الدمار. وهناك **فينرير** ، الذئب الضخم، الذي سيبتلع أودين في نهاية العالم، رمزاً للقوى التي لا يقدر عليها أي إله.

ومن الكائنات الطائرة تأتي **هغريفال** ، الأعجوبة التي تحمي الأسرار، ومن العمالقة **يوتن** الذين يمثلون الفوضى الطبيعية، كقوى الرياح والجليد والجبال التي تواجه البشر والآلهة على حد سواء. كل هذه الكائنات ليست مجرد وحوش، بل رموز لأهوال الطبيعة، للتحديات التي يجب مواجهتها، وللصراع الأبدي بين النظام والفوضى.

الميثولوجيا النوردية ليست مجرد حكايات قديمة، بل مرآة للروح الإسكندنافية، التي واجهت الطبيعة القاسية بالأسطورة والخيال. من صراع أودين مع الحكمة، وثور مع الفوضى، وسيغورد مع التنين، إلى العمالقة والثعابين العملاقة، نجد قصة الإنسان في مواجهة قوى تتجاوز قدراته، قصة الشجاعة، الحيلة، والمصير المحتوم.

هذه الميثولوجيا تعلمنا أن البطولة لا تعني الخلود، وأن

الحكمة لا تخلص من المصير، وأن الطبيعة، بكل جبروتها، جزء من السرد الإنساني الذي يربط الإنسان بالكون. ومن هنا، تبقى أساطير الشمال، مثل الرياح والثلوج، حيةً في الذاكرة، تحكي صراع الإنسان مع نفسه ومع العالم، وتدعوه للتأمل في معنى الشجاعة والحياة والموت.

خامسةً ، الميثولوجيا عند المايا :

على أرض الغابات الكثيفة في أمريكا الوسطى، حيث الأنهار تتعرج بين المعابد الحجرية والأهرمات الشامخة، وُلدت الميثولوجيا عند شعب المايا. لم يكن الكون بالنسبة لهم مجرد فضاء، بل لوحة متحركة من الطاقة والروح ... في البدء، لم يكن هناك سوى الفراغ والظلام، ثم ظهرت الأرض، والسماء، والمياه، ومعها تجسدت أول الأرواح التي أعطت الحياة لكل ما حولها.

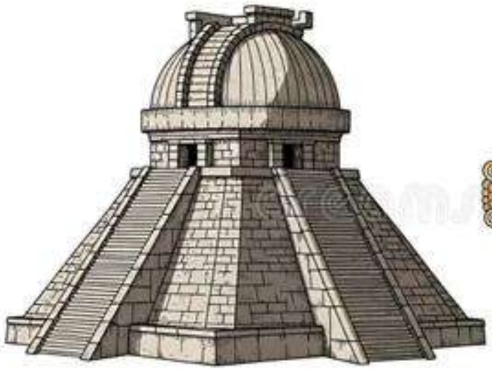

ميثولوجيا المايا نشأت كردّ فعل الإنسان على الطبيعة، على الشمس التي تشرق وتغيب، وعلى المطر الذي

يروي الأرض ويأخذ الحياة. لقد كانت الأساطير طريقة لفهم الفصول، والزراعة، والموت، والبعث، ولترسيخ فكرة أن الكون منظّم برموز وإيقاعات كونية، حيث كل حدث في السماء ينعكس على الأرض.

آلهة المايا كانوا كائنات حية تمثل قوى الطبيعة والمجتمع معاً. من أبرزهم **إيتزامنا** ، إله السماء والحكمة، الذي علم البشر الزراعة والكتابة، وجعلهم قادرين على قراءة النجوم وقياس الوقت. ومنه وُلدت مجموعة من الآلهة الأخرى، مثل **تشاك** ، إله المطر والرعد، الذي يحمل فأساً يجلب المياه إلى الأرض، و **كي** ، إله الخصب والزراعة، الذي يضمن وفرة المحاصيل واستمرار الحياة.

هناك أيضاً **إكس تشاك** ، إلهة القمر والليل، و **هوتزيلوبوش** ، الإله الحامي للعدالة والحرب. كان كل إله يتجسد في رموز، وفي الألوان، وفي أماكن معينة، مثل الغابات، الكهوف، والأنهار. ولم يكن لآلهة المايا صراعات مثل الآلهة اليونانية، بل كانوا متشابكين في دورات طبيعية، صانعين للتوازن بين الحياة والموت،

بين المطر والجفاف، بين النهار والليل.

ميثولوجيا المايا لم تكتف بالآلهة، بل قدمت أبطالاً بشروا البشر بقصصهم وبطولاتهم. من أشهرهم الأخوين **هويتزل** و **بالانك** ، أبطال **ملحمة بوبي فوي** ، الذين خاضوا رحلة عظيمة في العالم السفلي **كسيلبال باه** ، ليواجهوا الأرواح الشريرة ويستعيدوا شرف والديهم.

هذان الأخوان لم يكونا مجرد أطفال، بل رمزان للشجاعة والدهاء، ومثالاً على القدرة على مواجهة الموت والفوضى باستخدام الذكاء والمعرفة. كما أن الرحلات والمحن التي خاضوها تعكس فلسفة المايا بأن الحياة مليئة بالاختبارات، وأن الشجاعة الحقيقية تكمن في الصمود أمام المصير المحتوم.

ميثولوجيا المايا تزخر بكائنات خرافية ومخلوقات غريبة. من أشهرها **الكوكولاتل** ، الثعبان الطائر الذي يمثل الحكمة والخلق، و **زاما** ، الروح الحارسة للغابات، و **شولوبي** ، الأرواح الحارسة للموتى في العالم السفلي

هناك أيضاً مخلوقات هجين، نصفها إنسان ونصفها حيوان، مثل **بيشوك** ، الذي يجمع بين القوى الطبيعية للبشر والحيوانات لضمان التوازن بين العالمين. هذه الكائنات ليست مجرد وحوش، بل رموزاً للقوى الكونية التي يجب على البشر احترامها، فهي تجسيد للطبيعة، للموت، والبعث، ولإيقاعات الحياة التي تنسجها النجوم والمطر والشمس.

ميثولوجيا المايا ليست مجرد حكايات، بل مرآة لفكر

شعب كان يعيش متناغماً مع الكون، يراقب النجوم، ويقيس الوقت بدقة، ويعتبر الطبيعة ككائن حي. من رحلات الأخوين هويتزل وبالانك، إلى صراع الآلهة مع العالم السفلي، ومن كائنات الغابة إلى الثعابين الطائرة، نجد دعوة للتأمل في معنى الحياة والموت ، والشجاعة والدهاء، والاحترام للقوى التي تحكم الكون.

لقد علّمتنا هذه الأساطير أن الإنسان جزء من شبكة كونية واسعة، وأن الحكمة تكمن في معرفة دوره داخلها، وأن الشجاعة ليست في السيطرة على الطبيعة، بل في العيش بانسجام معها. وهكذا تبقى ميثولوجيا المايا ، مثل غابات أمريكا الوسطى، حية وساحرة، تعكس رحلة الإنسان الأزلية في مواجهة المجهول، ورغبته في الفهم والخلود.

هذه باختصار هي أهم ميثولوجيات التاريخ ، أما طقوس العبادة المرافقة لها فقصة أخرى لسنا في صدد الحديث عنها الآن ، و إن كان يجمع بينها طاعة الآلهة و الخشوع و الخوف منها ، و تقديم القرابين كي ترضى على البشر ..

****

في ختام مقاربتنا لمغالطتنا الجديدة (**ميثولوجيا**) ، من الأنسب ألا نقول بعد الآن :

= سأكتفي بديني و لا يهمني بقية الأديان على سطح الكوكب ..

بل أن نقول :

= السماء وزعت حكمتها على شعوب الكوكب على امتداد الزمان و لكل دين سماوي أو أرضي أو ميثولوجي نصيب في ذلك ، اختصّ بسرّ من أسرار الكون و الحياة ربما لا يمتلكها غيره ، و عندما نلم بأساسيات الأديان الشهيرة نجمع الحكمة من كل الزوايا كي يتبلور جوهر الوجود في أذهاننا ..

الميثولوجيا صمدت عبر آلاف السنين لأنها ليست مجرد خرافة، بل مرآة الروح الإنسانية التي تبحث عن المعنى قبل الحقيقة.

حتى مع تقدم العلم وإثبات الطبيعة المادية للعالم و نفي صحة الميثولوجيات، بقيت الأسطورة حاضرة في القلب، لأنها تروي ما لا يستطيع العقل وحده تفسيره.

هي الحكاية التي تتجاوز الواقع، فتجعل الإنسان يواجه مخاوفه، ويرى في الظلام ضوءاً من الحكمة.

تبقى صامدة لأنها لغة الرموز والخيال، لغة تلتقط ما

بين النجوم والظلال، بين الحياة والموت.

تمنحنا الشجاعة لنحلم، والقدرة على قراءة قوى النفس والطبيعة في آن واحد.

كل أسطورة تحمل في طياتها درساً، صرخة شعور، وتذكيراً بأن الإنسان أكثر من جسد وعقل؛ هو روح تبحث عن علاقتها بالكون.

لذلك، تظل الميثولوجيا حية، متجددة في كل جيل، رغم أن العلم يشرح الظواهر، فهي تفسر المعنى.

إنها شهادة على خلود الخيال، وضرورة الحكاية في صياغة فهمنا لذواتنا وللعالم اللامحدود حولنا.

لوّ أنّي

(نداءة الكعبيّ)

جلس إلياس رافنر في ردهة الفندق العتيق في قلب **كراكوف،** غارقًا في أفكاره، والرسومات المعمارية منتشرة أمامه على الطاولة كأشلاء ذاكرة منسية .. كان كل شيء منذ دخوله تلك الغرفة الحجرية في سانت غيوم، ينهار بصمت داخله .. جهاز تفريغ الندم، الرموز، الصوت... و بيوتر.

كان من المفترض أن يلتقيه مجددًا اليوم، بعد لقائهم الأخير في الحانة كي يشرح له آخر النقاط عن الأخوية الغامضة .. لكن الساعات مضت و بيوتر لم يأتِ.

بدلًا منه، دخل رجل طويل القامة، أصلع الرأس، يرتدي نظارة دائرية وبدلة رمادية.. جلس قبالته دون أن يُدعى.

ثم قال بهدوء

= سيد رافنر ..

حدّق إليه إلياس باستغراب :

= أجل .. و من أنت ؟

= اسمي غير مهم، لكن يمكنك أن تناديني **باليد الثالثة** .. أنا و فالسكي نتبع جهة واحدة ، و أنا هنا الآن بسببك ، فأنت تجاوزت عتبة لا يجوز العودة منها ..

أخرج من معطفه ظرفًا صغيرًا، وضعه أمام إلياس.

= هذا ما تركه بيوتر لك قبل أن يُختطف.

صعق إلياس.

= اختُطف ؟ من قبل من ؟

= الذين يكرهون الأسئلة .. والذين يريدون من الماضي أن يُعاد بناؤه ..

= الأخوية !!

= بالضبط ..

فتح الظرف .. في الداخل وجد ذاكرة تخزين حاسوبية مع قصاصة ورقية كتب عليها بخط بيوتر المرتبك :

(افتح ذاكرتي و اعلم ما أنت مقبل عليه)

كان وجه الرجل الذي أمامه ساكنًا كتمثال.

سأل إلياس بحيرة الكترون لم يعد يعرف إن كان موجة أم جسيم :

= و ما الذي تريده مني الآن ؟

= أن تنقذ نفسك مما تورطت فيه ..

= و كيف ؟

= لا أملك الإجابات بل فقط النصيحة ..

ثم وقف فجأة، وألقى جملة أخيرة وهو يسير مبتعدًا :

= بالمناسبة نور أيضًا وصلت إلى العتبة و تجاوزتها كحالك بالضبط ، ربما تعاونتما معاً للخروج من المتاهة

تجمّد إلياس في مكانه.

من هي نور؟!

وقبل أن يلحق به أو يسأله، اختفى الرجل كما ظهر، دون أثر.

أدار إلياس نظره نحو نافذة الفندق .. ضوء شاحب يتسلل من السماء الغائمة .. وشعور داخلي يتعاظم بأن الأحداث بدأت تتسارع بطريقة لا يمكن كبحها.

*****

جلس الياس أمام حاسوبه في غرفة الفندق و أدخل بطاقة الذاكرة إليه ثم فتحها ، تحولت الشاشة فجأة إلى اللون الأسود ثم بدأ ما يشبه الفلم الوثائقي بالعرض ..

مشروع– FAI-9

Der Spiralkorridor

هامبورغ – 1944

أو ما يسمى الممر الحلزوني في مدينة **هامبورغ**

الألمانية ، منشأة تحت الأرض بُنيت عام **1937** من قِبل وحدة نازية سرّية في الـ **SS** تُدعى :

Abteilung für Emotionale Manipulation

أو :

(وحدة التلاعب العاطفي)

الهدف : استخدام مبادئ **النسبة الذهبية (φ) ومتوالية فيبوناتشي** لإنشاء ممر يُحدث استجابة عاطفية متحكّم بها.

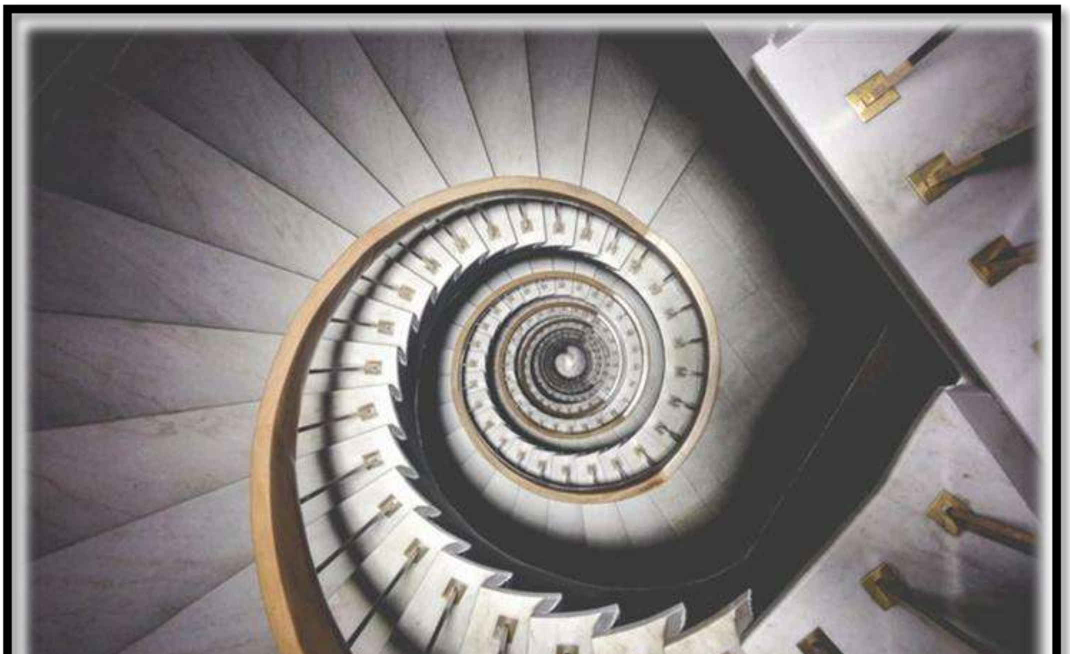

تم اختبار التأثير على أسرى يهود ونزلاء سياسيين ..

ظهرت صور .. خرائط قديمة .. تصميم حلزوني متناسق، مكوّن من درجات إسمنتية تلتف داخل جوف الأرض كأمعاء ميّتة .. عند كل زاوية، كانت هناك

علامات محفورة : عيون مغلقة، قلوب مكسورة، وشفرات حادة مرصوصة بطريقة لا تُفهم.

النظرية كانت : (إذا تحرك الإنسان داخل بناء يتّبع النسبة الذهبية، تتناغم خطواته مع تدفق طاقته النفسية، ويتمّ سحب المشاعر من لا وعيه بشكل تصاعدي.)

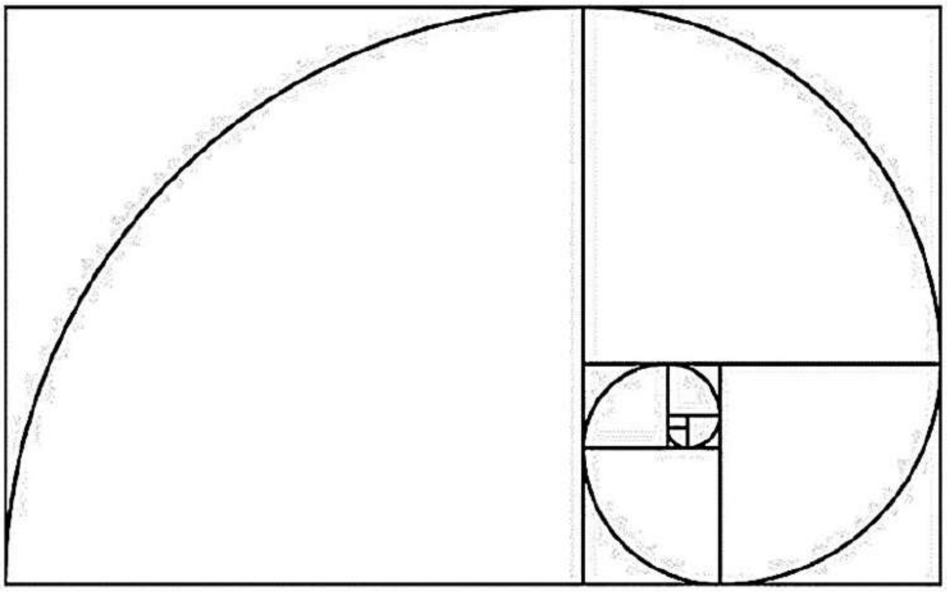

تم تحويل الممر إلى جهاز تلاعب عاطفي، كل خطوة فيه تمثّل تصعيدًا في منحنى **الندم أو الذنب** ..

رفع الياس حاجبيه بدهشة .. في حين تابع الصوت الرخيم الراوي لقصة الفلم الوثائقي ..

و النتيجة كانت كارثة ، جميع من خضع للتجربة انهار نفسيًا خلال الدقائق الأولى .. بعضهم بدأ يضحك بهيستيريا..

آخرون سقطوا ميتين في المنتصف.

وثائق الجيش الأحمر بعد سقوط برلين وصفت الممر:

Die Spirale der Reue

حلزون الندم

ظهرت أمامه صورة حديثة بالأقمار الصناعية : مبنى مهجور في هامبورغ ، جزء من محطة قطار قديمة .. المدخل لا يزال موجودًا، تحت بوابة حديدية صدئة، عليها حروف تكاد تُمحى **" FAI-9 "**

و قبل أن ينتهي الفيديو علا صوت فالسكي و هو يقول بصوت مرتجف :

(هندسة الندم ليست أملاً قادماً سيد الياس .. إنها مصيدة للبشرية ... و الطعم هو أنت)

****

قصة (ندامة الكُسَعِيّ) هي إحدى الحكايات الشهيرة في التراث العربي، وتُستخدم تعبيرًا للدلالة على أشد أنواع الندم .. و تتحدث عن شخص يدعى **محارب بن قيس الكُسَعِيّ**، وهو من **قبيلة كُسَع** اليمنية، الذي كان يهوى صيد الظباء ، فقرر أن يصنع قوسًا قويًا ومميزًا، فزرع فسيلة في شق صخري، وسقاها حتى نمت وأصبحت صالحة لصنع القوس. بعد أن صنع القوس وأعد خمسة أسهم، ذهب للصيد. أطلق سهامه على الظباء، فكانت تصطدم بالصخور دون أن تصيب أي ظبي.

غضب الكُسَعِيّ وكسر قوسه. لكن عندما خرج من مكمنه، اكتشف أن الظباء كانت مصابة، وأن أسهمه اخترقتها قبل أن تصطدم بالصخور. فندم على كسره القوس المتين الذي تعذب في صناعته ، و أنشد :

ندمت ندامة لو أن نفسي

تطاوعني إذا لقطعت خمسي

تبين لي سفاه الرأي مني

لعمر أبيك حين كسرت قوسي

و منذ ذلك الحين أصبحت ندامة الكسعي مضرب مثل في شدة الندم لدرجة الألم ..

لكن ..

هل الندم في الحياة شيء سيء بشكل مطلق كما يصفه البشر عبر صفحات التاريخ لدرجة يأكل فيها الألم قلب الندمان حتى يكتئب و ينهار ؟ أم أن للندم وجهاً آخر إيجابياً نجهله يجعل من الفكرة الشائعة عن الندم محض مغالطة لا أكثر ؟ و إن كان الندم مؤلماً لهذه الدرجة فهل من ترياق له يخفف من وطأته ؟

هذا ما سنحول الإجابة عليه بشكل كافٍ و وافٍ كما آمل كي لا أقع في مصيدة الندم على التقصير فأدخل دائرة مفرغة من : يا ليتني قلت كذا بدلاً من كذا .. أو أضفت كذا أو حذفت كذا ..

فهيا بنا عزيزي القارئ في هذه المغامرة الفلسفية ، نضع الندم على منصة التشريح و نشرحه بمشرط التحري و التنقيب ، بأن نتناوله من الزوايا التالية :

① فلسفة الندم ..
② الندم في التراث ..
③ ترياق الندم ..

فلا تفوت قراءة الصفحات التالية لأنك ستندم على ذلك صدقني ..

أولاً ، فلسفة الندم :

يبدو الندم، في لحظاته الأولى، كهمسة هادئة تمرّ على أذن الروح، فتقشعر فرادى الذكريات، وتنهض الأشباح من أعماق الذاكرة، تحمل معها وجع الاختيارات الماضية. إنه شعور غريب، يتربع بين الوعي واللاوعي، يجمع بين ألم الفقد وجمال الإدراك، بين ما كان ينبغي أن يكون وما أصبح واقعًا لا محيد عنه. في هذا السياق، يصبح الندم ليس مجرد شعور، بل فلسفة كاملة عن الوجود، عن الذات، وعن الأفق الذي نخطه بأيدينا المتعبة.

الندم يزرع فينا سؤالًا أساسيًا : **هل نحن من يصنع مصائرنا، أم أن الحياة تصوغنا كما تشاء؟** وعندما نعود بذاكرتنا إلى لحظةٍ اتخذنا فيها قرارًا خاطئًا، نشعر بأن الزمن قد غدر بنا، وأننا كنا أضعف من أن نرى ما وراء الحجب. لكن إذا تأملنا الندم بعمق، ندرك أنه ليس مجرد شبح يلاحقنا، بل معلم صارم يعلمنا عن حدودنا، عن هشاشتنا، وعن قوة إدراكنا لاحقًا لما كان خطأ. **كل دمعة ندم هي بذرة معرفة تنمو في صمت، كل صرخة ألم هي تذكير بأننا بشر نخطئ ونتعلم.**

الفلاسفة، منذ **أرسطو** وحتى **سارتر**، لم يغفلوا عن هذه الظاهرة. فالألم الذي يتركه الندم في القلب ليس فقط نتيجة خطأ، بل انعكاس للوعي الذاتي، وارتداد لحقيقة أننا كائنات تبحث عن معنى وتطمح للكمال في عالم يرفض الكمال. إنه اختبار للروح، فرصة للنظر في المرآة الداخلية، لا لنجد عذرًا أو هروبًا، بل لنفهم أننا في الأخطاء نكتشف أنفسنا، وفي الندم نجد الدروس التي تصقل أرواحنا.

الندم أيضًا يحمل تناقضًا ساحرًا : إنه ألمٌ وهدية في آنٍ واحد. ألم لأنه يذكّرنا بما فات، وهدية لأنه يفتح أبوابًا لم نكن لنراها لولا تجربة الخطأ. كيف لا يكون كذلك؟ **فقد تُصبح الأخطاء الماضية مراجعنا المستقبلية** ، و
القرارات الضائعة ملامح الحكمة التي لا تأتي إلا بعد

التجربة. هكذا، يتحول الندم من شعور سلبي إلى فلسفة للحياة، حيث يصبح الألم أداة للوعي، والوعي طريقًا للتحرر، والتحرر بداية لحياة أكثر صدقًا مع الذات.

ومع كل هذا، يبقى السؤال الأكبر : هل يمكن للندم أن يتحرر من أسره الزمني؟ هل يمكن أن نعيش الحياة بلا شبح اختياراتنا الماضية ؟ الجواب، في صمت القلب، هو أن الندم لن يزول أبدًا، لأنه جزء من رحلتنا الإنسانية. لكنه يتحول من قيود تعذبنا إلى أجنحة تحلق بنا، إذا عرفنا كيف نقرأه، كيف نفهمه، وكيف نستخدمه. إنه دعوة لتقبل عدم الكمال، لتقدير اللحظة، ولتقدير أنفسنا ونحن نسير، نتعثر، وننهض مرة أخرى.

في النهاية، الندم ليس عدواً، بل مرآة تعكس أعماق الروح، صورة لما كنا عليه وما يمكن أن نصبح. فلسفته هي فلسفة الوعي، والفهم، والتسامح مع الذات، والفن الحقيقي للحياة. فهو يعلّمنا أن الألم ليس دائمًا خسارة،

وأن كل دمعة تحمل معنى، وكل لحظة تأمل تمنحنا بصيرة، وكل تجربة خاطئة تحمل في طياتها بذور الحكمة التي تجعل من الإنسان كائنًا أعمق، وأكثر إدراكًا لجمال الحياة وتعقيداتها.

ثانيًا ، الندم في التراث :

الندم إحساس يتسلل إلى القلب بهدوء، ويترك أثره كما يترك المطر أثره على التراب العطشان، ليس مجرد شعور عابر، بل فلسفة متجددة تتأمل في اختيارات الإنسان، وأثرها على مساره في الحياة. عبر العصور، شكّل الندم محورًا في الشعر العربي والفلسفة العالمية، فقد أدرك الإنسان منذ القدم أنه في الأخطاء تكمن أعظم الدروس، وفي الوعي بالخطأ ينبع جمال الحكمة.

في التراث العربي، نجد للندم حضورًا قويًا في الشعر والأدب. في الشعر الجاهلي مثلاً ، كان الحنين إلى ما فات مصحوبًا بالندم ركيزةً للتأمل الذاتي، كما في قول عنترة العبسيّ :

وما حبُّ الدّنيا في قلبِي أَبَدًا

لكن الندمَ على فرَطها قد أجهدني

الندم هنا يربط بين الشجاعة والحكمة، بين القوة والوعي بالحدود، ويظهر أن تجربة الألم جزء من رحلة

النمو الإنساني.

أما في التراث الفلسفي العالمي، فقد اعتبره سقراط وسارتر وجوديًا بامتياز. يقول **سقراط** :

(الإنسان الذي يعيش بلا تدبر في أفعاله لا يختلف كثيراً عن الذي يمشي في الظلام)

فالندم هو انعكاس للتدبر، ووسيلة لفهم الذات والوجود. **سارتر** من جانبه ربط الندم بحرية الإنسان وعبء اختياره : فالندم دليل على مسؤولية الفرد، على أنه حر في اختياراته، وأن كل خطأ يترك أثره ليس فقط على حياته، بل على وعيه الأخلاقي والفكري.

الأدب العالمي أيضًا لم يغفل هذا الشعور. فقد كتب **شكسبير** في مسرحياته عن الإنسان الذي يواجه اختياراته ويعيش مع ندمه، مؤكدًا أن التجربة الإنسانية متشابكة بين الألم والجمال :

(لن تعرف قلبك الحقيقي إلا عندما يزورك الندم)

أي أن الوعي بالماضي هو ما يعطي للحياة أبعادها الحقيقية. وبالمثل، كتب **غوته** عن الألم الناتج عن الندم وكيف أنه في التجربة الفاشلة تكمن بذور الفهم والنمو :

(الندم ليس نهاية الطريق، بل بداية الوعي)

في التراث العربي، نجد أيضًا الفلاسفة الذين تناولوا الندم باعتباره تجربة أخلاقية وروحية، مثل ابن خلدون الذي رأى أن الإنسان يتعلم من أخطائه، وأن المجتمع بأسره يتقدم حين يتعلم الأفراد من ندمهم، حيث قال في مقدمته الشهيرة :

(ما الإنسان إلا منفعلة بالأيام وأحوالها، فإذا عالج خطأه بالعلم والوعي، صار للندم قيمة)

فالمفهوم هنا ليس شعورًا سلبيًا فقط، بل أداة معرفية ومعنوية.

الندم في التراث العربي كان حاضرًا أيضًا في القصص والحكايات، **كحكايات ألف ليلة وليلة**، حيث يتعلم الأبطال من قراراتهم الخاطئة، ويعودون إلى الحكمة بعد ألم التجربة. في هذه القصص، الندم ليس مجرد شعور فردي، بل درس اجتماعي وإنساني، يُظهر أن التجربة المرة تحمل في طياتها نور الفهم.

ومن الناحية النفسية والفلسفية، يظهر الندم كمرآة للروح. إنه يفرض على الإنسان مواجهة ذاته، قبول ضعفها، واحتضان حاجتها للتعلم. وكل دمعة ندم، سواء في الشعر أو الفلسفة، هي دعوة لإعادة النظر، وإعادة الصياغة، وتجربة الحياة بروح أكثر نضجًا. هنا تتقاطع الفلسفة الشرقية والغربية، حيث نجد أن البوذية و

الهندوسية أيضًا تنظر إلى الندم كجزء من دورة التعلم الروحي، وأن تحرير النفس من الألم لا يكون بالنكران، بل بالوعي والإدراك العميق.

في النهاية، يصبح الندم فلسفة شاملة للحياة، جسرًا بين الشعر والفلسفة، بين التراث العربي والعالمي. إنه ليس عبئًا، بل مدرسة، ليس خزيًا، بل وعيًا، وليس فقدًا، بل اكتسابًا لطريقة أعمق في النظر إلى الذات والعالم. الندم يعلمنا أن الألم والوعي، الخطأ والصواب، الماضي والحاضر، كلها عناصر تكتمل لتصنع الإنسان الذي يقدر الحياة بكل ما فيها من جمال وتعقيد. وفي هذا المعنى، يصبح الندم مرآةً للروح، ومفتاحًا لفهم الإنسان، وفلسفةً للحياة بأسرها.

ثالثًا ، ترياق الندم :

الندم ليس لحظة شعورمجرّد، بل معمارٌ باطنيّ مشيّد بحجارة الإدراك المتأخّر، وأعمدة التحليل الزائد، وسقفٍ من (**لو أنّي**) .. هو فن معماري معقّد يُعاد فيه ترتيب الماضي وفق مقاييس الحاضر، ليُصبح المرء سجينًا في قصرٍ شيده بيديه من الافتراضات والسيناريوهات البديلة.. في هذا الحيّز المضني، تتدخل هندسة الندم كعلمٍ داخلي غير مرئي، يربط بين العصبونات والذكريات، ويُدير كيمياء الذنب والحسرة بإتقان قاتل.

لكن **الحب**، بتكوينه الفطري والمجهول، يدخل هذا البناء كزلزال هادئ، لا يطرق الباب، بل يهدمه كترياق حقيقي ناجع للندم ..

لكن كيف يمكن للحب، وهو أكثر الظواهر تفرّدًا وعصيانًا على التفسير، أن يقهر منظومة هندسية تُعَدّ من أكثر البُنى النفسية تعقيدًا ؟

في الحقيقة هذا يعود لمخمس من الأسباب العلمية العميقة ..

أولاً ، الحب يقطع الدائرة العصبية للندم .. فمن منظور علم الأعصاب، يُنشّط الندم مناطق في الدماغ مثل **القشرة الجبهية المدارية** و **النسيج الحُصيني**، وهي

المسؤولة عن استرجاع التجربة وتقييم البدائل.. حين نحب، يُفعَّل **النظام الحوفي** (Limbic System) بقوة، وتُفرز كميات كبيرة من **الأوكسيتوسين و الدوبامين،** وهي ناقلات عصبية تُبطِل بشكل مباشر تأثير دوائر الندم المزمنة.. الحب هنا ليس مجرد عاطفة، بل تدخل بيولوجي طارئ، يُعطّل أنظمة الندم كما يُعطّل فيروسٌ شفرة برنامج مشفر.

ثانياً ، من منطق التبرير الوجودي: الحب يعيد ترميز الماضي .. هندسة الندم تقوم على مقارنة بين (ما حدث) و (ما كان يجب أن يحدث) .. أما الحب، فيُدخل بُعدًا جديدًا لهذه المقارنة : (لو لم يحدث ما حدث، لما التقيت بك أو لما عثرت على ضالتي من الحكمة). هذا التحوّل في المنطق الداخلي يُعيد ترميز التجارب الماضية لا كأخطاء، بل كممرات ضرورية نحو اللقاء المصيري. هو إعادة كتابة للماضي بلغة **القَدر الجميل** ، لا بلغة **الخطأ القاتل** .. في هذا السياق، الحب لا يمحو الندم فحسب، بل يُعيد هندسته ليُصبح سببًا للامتنان.

ثالثاً ، الحب يمحو الحلقة الذاتية المفرغة .. فالندم يخلق حلقة مغلقة من التفكير المتكرر، تُعرف علميًا **بالاجترار الذهني** (Rumination) ، وهي آلية نفسية تنهك الدماغ وتُغذّي الاكتئاب. حين يدخل الحب، يُعيد

توجيه التركيز من الداخل (الذات المنهارة) إلى الخارج (الآخر الذي نحبّه). فينقطع التيار عن دائرة الاجترار، وتتحوّل الطاقة الذهنية من التحليل إلى العطاء، ومن اللوم إلى الحنان. إنه انزياح كامل في محور الإدراك، يُقوّض البنية التكرارية للندم ويستبدلها بجدولٍ جديد من الأولويات العاطفية.

رابعاً ، الحب فعل خلّاق .. فبينما تسعى هندسة الندم لتفسير (ما فات) ، الحب يسعى لخلق (ما سيكون). في كل قبلة، في كل لمسة، نحن نبني مستقبلًا لا يمكن للندم أن يُحاكمه بعد، لأنه لم يُصنع بعد. الحب يُخرج الإنسان من متحف الذكريات إلى ورشة البناء، من المقبرة النفسية إلى حقل الاحتمالات الحية. و هنا، تكمن المعجزة : أن الحب يُغيّر جهة البوصلة الوجودية، من اجترار الزمن الميت، إلى اختراع الزمن الحيّ.

خامساً ، الحب والعفو العصبي أو المصالحة مع الذات

فأعمق انتصارات الحب أنه لا يُصالحك مع الآخر فحسب، بل يُصالحك مع نسختك القديمة، تلك التي أخطأت .. الحب لا يقول لك :

(أنت لم تخطئ)

بل يقول :

(حتى بخطئك، أنت جدير بأن تُحَب) ..

وهذه، بحسب علم النفس الإنساني، أقوى آلية شفاء تُمكن للعقل أن يختبرها .. في وجه الندم الذي يُفرّغ القيمة من الذات، يأتي الحب ليملأها من جديد، لا على أساس الإنجاز، بل على أساس القبول غير المشروط.

الحب علم غير مكتوب .. و رغم أنه عصيّ على التحليل الكامل، إلا أنه يُمارس تأثيره بدقة تفوق أيّ معادلة.. هو العلم الذي لا يُدرّس، ولكنه يُغيّر كيمياء الروح.

في عالمٍ تُبنى فيه مشاعرنا كمعمار من الندم والخوف والتردد ..... يأتي الحب ليقول:

(دعنا نهدم قصر الماضي ... و نبني كوخاً نعيش فيه معاً المستقبل)

وهكذا، يقهر الحب هندسة الندم، لا لأنه أقوى، بل لأنه أصدق.

****

في ختام مقاربتنا لمغالطتنا الجديدة (**لو أنّي**) ، من الأنسب ألا نقول بعد الآن :

= الندم يأكلني حياً .. يا ليتني فعلت كذا بدلاً من كذا .. أو قلت كذا و لم أقل كذا ..

بل أن نقول :

= إن كلمة لو تفتح عمل الشيطان .. و كلمة يا ليت لا تعيد عقارب الساعة إلى الوراء .. ما يهم الآن أنني تعلمت من خطئي ، نضجت أكثر .. بل إنني لو لم أسلك ذاك الدرب الذي أكرهه لما عثرت على الحكمة و ربما الحبّ في النهاية .. و بدلاً من تشييد قصور الندم في الماضي ، الأحرى بي صنع و لو كوخ متواضع للأمل في المستقبل فهو على ضيقه أرحب و على بساطته أدفأ و أكثر عاطفة و فائدة ..

الندم بالمحصلة عملة بوجهين : جانب مظلم يثقل القلب ويجعل الإنسان أسيرًا لأخطائه، وجانب مشرق يفتح أفق الوعي ويهدي إلى فهم أعظم للذات والعالم ممهداً الطريق نحو النضج النفسي ، الحكمة و التصالح مع الذات ..**إنه إبرة اللقاح التي تؤلم وخزتها قليلاً لكنها تمنحنا مناعة دائمة مدى الحياة** .. ربما لا يمكن للإنسان أن يهرب من هذا الشعور الإنساني السلبي، لكنه يستطيع أن يحوّله من قيود إلى أجنحة تطير به نحو إدراك أعمق. فالندم يذكرنا بأن كل تجربة، مهما كانت قاسية، تحمل في طياتها بذور النمو و التحول إلى نسخة أفضل منّا ..

لن أسجد لآدم

(نرسيس)

الكون الأكبر (**جنان الله**)

بعيد الخلق الأول ..

كن يا كون فكان ..

في البدء، لم يكن هناك سوى الصمت... صمتٌ مطلق، نقيّ، لا يعكّره صوت ولا ظل. ثم تنفّست الإرادة الإلهية، وقالت للعدم : "كن."

فانفلقت السكينة الكبرى عن نور، لا يشبه شيئًا، بل هو كل شيء. انفجر الوجود كالقصيدة الأولى، وتفتّحت السماوات كسُحب من نورٍ سائل، تهمس لذاتها : نحن خلقنا بنظرة.

جُعلت الأرض مهادًا، والجبال أوتادًا، والبحار بحورًا من الأسرار. نُثرت النجوم كأنها حروف على صفحة سوداء، تُنذر وتُبشّر وتُجَمِّل وجه السماء.

ثم، في لحظة اختارها الله، صنع الإنسان...

نفخ في طينٍ صبورٍ من روحه، فانتفض التراب حيًّا. لم يكن خلق **آدم** مجرد بعثٍ لجسد، بل إعلانٌ لمقام. رفعه الله وعلّمه الأسماء، لا كمعجمٍ من الكلمات، بل كمفاتيح لفهم الوجود. صار آدم حاملًا سرّ اللغة، وفهم التكوين، وشاهدًا على أن الخلق ليس مادة فحسب، بل وعي،

وحرية، وذوق.

وعجبت الملائكة... كيف لهذا الكائن الهشّ أن يُمنَح سرّ التسمية؟ أن يُؤتَمن على الكلمة، وهي أول الخلق و آخره ؟

لكن الله يعلم... وهم لا يعلمون.

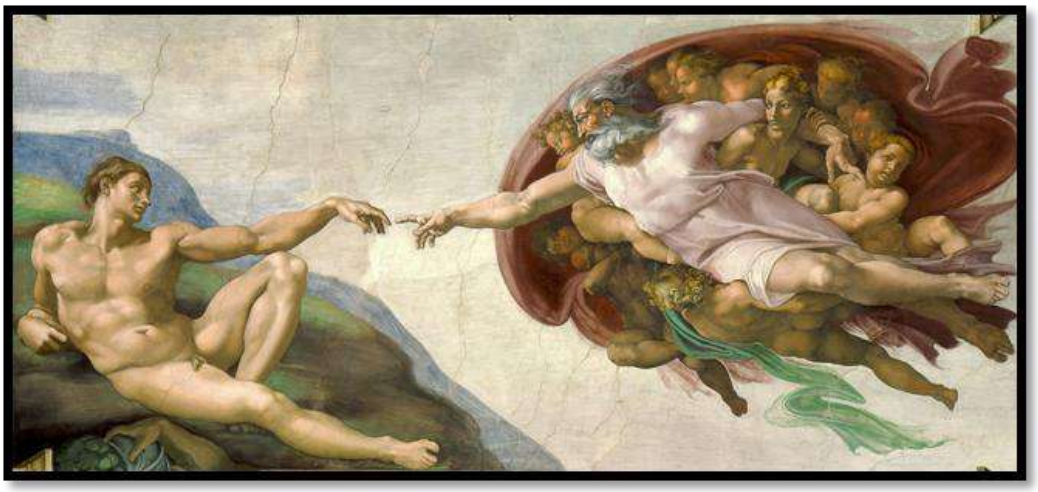

عندما نطق الغرور لأول مرة ..

وحين اكتمل التكوين، أمر الله جنده من النور أن يسجدوا لآدم. لم يكن سجود عبادة، بل سجود إقرار، اعتراف بأن الله نفخ في هذا الكائن من سره، فاستحق مقام التكريم.

فخرّت الملائكة ساجدةً، لم تتردّد، لم تجادل، لأنها لم تعرف الغلّ ولا الكبر.

إلّا واحدًا... لم يكن من جنسهم، بل كان من نار.

إبليس، المارد المكنون في طهرهم، وقف كالعتمة في

وسط الضوء، نافرًا، مشتعلاً بغرورٍ قديم. نظر إلى الطين باحتقار، إلى آدم بعيون ملأى بالاشمئزاز. قال في سرّه :

= أنا خيرٌ منه... خُلقت من نار، وخُلق من طين.

لم يكتفِ بالرفض، بل زأر به. كبرياؤه كان صوته،

واحتقاره كان منطقه. رأى في أمر الله امتحانًا لكبريائه لا طاعةً للخالق.

فتورّط في أول عصيان، أول تحدٍّ، أول سقوط.

وهنا، تزلزلت السموات، وارتجفت الأرض... فالغطرسة، حين تُقال في حضرة الرب، تكون خيانةً كونية.

السقوط من النور ..

لم يحتج الله إلى صراخٍ أو سيف. كانت كلماته كافية. قال له :

= فاخرج منها فإنك رجيم.

فانخلع إبليس من رحمته كما يُخلَع النور عن العتمة.

سقط من مرتبةٍ لم يكن ليحلم بها، إلى قاعٍ لم يكن يتخيّله. لم يُطرد من الجنة فقط، بل طُرد من القرب و من الرحمة.

لم يعد له نصيب في النور، ولا في الأنس، ولا في التجلّي.

كان الخروج أبدياً. لم يكن مؤقتًا، ولم تُفتَح له بوابة توبة. لأن عصيانه لم يكن خطأً، بل اختيارًا. لم يكن ناتجًا عن ضعف، بل عن كِبر.

وهكذا، سار إبليس خارجًا من الملكوت، يتآكله ندمٌ لا يشبه التوبة، وغضب لا يعرف الهدوء، ونارٌ لم تعد عبادة، بل صارت حقدًا.

خرج مطرودًا، ملعونًا، ولم يعد يُدعى من جند السماء... بل صار أمير الغواية.

القسم الأسود ..

وقف إبليس عند مشارف الخلق، ينظر إلى آدم كعدوٍّ أزليّ. لم يعد يراه ككائن، بل كسببٍ لسقوطه. نادى في

عتمته، وصرخ أمام العرش بصوتٍ من دخان :

= لأغوينّهم أجمعين... لأزيننّ لهم الأرض، لأجعلنّهم ينسونك، ويتّبعونني، ويعبدون شهواتهم، ويكفرون بأسمائك... وسأحملهم معي، قطرة قطرة، نحو الهاوية .. نحو ظلام أسود لا قاع له ..

أسّس مملكته بين الوسوسة والإغراء. فتح باب الشهوة، ونفخ في نار الحسد، وجعل الكبرياء تاجًا لكل من كفر. لم يعد يختبئ، بل بنى عرشه على الوهم، وملأ قارات الأرض بوعوده الكاذبة.

قال للبشر : أنتم آلهة أنفسكم، لا ربّ فوقكم.

وقال لهم : الحرية أن تفعل ما تشاء، لا ما يُطلب منك.

وقال لهم : الشرّ ليس شرًّا، بل خيار... والحق ليس مطلقًا، بل رأي.

هكذا انطلقت فوضى المعنى، وصار إبليس معلّمًا للضلال، وناسكًا في معبد الهوى.

لكنه نسي... أن الله لا يُغافَل، وأن النور لا يموت، وإن طال عليه ليل.

قبلت التحدّي ..

ثم جاءه صوتٌ لا يشبه أصوات الخلق، بل يشبه الوجود حين يتكلّم. كان صوت الله، ساكنًا كقدرٍ لا يُردّ، وعاليًا كأمرٍ لا يُناقش. قال له :

= اذهب... فمن تبعك فإن مصيره جهنم، جزاءً وفاقًا. أما عبادي الصالحون، فلن يكون لك عليهم سلطان.

كان هذا هو العهد. أن الأرض ستبقى ساحة اختبار، لكن النتيجة ليست بيد إبليس. فالخيار للإنسان، والمصير معقود بإرادته. الله لا يمنع البلاء، لكنه يمنح المنجى.

قال له الرب :

= إني أعلم ما لا تعلم. وسأبعث فيهم رسلًا، وأنزل كتبًا، وأضع نورًا في القلوب، وأرسل في كل زمنٍ من يُحيي الرسالة. لن تكون وحدك، ولن يكونوا وحدهم. وسأبقى، رغم غوايتك، أقرب إليهم من حبل الوريد.

وابتسمت السماء، لا استهزاءً، بل يقينًا... أن إبليس

مهما علا، فلن يملك سوى الوهم.

وأن في كل جيل من يرفض تكبره في السجود لآدم ، ويعود... إلى السجود الحق.

وهكذا، بدأت الحكاية...

حكاية الإنسان بين غوايةٍ تهمس، ورحمةٍ تنتظر.

وما بين الاثنين، يمشي القلب... إلى حيث يختار.

****

الغرورُ هو البذرةُ السوداء التي زرعها إبليسُ في قلب الرفض، يومَ أبى السجود لآدم تكبّراً لا حكمةً.

ومنذ تلك اللحظة صار الغرورُ ميراثَ الشيطان، يتسلّل في الأرواح ليغشي بصيرتها.

فالغرور ليس ثقةً بالنفس، بل وهمٌ يتزيّن بلباسها ليخدع العقول.

الثقةُ نورٌ داخليّ، أما الغرور فظلامٌ يتعالى على الآخرين بلا سندٍ ولا حق.

من توهّم أنّ كماله ذاتيّ، فقد غفل عن أن الخلقَ جميعاً من طينٍ واحدٍ ونَفْسٍ واحدة.

إنّ السموّ الحقيقي **أن ترى نفسك جزءاً من الكلّ، لا سيّداً عليه.**

فمن تواضع ارتقى، ومن استعلى سقط في هاويةٍ لا قاع لها.

و رغم ذلك نجد الغرور .. هذه الآفة الذميمة تنتشر في المجتمعات البشرية أكثر فأكثر ، و ما وسائل التواصل الاجتماعي التي تنضح منشوراتٍ تمجّد الذات و تستجدي الإعجابات سوى خير شاهد على ذلك ..

فلماذا ؟

هل للغرور وجه إيجابي نجهله لذا يغوي الآخرين كي يتركوا ملاك التواضع و يتمسكوا به .. أم أن انتشاره المحموم ببساطة ليس إلا مغالطة جديدة تغوينا بمقاربتها ؟!

هذا ما سنحاول معرفته سوياً خلال الصفحات التالية عبر تحليل مفهوم **الغرور** من الزوايا الثلاثة التالية :

① الغرور آفة الخطايا ..

② عاقبة الغرور الوخيمة ..

③ صراع الملاك و الشيطان ..

فهيا بنا عزيزي القارئ نقارب بتواضع هذا المفهوم الدميم .. علنا نعيد توجيه كثيرين من السجود لإبليس إله غرورهم إلى السجود لآدم كسجود لحكمة الله الذي أوجده و منحه الحكمة و المعرفة و التواضع ..

أولاً ، الغرور آفة الخطايا :

الغرور ليس مجرّد شعور عابر يمرّ على النفس، بل هو طوفان داخلي يبدأ قطرةً من الإعجاب بالذات، ثم لا يلبث أن يتحوّل إلى سيلٍ يجرف صاحبه بعيداً عن شواطئ الحكمة والنجاة. إنّه أُساس الخطايا جميعاً، ومنبَع الشرور القديمة، وأول جريمةٍ روحيّة في تاريخ الوجود، حين رفض إبليسُ السجود لآدم تكبّراً واستعلاءً. فكان الغرور هو الشرارة التي أشعلت لهيب العصيان، ومنه تفرّعت سائر الآثام.

المغرور إنسانٌ غارق في مرآته، يعبد صورته كما لو كانت إلهاً صغيراً، ويستمدّ قيمته من وهْمٍ يصنعه بنفسه. ينظر إلى ذاته بعينٍ مكبّرة، ويرى الآخرين بأحجامٍ مصغّرة، حتى يغدو عالمه دائرة ضيقة لا يسكنها إلا **"أنا"** المتضخّمة. وفي ذلك العمى القلبي تكمن المصيبة الكبرى : فهو لا يبصر الخلق من حوله، ولا يتوجّه بعين التواضع والخشوع نحو الله الذي نفخ الروح في الطين وجعل منه إنساناً.

الغرور قيدٌ من حرير، يزيّن للنفس أنّها حُرّة سامية، بينما هي مكبّلة لا ترى أبعد من جدران ذاتها. إنه إغلاقٌ متعمّد لأبواب الروح، فلا يدخلها نور الحقيقة ولا يطرقها صوت الضمير. يعيش صاحبه في عزلةٍ

موحشة، وإنْ كان محاطاً بالناس؛ لأنّ كبرياءه جدارٌ يحول بينه وبين أي صلة حقيقية. ومن ينغلق على نفسه طويلاً، ينكمش قلبه حتى يضيق، ويذبل وجدانه حتى يصير يابساً لا ينبت حبّاً ولا عطاءً.

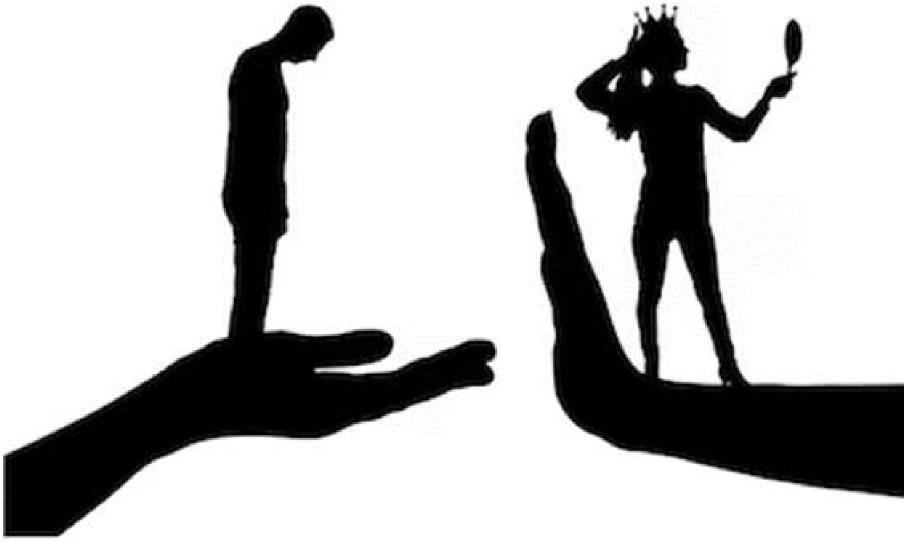

وكلما ازداد المرء غروراً، ازدادت غربته عن الآخرين، بل عن نفسه الحقيقية أيضاً. فهو يظن أنه يعلو، بينما يهوي في الحقيقة إلى القاع. والغرور لا يكتفي بحرمان صاحبه من دفء العلاقات الإنسانية، بل يقطع صلته بأصل الوجود : بالله تعالى. فالمغرور يرى ذاته مكتفية بذاتها، ناسياً أنّه محتاج في كل لحظةٍ إلى رحمةٍ أوسع من الأرض والسماء. ومن نسي الله، نسي نفسه، ثم تاه في صحراء التيه بلا ماء ولا ظل.

الغرور بداية التدهور الداخلي الذي لا يلبث أن يظهر على السلوك والمصير. يبدأ بانغلاق، ثم عزلة، ثم قسوة، حتى ينتهي بصاحبه وحيداً في قاعٍ بارد، حيث لا

رفقة ولا عزاء. فالمغرور قد يظنّ أنّه في القمة، لكن حين تنكشف له الحقيقة يدرك أنّه عاش على قشرةٍ من الوهم، وأنّ عظمته المزعومة لم تكن إلا فراغاً يتردّد صداه في داخله.

وما أتعس إنساناً غاب عنه سرّ التواضع **!** فالتواضع ليس انكساراً، بل هو الطريق الأسمى إلى الرفعة. ومن تواضع لله رفعه، ومن استكبر سقط كما سقط إبليس أول مرة. فالتواضع هو أن ترى نفسك جزءاً صغيراً في هذا الكون الواسع، مخلوقاً كسائر المخلوقات، لا أفضلية لك إلا بصدقك ونقاء قلبك وعملك الصالح.

الغرور إذاً ليس زينةً للنفس، بل عاهةً روحيّة تنخر في أعماقها حتى تُهلكها. هو بداية كل خطيئة ونهاية كل طغيان. ولو تأمّل المرء مصائر المتكبرين عبر التاريخ، لرأى كيف تحوّلوا من قممٍ عالية إلى ركامٍ منسيّ، لأنّ **الله لا يحبّ كل مختالٍ فخور**. وما أجمل أن يدرك الإنسان هذه الحقيقة قبل فوات الأوان : أن يخلع عن نفسه عباءة الغرور، ويلبس ثوب التواضع، فيعود قلبه متصلاً بالخالق، منفتحاً على الخلق، ممتلئاً بالسكينة و النور.

ثانيًا ، عاقبة الغرور الوخيمة :

الغرور ليس مجرد انفعالٍ عابر أو لحظة عُجب بالنفس،

بل هو مرضٌ روحيّ يتسلّل إلى الإنسان فيغشى بصيرته ويشوّه علاقته بالعالم. وما من رذيلةٍ إلا ولها عاقبة، غير أنّ الغرور عاقبته أفدح، إذ يبتلع صاحبه من الداخل قبل أن يصرعه من الخارج. هو كاللهب الذي يُغري بضوئه ثم يحرق من اقترب منه، **وهو السُّلّم الذي يبدو صاعداً إلى العلياء، بينما نهايته هاويةٌ سحيقة**.

ولعلّ أسطورة **نرسيس** الإغريقية خير تجسيد لعاقبة الغرور. ذلك الفتى الذي أبهره جماله، فلم يرَ في الوجود سوى صورته المنعكسة على صفحة الماء. غرق في حب ذاته حتى ذاب وجوده في وهمه، ومات وحيداً على ضفة النهر، بعدما تحوّل إلى زهرة باسمه.

إن نرسيس ليس شخصية أسطورية بعيدة، بل هو رمز

خالد لكل نفسٍ أسرتها مرآتها، فهامت بصورتها حتى انقطعت عن الحقيقة والآخرين. إنّه النموذج الأزلي للمغرور الذي يعبد ذاته فيموت عطشاً أمام ماءٍ لا يشربه، ويهلك عشقاً في صورةٍ لا تنبض بالحياة.

وقد عبّر الشعراء والحكماء عن قبح الغرور وعاقبته الوخيمة بطرق شتى. فقال شيخ الكار **المتنبي** مثلاً ، وهو العارف بخطر العُجب :

إذا غامرتَ في شرفٍ مرومِ

فلا تقنعْ بما دونَ النجومِ

لكنه عاد في بيت آخر محذّراً من الغرور:

مَن لم يَعدُلْ في مُلكِهِ لم يَزَلْ

يَرى الملوكَ على أبوابِهِ خَدَما

فالشاعر الكبير، رغم فخره بنفسه، كان واعياً أن المبالغة في الإعلاء من الذات تؤدي بصاحبها إلى مهالكٍ أشد من السقوط العادي.

وقال **أبو حامد الغزالي** جملة خالدة تلخّص جوهر القضية :

(العُجب أصلُه الجهلُ المحض، وهو حجابٌ عن كل

كمالٍ و سببٌ لكل نقص.)

فالمغرور يجهل حقيقته، يجهل ضعفه، يجهل حاجته الدائمة إلى الله وإلى الناس، فيتوهم كمالاً هو في الأصل فراغ.

الغرور يُفسد العلاقات الإنسانية، فيحوّل المحبة إلى نفور، والاحترام إلى كراهية. فمن يرفع نفسه فوق الآخرين لا يحصد إلا العزلة، ومن يعميه حب ذاته لا يرى قيمةً لغيره. إنّ حياة المغرور مسرحٌ من المرايا، لا يشارك فيها أحد، وإن حضر الجميع. وهو بذلك أشبه بنرسيس الذي لم يجد رفيقاً سوى صورته، فانتهى إلى موتٍ صامتٍ على ضفاف سرابه.

وليس من الغرابة أن نجد الحكماء يربطون التواضع بالرفعة، ويجعلون الغرور سبب الهلاك. لذا قال الإمام **علي** :

(ما لابن آدم والفخر، أوله نطفة وآخره جيفة، لا يرزق نفسه و لا يدفع حتفه)

هذه الكلمة تقطع دابر كل وهمٍ بالتعالي، وترد الإنسان إلى حقيقته : ضعفٌ محتاج، وفناءٌ محتوم.

أما الفيلسوف الفرنسي **مونتين** فقد قال :

(الغُرور أعظم أعداء الإنسان، فهو يمنعه من رؤية عيوبه، ويُغلق في وجهه أبواب الحكمة)

وهذا القول يذكّرنا بأن الغرور ليس مجرد خطأ أخلاقي، بل عائق وجودي يحول بين المرء وبين نموّه الروحي والفكري .. و كم من بشرٍ حولنا لا يرون أنفسهم إلا كتلة من الإيجابيات الصرفة رغم عيوبهم الكثيرة المميتة .. و لا يرون في الآخر سوى كتلة من السلبيات المتراكمة رغم إنجازاته الإيجابية المشهودة .. إنه الغرور يا سادة .. الذي يعميك عن عيوبك و عن محاسن الآخرين فتتوه في عالم من العصمة الزائفة كسرابٍ لا ينتهي ..

عاقبة الغرور، إذن، لا تقتصر على خسارة علاقات أو

فرص، بل تمتد إلى تدهور الروح وخراب القلب. فالمغرور يسكن قمة وهمية، لكن حين تنكشف الحقائق يجد نفسه وحيداً في قاعٍ لا نجاة منه. إنّه يكرّر مأساة نرسيس كل يوم، ميتاً أمام صورته، ناسياً أن الحياة في العطاء، وأن الجمال في التواضع، **وأن العظمة في أن ترى نفسك خادماً للحقيقة لا سيّداً على الآخرين**.

وهكذا، يبقى الدرس واضحاً : الغرور مرآة مخادعة، وما أن يتكئ عليها المرء حتى تتحطّم بين يديه. أما التواضع فهو المرآة الصافية التي تعكس الإنسان كما هو، صغيراً أمام عظمة الله، عظيماً بما يحمل من صدق ومحبة. فمن أراد النجاة فليُطفئ وهج الغرور قبل أن يحرقه، وليتعلّم من أسطورة نرسيس أنّ الانبهار بالذات بداية النهاية، وأنّ من أحبّ نفسه أكثر مما ينبغي، خسر نفسه في النهاية.

ثالثًا ، صراع الملاك و الشيطان :

منذ اللحظة الأولى التي وُلد فيها الإنسان إلى مسرح الوجود، كان ثمة صراع خفيّ يحكم مسيرة الخلق: صراع بين التواضع الذي يُعيد المخلوق إلى جوهره، والغرور الذي يرفعه كفقاعةٍ لا تلبث أن تنفجر. **فآدم، أب البشر وأول الأنبياء**، لم يكن سوى رمزٍ لهذه الرحلة الكبرى، إذ لم يُخلق كي يملأ الأرض فقط، بل كي يُجسّد درساً أزليّاً عن معرفة قدر الذات في مواجهة وهم

العظمة الزائفة.

حين نُفخ في الطين روحٌ من أمر الله، لم يكن الامتحان في الخلق ذاته، بل في الموقف منه. فسجود الملائكة كان تعبيراً عن تواضعٍ عميق، إدراكٍ لحكمة الخالق، واعترافٍ بقداسة الروح في المخلوق الجديد. أمّا إبليس، فقد أعمى الغرور قلبه عن نور الحقيقة، فلم يرَ في آدم إلا الطين، ولم يُدرك أنّ الطين حين يلامسه النور يصير أسمى من نار الكبرياء. هناك بدأت أول معركة : **التواضع خضوعاً لله**، و **الغرور استعلاءً على الآخرين.**

إنها ليست حكاية ماضٍ بعيد، بل قصة تُعاد في كل قلبٍ بشري. فكل نفس تحمل بذرتين : بذرة تواضع تعترف بالحدود وتعرف مكانها في سلّم الوجود، وبذرة غرور تدفعها لتتوهّم عظمةً فوق غيرها. وحين يتغذّى القلب على الأولى، يزهر فيه نور الملائكة؛ وحين يسقي الثانية، يحترق في لهيب الشيطان.

لقد أراد الله أن يكون الإنسان خليفةً في الأرض، لا

طاغية عليها. والخلافة لا تقوم إلا على وعيٍ بالمسؤولية، وتواضعٍ أمام سرّ الوجود. فمن عرف قدر نفسه أدرك أنّ عظمته ليست ذاتية، بل مستمدّة من السماء .. أما من زُيّنت له نفسه ورأى فوقيةً على غيره، فقد كتب على ذاته بداية النهاية. وهنا يكمن جوهر الفلسفة الروحية : **الغرور ليس إلا وهماً قصير العمر، أما التواضع فهو جذر الحياة الباقي.**

فكل عظمة دنيوية ذائبة أمام حقيقة البداية والنهاية. والمتكبر، وإن ارتفع ظاهراً، إنما يتهاوى باطناً، حتى يلقى مصيره وحيداً كمن يُقاتل ظلّه.

إنّ الغلبة في النهاية ليست للمتكبر، بل للملاك الذي يمثّل التواضع والطاعة ومعرفة القدر. قد يبدو الشيطان منتصراً لحظةً بعصيان يرفض السجود لآدم ، أو المغرور متقدّماً بخطوةٍ في سباقٍ دنيوي، لكن المصير يكشف الحقيقة : أن **كل استعلاءٍ هو سقوطٌ مؤجّل، وكل تواضعٍ هو رفعةٌ مكتوبة**. فالتاريخ لم يحفظ للمتكبرين سوى نهاياتهم، بينما بقيت سِيَر المتواضعين مناراتٍ تهدي الناس عبر العصور.

إن الغرور بداية النهاية لكل مخلوق، لأنه انقطاعٌ عن الأصل، خروجٌ عن الحكمة، وتمردٌ على النظام الإلهي الذي يجعل من التواضع أساس البقاء. وحين يختار

المرء التواضع، يختار طريق الملائكة، فينفتح على الله والخلق معاً. وحين يختار الغرور، يكرر مأساة إبليس، فيغلق أبوابه على نفسه حتى يُطرد من رحمة النور.

وهكذا يبقى الدرس الأول في الخلق هو ذاته الدرس الأخير في الحياة : أن التواضع حياة، والغرور موت.

وأن الغلبة حتمية للملاك، لأن النور لا يُهزم أمام الظل، ولأن الحقيقة تبقى أقوى من الوهم مهما طال عمره. فمن أراد البقاء في القمة فليتواضع، ومن آثر الغرور فلينتظر سقوطه، فما أشبهه بأول مخلوقٍ استكبرو رفض السجود ، فكان استكباره بداية فنائه ..

و لنتذكر أن الخالق بنفسه و من أسمائه الحسنى **المتكبر** و **المتعالي** - لا غروراً بل مكانة و قدرة و حزماً - أشار إلى نفسه في القرآن الكريم بكلمة (**هو**) باستمرار لا بكلمة (**أنا**) .. لأن الأنا تفتح بوابة الشيطان على مصراعيها لذا يكثر المغرور من استخدامها بين الحين و الحين ..

****

في ختام مقاربتنا لمغالطتنا الجديدة (**لن أسجد لآدم**) ، من الأنسب ألا نقول بعد الآن :

= كيف تقارني بذاك .. أين الثرى من الثريا .. أنا كتلة

من الإيجابيات و هو كتلة من السلبيات ..

بل أن نقول :

= هذه بالضبط هي الجملة التي بدأ بها إبليس عهد الغرور عندما رفض السجود لآدم من منطلق المقارنة هذا .. فلا يغرنك أي شخص في الحياة ، إذ يضع الله سره في أضعف خلقه ، و مكانة البشر لا يحددها إنسان فانٍ بل إله باقٍ لم يخلق أي إنسان جزافاً ..

الغرورُ قُبحٌ يستتر خلف بريقٍ زائف، كوجهٍ مدهونٍ بالألوان يخفي هشاشة الطين.

وعاقبتهُ أن يُسقط صاحبه من عرش الوهم إلى قاع الحقيقة، مجرداً من مجده المزعوم .. فهو نارٌ تأكل صاحبها قبل أن تمسّ غيره، وتتركه رماداً بارداً في مهبّ الريح.

وما أقبح أن يُدفن المرء حيّاً في صمت غروره، بينما الخلق من جوله الذين يحتقرهم و لا قيمة لهم في عينه المفعمة بالغرور يمضون في نور التواضع.

النفق الكمي

(DOCTOR STRANGE)

= لم تخبرني يا صديقي .. هل أعجبك فلم السينما الذي شاهدته بالأمس مع خطيبتك ؟

= للغاية .. فلم مثير و شيّق ..

= و ما اسمه ؟

= دكتور سترنج **DOCTOR STRANGE** ..

= و ما قصته ؟

= طبيب جراح يمكنه التنقل بين العوالم المتوازية عبر بوابات معينة ..

= لا شك أن يعجبك إذن .. إنه قريب على اختصاصك في الفيزياء .. و كيف تعمل تلك البوابات العجيبة ؟

= لم يذكر الفلم الآلية بالضبط .. لكنها ذكرتني بالأنفاق الكمية في فيزياء الكم ، التي تعبر من خلالها الجسيمات

دون الذرية من مكان إلى مكان آخر لحظياً ..

= معقول ؟!! هل هنالك في الواقع هكذا نظرية ؟ أي الانتقال الآني ؟

= بالطبع بل أكثر من ذلك .. يمكن أن يتم الانتقال بين مكانين بينهما حيز غير قابل للاختراق ..

= مدهش !! أعتقد أن تطور البحث العلمي في هذا المجال قد يأتينا مستقبلاً بحلول خلاقة للسفر اللحظي عبر الزمكان نحن كبشر أيضاً ..

= وارد جداً يا صديقي ، فالعلم لا ينفك يدهشنا بأسراره جيلاً بعد جيل .. بل عاماً بعد عام ..

****

الانتقال اللحظي ..

حلم داعب مخيلة كثيرين عبر العصور .. شيء أقرب إلى سحر الحواة أو معجزات الأنبياء .. لكنه في الحقيقة مفهوم مثبت علمياً اليوم ، و إن كان على مجال ضيق يشتمل الجسيمات دون الذرية في الفيزياء ..

فما قصة النفق الكمي بالضبط ؟ و هل يمكنه بالفعل أن يفتح أمامنا الأبواب للانتقال الآني كبشر خلال قادم السنوات كما يدعي البعض أم أنها محض مغالطة من دنيا الخيال العلمي ؟!

هذا ما سنحاول معرفته سوياً خلال الصفحات التالية ، حيث سنقارب بدقة أكثر هذا المفهوم الفيزيائي الغامض و الساحر طمعاً في إجابات مرضية ، و ذلك عبر النقاط الأربعة التالية :

1. **ما هو النفق الكمي ؟**
2. **مجالات استخدام النفق الكمي ..**
3. **النفق الكمي و الثقب الدودي ..**
4. **النفق الكمي فلسفياً ..**

فهيا بنا عزيزي القارئ نفتح سوياً البوابة و نعبر إلى الجهة الأخرى من النفق إلى عالم الكمومية الموازي الساحر ..

أولاً ، ما هو النفق الكمي ؟

في عمق العالم الذري، حيث تتراقص الإلكترونات حول النوى في مسرحٍ لا يشبه أي شيء نراه في حياتنا اليومية، يظهر النفق الكمي كظاهرة غريبة، ساحرة، تتحدى المنطق الكلاسيكي. تخيل أن جسيمًا صغيرًا دون ذريّ – قد يكون إلكترونًا أو بروتونًا – يواجه حاجزًا لا يمكن أن يتجاوزه وفق قوانين الفيزياء التقليدية، لكنه فجأة يظهر على الجانب الآخر، كما لو أنه اخترق الجدار بطريقة سحرية. هذه هي الحقيقة الغريبة للعالم الكمومي : (**الجسيمات ليست مقيدة بما نراه، بل**

بإمكاناتها الاحتمالية) ..

لكن كيف يحدث النفق الكمي ؟

النفق الكمي ينبع من طبيعة المادة نفسها على المستوى دون الذري. كل جسيم ليس مجرد نقطة ثابتة، بل موجة احتمالية، تمتد في الفضاء و لا يمكننا تحديد أين يمكن أن يوجد الجسيم ، فهو في كل مكان و ليس في أي مكان في كل لحظة كما يبوح لنا بسره مبدأ **عدم اليقين لهايزنبيرغ** .. عندما تصادف هذه الموجة حاجزًا للطاقة يفوق طاقتها الحالية، لا تتوقف عند الحاجز. بعض أجزاء الموجة تتسلل إلى الجانب الآخر، فيظهر الإلكترون مثلاً هناك وكأنه اختفى ثم عاد ليظهر في مكان جديد. القوانين لا تُنتهك، لكن الاحتمال يتحقق بطريقة تبدو مستحيلة على مستوى الواقع اليومي ، إذن فالقصة بالأساس تبدأ من فكرة ازدواجية طبيعة الجسيمات دون الذرية بين جسيم و موجة كما أثبتتها **تجربة الشق المزدوج ليونج** ..

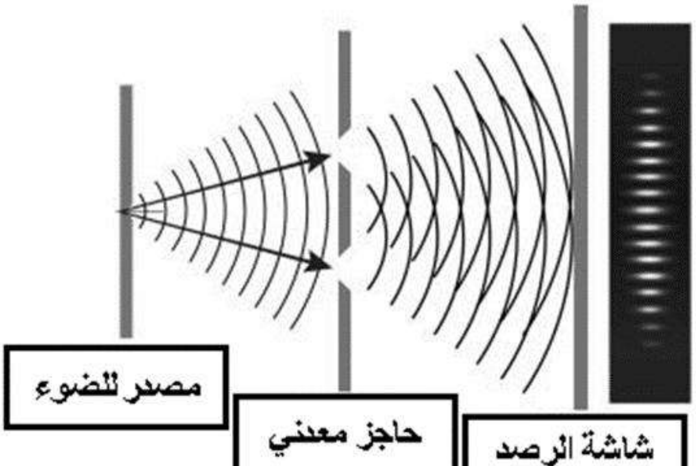

و النفق الكمي يحدث في كل مكان تقريبًا في العالم الذري، لكنه يظهر بشكل أكثر وضوحًا في البيئات التي تتطلب طاقات دقيقة للغاية : مثلاً في **النجوم** تعتمد التفاعلات النووية التي تمنح الشمس ضوءها وحرارتها على النفق الكمي للسماح للبروتونات بالاندماج رغم تنافرها الكهربائي .. و في **الإلكترونيات الحديثة** ، الترانزستورات وأشباه الموصلات تعتمد على الظاهرة نفسها في عملها، ما يجعل الأجهزة الذكية ممكنة .. و في **التجارب المخبرية الدقيقة** ، حيث يمكن للعلماء مشاهدة الجسيمات وهي تتخطى الحواجز بطريقة تبدو مستحيلة.

ثانيًا ، مجالات استخدام النفق الكمي ..

النفق الكمي ليس مجرد ظاهرة طبيعية غريبة، بل أداة علمية مذهلة يمكن الاستفادة منها في مجالات شتى دون الخوض في تفاصيل علمية معقدة أكثر ، من قبيل :

۞ **الحوسبة الكمومية** : تعتمد على حالات الاحتمال للجسيمات لنقل ومعالجة معلومات بسرعة تفوق الخيال.

۞ **التصوير الطبي والمواد النانوية** : تسهيل حركة الإلكترونات في أجهزة دقيقة للغاية.

۞ **تطوير الطاقة والاندماج النووي** : النفق الكمي يسمح بتجاوز العقبات التقليدية للطاقة، وهو أساس للتقدم في تكنولوجيا الطاقة النظيفة.

ثالثاً ، النفق الكمي و الثقب الدودي ..

في أعماق الذرة، حيث تتراقص الإلكترونات في أرجاء لا يراها إلا المختبر، يحدث **النفق الكمي** كما قلنا ، جسيم يختفي من موقعه ليظهر فجأة على الجانب الآخر من حاجز يبدو مستحيلًا تجاوزه. لا يتحرك الجسيم كالكرة التي نتخيلها، بل يتسلل كموجة عبر عالم الاحتمالات، حيث تصبح الحدود غير ثابتة والواقع مرنًا، وكأن الكون يهمس لنا بأن كل شيء ممكن، حتى ما يبدو مستحيلًا.

على نحو مدهش، يبدو أن **الثقب الدودي** في الكون هو النسخة الماكروسكوبية لذلك الإلهام الكمومي. هو نفق في الزمكان، يربط بين نقطتين بعيدتين عبر **جسر خفي** ، يتيح – نظريًا – الانتقال اللحظي بينهما. لم يُرصد بعد ثقب دودي، لكنه يبقى فكرة مذهلة تشبه تمامًا الإلكترون الذي يتسلل عبر الجدار: حدود الواقع تتبدل، والمكان والزمان ليسا ثابتين كما اعتقدنا.

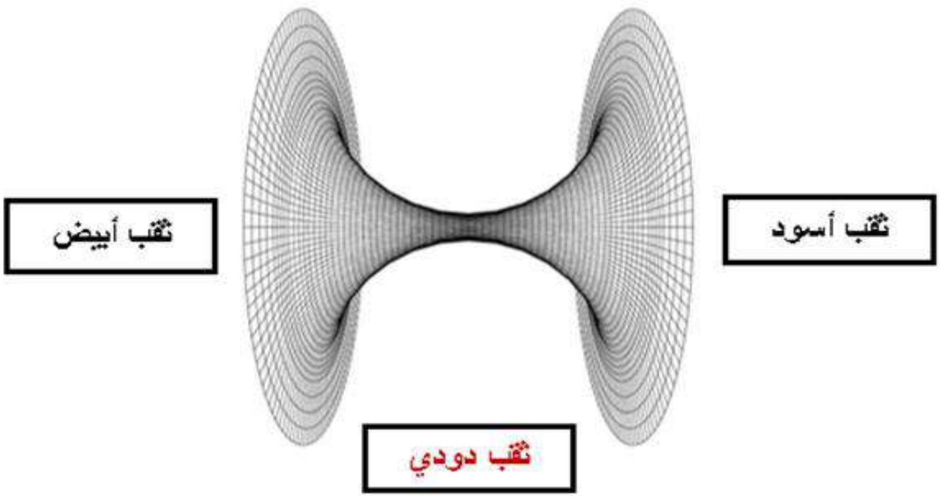

يكمن التشابه في جوهر الظاهرة : كلاهما يحقق الانتقال الفجائي عبر حواجز تبدو غير قابلة للاختراق. النفق الكمي ملموس، وقد تم قياسه في المختبر؛ الثقب الدودي نظري مثبت على الورق فقط ، لكنه يفتح أبواب الخيال العلمي والفلسفة معًا. كلاهما يدعونا للتأمل في مرونة الواقع، في الاحتمالات الخفية التي تحكم الكون، وفي حقيقة أن الحواجز ليست نهاية الطريق دائمًا، بل مجرد مرحلة في رحلة غامضة نحو الجانب الآخر.

وعلى المستوى الفلسفي، يعلّمنا هذا التشابه أن الكون لا يلتزم بالقوانين كما نراها نحن، بل يستثمر الاحتمال والمرونة والفضاء الخفي ليخلق طرقًا غير مرئية للتنقل، سواء على مستوى الجسيمات الدقيقة أو بين نجوم ومجرات بعيدة. في كلتا الحالتين، النفق الكمي والثقب الدودي يوسّعان إدراكنا للوجود، ويذكراننا بأن المعجزات ليست حكراً على الخيال، بل هي جزء من النسيج العميق للكون، تنتظر فقط من يجرؤ على فتح بوابة النفق و عبوره ..

رابعًا ، **النفق الكمي فلسفياً** ..

إذا عدنا من الذرات إلى الإنسان، نجد للنفق الكمي رمزية عميقة. كيف يحدث أن بعض العقبات في حياتنا تبدو مستحيلة، ثم فجأة نجد طريقة لتجاوزها؟ النفق الكمي يُذكرنا بأن الاحتمالات المفتوحة دائمًا موجودة،

حتى حين يبدوا الحاجز عظيمًا. قد يكون الحلم بعيدًا، أو القرار صعبًا، لكن الاحتمال نفسه يحملنا إلى الجانب الآخر، تمامًا كما تتسلل الموجة الكمومية ليظهر الجسيم في مكان لم نتوقعه.

كما أن النفق الكمي يعلّمنا درسًا آخر : الوجود ليس ثابتًا، والحياة ليست خطية. الجسيمات تتنقل بين الحالات، تختفي وتظهر، ونفس الأمر ينطبق على القرارات، الفرص، وحتى العلاقات الإنسانية. كل عقبة تحمل في طياتها إمكانية غير مرئية، وكل حدود يمكن تجاوزها إذا فهمنا طبيعة الاحتمال والمرونة الداخلية.

و يمكننا رؤية أصداء النفق الكمي في الحياة اليومية ، كالإلهام المفاجئ، الذي يبدو وكأنه يظهر من العدم، لكنه

كان موجودًا في العقل غير الواعي .. أو النجاح بعد سلسلة من الفشل، وكأن الطريق المستحيل أصبح ممكنًا فجأة .. أو تجاوز الخوف أو الألم، والظهور على الجانب الآخر أقوى وأكثر نضجًا.

إن النفق الكمي، بهذا المعنى، ليس مجرد ظاهرة فيزيائية، بل مرآة للوجود الإنساني. يعلمنا أن الحدود التي نراها ليست دائمًا حدودًا حقيقية، وأن الاحتمال، ولو خفيًا، يمكن أن يفتح لنا أبوابًا لم نكن نعلم بوجودها.

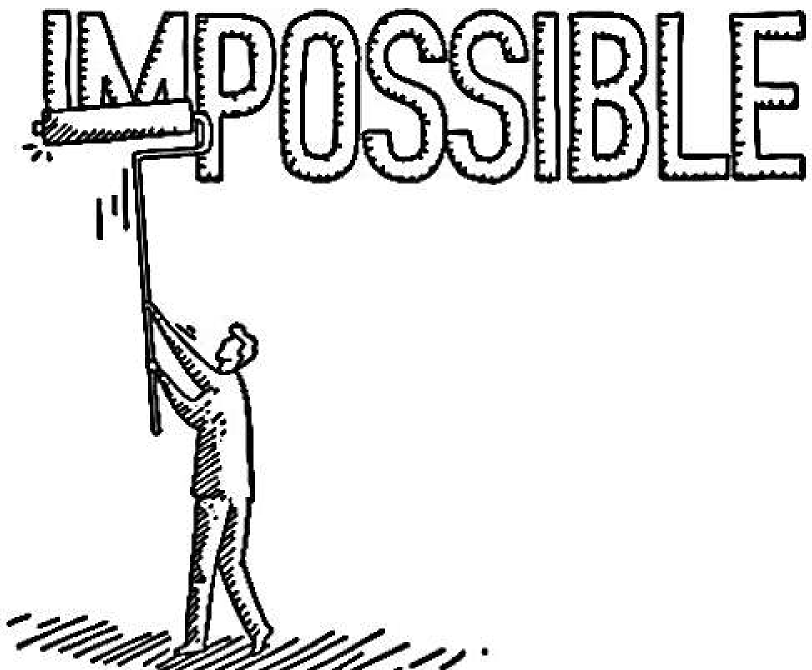

في النهاية، النفق الكمي يجمع بين العلم والأدب، بين الواقع والخيال، بين المادة والاحتمال. إنه يذكرنا بأن العالم أكبر من إدراكنا اليومي، وأن كل شيء، حتى في أصغر الجسيمات، يحمل مفاجآت تتحدى المنطق. وفي حياتنا، كما في عالم الذرات، يكمن الجمال في أن

الاحتمالات دائمًا موجودة، وأن ما يبدو مستحيلًا قد يحدث، إذا ما سمحنا لأنفسنا أن نؤمن بمرونة الكون و بالاحتمال الذي يتسلل، كالإلكترون، ليغير مسارنا إلى الأفضل.

****

في ختام مقاربتنا لمغالطتنا الجديدة المقتضبة تجنباً للتعقيد في التفاصيل العلمية (**النفق الكمي**) ، من الأنسب ألا نقول بعد الآن :

= الانتقال اللحظي من مكان لآخر خرافة من عالم الخيال العلمي و لا يمكن أبداً أن تتحقق ..

بل أن نقول :

= الانتقال اللحظي مثبت نظرياً و علمياً على مستوى الجسيمات دون الذرية و نظرياً حتى الآن على مستوى الأجرام السماوية ، و ما أدرانا لعل العلم مع تطوره يمكننا من الانتقال اللحظي على المستوى البشري .. لا نؤكد .. و لا ننفي أيضاً .. بل نترك باب النفق الكمي مفتوحاً على جميع الاحتمالات .. و العلم رهان لا يخسر أبداً كما عوّدنا ..

يذكر في أرشيف التاريخ قصة رجل مؤمن عنده علمٌ من الكتاب (يقصد بذلك علم الكتاب السماوي الأشمل الذي اطلع على جزء يسير منه بهبة ربانية) ، قال

للنبي سليمان : (**أنا آتيك بعرش بلقيس قبل أن يرتد اليك طرفك**) .. وكان أفضل من الجني الذي قال له : (**أنا آتيك به قبل ان تقوم من مقامك**) .. فربما تم ذلك عبر خاصية الأنفاق الكمية .. و لعلّ هذا أول ذكر لميكانيكا الكم والتشابك الكمي و النفق الكمي في القرآن قبل قرون طويلة من ولادته في أوروبا .. !!

تيلوميراز

(حصان طروادة)

= ما الذي تقرأه على هاتفك يا صديقي ؟

= منشور على موقع التواصل الاجتماعي يتناول قصة أغرب من الخيال ..

= أنت تعرف كيف تستفز حماستي .. هات ما عندك ..

= استمع .. يتناول المنشور قصة السيدة **غلوريا راميريز**، التي عُرفت لاحقًا في الصحافة الأمريكية باسم **المرأة السامة** ..

= و لماذا ؟

= كانت غلوريا سيسيليا راميريز، امرأة أمريكية في عمر الثانية والثلاثين، مصابة **بسرطان عنق الرحم** في مراحله المتقدمة. في يوم من أيام عام **1994** نُقلت إلى قسم الطوارئ في مستشفى بمدينة ريفرسايد في ولاية كاليفورنيا.

= و بعد ؟

= خلال محاولات الأطباء والممرضين علاجها، حدث شيء غير مألوف، فبعض أفراد الطاقم الطبي شعروا بصداع شديد ، ضيق تنفس، وتشنجات عضلية بمجرد اقترابهم من جسدها أو من عينات دمها. حتى أن عدداً منهم أُغمي عليه في غرفة الطوارئ نفسها ..

= غريب بالفعل !! و ما تفسير ذلك ؟

= التحقيقات لاحقًا أشارت إلى أن غلوريا راميريز

كانت تستخدم مادة تُسمى **ثنائي ميثيل سلفوكسيد (DMSO)** كمسكن لآلام السرطان .. وعندما تلقت الأوكسجين في المستشفى، تحولت تلك المادة كيميائيًا داخل جسدها إلى مركب خطير هو **ثنائي ميثيل سلفات**، الذي يمكنه أن يطلق أبخرة سامة. هذه الأبخرة هي التي سببت الأعراض الغامضة للعاملين بالمستشفى و سقوطهم تباعاً مغماً عليهم.

= إنها مرأة سامة بالفعل .. و هل شفيت من السرطان لاحقاً ؟

= للأسف لا ، في النهاية، تُوفيت غلوريا راميريز بسبب مضاعفات السرطان كعادة أغلب المرضى، لكن قصتها بقيت لغزًا طبيًا وعلميًا غريبًا، وجعلت جسدها رمزًا أشبه بحصان طروادة ، دخل إلى المستشفى بشكل

بريء ، لكنه كان يحمل في داخله سرًّا خفيًا ألحق الأذى بالآخرين ..

= ليرحمها الله .. ألن يحين وقت ننتهي فيه من هذا المرض اللعين ؟

= محق .. لقد تم اكتشاف علاجات جذرية لأغلب الأمراض ، لكن السرطان بقي عصياً على العلاج .. لكنني بحسب خبرتي كطبيب ، فقد قرأت مقالاً واعداً و مفائلاً بأنّ العلاج الجذري له قد يصبح ممكناً على المدى المنظور عبر التلاعب الأنزيمي في الخلايا السرطانية ..

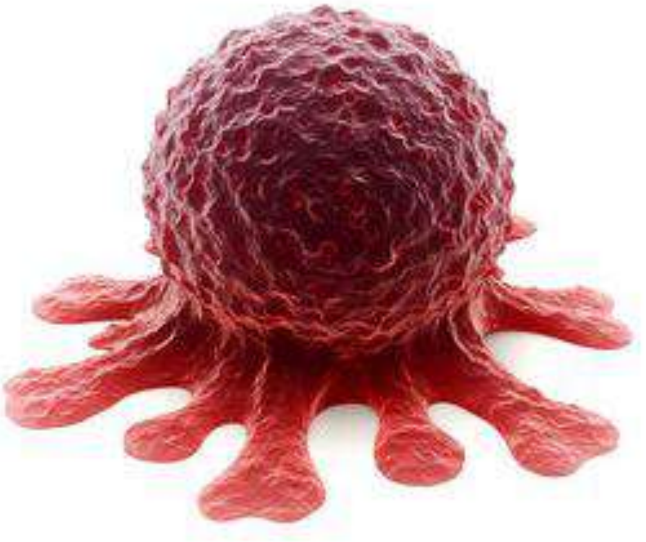

= و كيف ذلك ؟

= تعال لاقص عليك قصة السرطان الغريبة و خلالها أشرح لك أكثر طبيعة هذا العلاج الواعد ..

******

السرطان كائن غامض يولد من أعماقنا، لا يأتي من الخارج بل ينهض كظلّ خائن يسكن الجسد .. هو الفلسفة المظلمة للحياة حين تنقلب طاقتها الخلّاقة إلى بذرة خراب .. يعلّمنا أن الشر ليس دائماً غريباً عنا، بل قد يتجسد فينا كصوتٍ يرفض الانصياع .. إنه اختبارٌ للروح : هل تذوي تحت وطأة الفناء أم تكتشف في الألم معنى أعمق للوجود ؟

إنه ببساطة رمزٌ للثنائية الأبدية : حياة و موتٌ يتنازعان في قلب الإنسان حتى ينتصر أحدهما على الآخر .. و للأسف حتى يومنا هذا فإن الغلبة في أغلب الأحيان تكون لذاك الموت الخبيث المكروه ، و لهذا السبب ، لانتشار السرطان الواسع و تأثيره المهلك ، يستحق أن يأخذ مكاناً له بين سلسلة مغالطاتنا ، فانتصار الشر في هذه الحياة مغالطة كبرى لا بد من تصويبها ، و هذا ما سنحاول القيام به خلال الصفحات التالية عبر مقاربة موضوع السرطان من عدة نقاط هامة و شيقة :

1. **نشأة السرطان عبر التاريخ ..**
2. **كيف يحدث السرطان ؟ ..**
3. **ما هي العوامل التي يمكنها إحداثه ؟ ..**
4. **كيف يمكن قهره ؟ ..**
5. **السرطان من وجهة نظر فلسفية ..**
6. **حقائق غريبة عن مرض السرطان ..**

فهيا بنا عزيزي القارع نقارع سوياً هذا العدو الغاشم ..

أولاً ، نشأة السرطان عبر التاريخ :

منذ الأزل، كان السرطان موجودًا كظل خفي في حياة الإنسان، يترصد خلاياه بصمت، يختبئ بين أنسجة الجسد، كما يختبئ الليل خلف ستار النهار. لم يكن معروفًا باسمه، لكنه كان حاضرًا في قصص الألم والغموض، في البرديات القديمة و النقوش المسمارية التي تتحدث عن أمراض مجهولة، عن كتل غير مفهومة، وعن المعاناة الصامتة التي أصابت الأجساد. إنه مرض لم يولد مع العلم و الحداثة، بل كان موجودًا منذ أن وُلد الإنسان، ومع ذلك، بقي لغزًا حتى جاءت لحظة إدراك البشر له، كفجر يشرق على عالمٍ غامض يا ليته ما كان

أول إشارة إلى السرطان تعود إلى **الحضارة الفرعونية القديمة**، قبل أكثر من أربعة آلاف سنة. في بردياتهم الطبية، **كبردية إدوين سميث** ، وُصفت أورام الثدي

وبعض الأورام الأخرى بوضوح ملحوظ، واعتُبر العلاج غالبًا مستحيلًا، و الموت قدر محتم على المصاب به ..

كانت هذه البرديات تحمل وصفًا علميًا غريبًا عن الحياة والموت : أورام صلبة في الجسد، تشبه العقبات الصامتة التي تقف في طريق نهر العافية، تمنع تدفق الطاقة والحيوية. ورغم بساطة أدواتهم الطبية، فإن المصريين القدماء أدركوا أن هناك شيئًا خفيًا ينهك الجسد، وأن هذه القوة ليست طبيعية بالكامل، بل هي تمرد داخلي على النظام الدقيق للحياة.

بعدهم، وفي الحضارة اليونانية، حاول الأطباء الأوائل مثل **جالينوس** أن يفهم هذا الظل الغامض. أطلقوا على هذا المرض اسم **كاركينوما** ، مشتق من الكلمة اليونانية **كاركينوس** ، أي **السلطعون**، نظرًا لشكل الأورام التي

تشبه أطراف السلطعون المتفرعة حول مركزها. هذه التسمية نفسها تحمل فلسفة رمزية : تمامًا كما يمتد السلطعون بأذرعه إلى كل الاتجاهات، يمتد السرطان في الجسد، يلتهم الحيوية، ويخلق شبكة من التمرد الخفي .. و من هنا أتت التسمية الغريبة المعروفة للمرض بالسرطان إن سبق لك و تساءلت ..

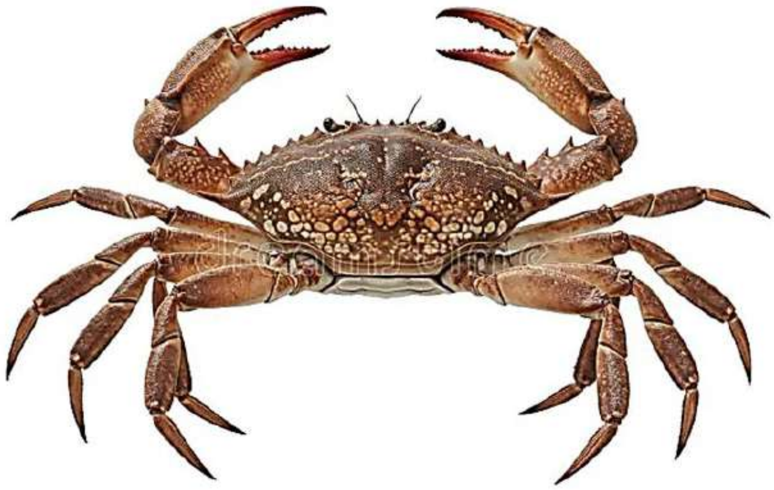

كان الأطباء اليونانيون يرون السرطان عقوبة طبيعية أحيانًا، أو نتيجة لسلوك الجسد المتمرد، ولم يكن هناك فهم كامل للآليات الداخلية، لكن كان هناك إدراك أولي بأن هذا الظل، رغم صمته، يحمل قوة مدمرة.

في **العصور الوسطى**، استمر السرطان كغموض، لكنه بدأ يُوثّق بشكل أكثر انتظامًا. الأطباء العرب والمسلمون، مثل **ابن سينا**، وصفوا بعض الأورام وأكدوا أن بعض الأجسام البشرية يمكن أن تتحول بفعل أمراض داخلية، وأن العلاج يعتمد على الرعاية والصبر ومراقبة الأعراض. هنا، بدأت الإنسانية تدرك

أن السرطان ليس مجرد عقوبة، بل ظاهرة داخلية تتعلق بنسيج الحياة نفسه، وأن فهمه يحتاج إلى مزيج من الملاحظة والصبر والمعرفة المتراكمة.

أما أول حالة سريرية موثقة بشكل أكثر وضوحًا في التاريخ الغربي، فكانت في القرن **15** تقريبًا، حين بدأت سجلات التشريح والفحص الطبي تظهر الأورام بأدوات أكثر دقة. الطبيب السويسري **كونراد فون هوهن هايم** المعروف باسم **بارا سيلسوس** ، وهو واحد من رواد الطب الحديث، وصف حالات أورام صلبة، وأكد أنها تمتد داخليًا وتستحيل السيطرة عليها بسهولة، لكنه بدأ يشير إلى أن تدخل الإنسان، سواء جراحيًا أو دوائيًا، يمكن أن يغيّر مسار المرض.

و في القرن 19، ومع اكتشاف الميكروسكوب وتطور علوم التشريح والخلايا، بدأ السرطان يكشف عن سره تدريجيًا. كانت لحظة عبقرية حين لاحظ العلماء أن السرطان **ليس مجرد كتلة جامدة، بل مجموعة من الخلايا التي تتكاثر بلا حدود**، تتجاوز القوانين الطبيعية، وكأنها جيش صغير من المتمردين في مملكة دقيقة، يختبر الصبر والمقاومة، يهدد النظام ويعلّم الإنسان عن هشاشة الجسد وعجائب الحياة. هذه الاكتشافات جعلت السرطان موضوعًا للفلسفة العلمية والطب، وأدخلت البشرية في صراع طويل مع هذا الظل الذي يختبئ في العمق.

ومنذ القرن العشرين، ومع تقدم العلم الحديث، أصبح السرطان قابلاً للتشخيص بدقة أكبر، وبدأت رحلات العلاج تتنوع بين الجراحة والكيمياء والإشعاع، وصولًا إلى العلاجات المستهدفة والجينية، وكلها خطوات لفهم هذا العدو الذي كان حاضرًا منذ فجر التاريخ، يعلم الإنسان الصبر، ويذكّره بضعف الجسد، وبقدرة الروح على المقاومة، وبأن الحياة، مهما كانت مهددة، تحتوي على بذور الأمل والمعجزات ..

السرطان إذن ليس مجرد مرض؛ إنه شاهد على التاريخ البشري، مرآة تعكس تطور الطب والفكر، وحكاية عن قوة الإنسان في مواجهة الخطر الخفي، قصة عن كيف

يمكن للمعرفة أن تتكشف ببطء عبر العصور، وعن كيف يمكن للصبر أن يكون سلاحًا أمام المجهول. من برديات مصر القديمة إلى مختبرات القرن الحادي والعشرين، ظل السرطان حاضرًا كظل تاريخي وفلسفي، يعلم الإنسان أن الحياة ليست مجرد بقاء جسدي، بل رحلة فهم، صبر، أمل، وإيمان بأن كل معركة، مهما كانت قاتمة، تحمل في طياتها نورًا خفيًا يعلن أن الحياة تستمر، الأمل يأتي و المحنة تزول .

ثانيًا ، كيف يحدث السرطان ؟

في جوف الجسد، حيث تترابط الخلايا كنجوم في مجرات صغيرة، ويخفق القلب بإيقاع صارم كمعزوفة خفية، يبدأ السرطان رحلته بهدوء، كظل يتسلل عبر الزوايا المظلمة لنظام معقد دقيق. إنه ليس وحشًا مرئيًا، بل هو خلل في نسق الحياة نفسها، تمرد داخلي على قوانين الطبيعة التي ظلت تحكم الجسد منذ ولادته.

كل خلية في جسم الإنسان تحمل خريطة دقيقة، ككتاب مفتوح يحتوي على تعليمات دقيقة لبناء الحياة والحفاظ عليها. هذه التعليمات مكتوبة بلغة جزيئية عتيقة، بروتينات و **DNA**، تضمن أن كل خلية تؤدي وظيفتها دون أن تخرج عن النص. لكن أحيانًا، وفي لحظة غير متوقعة، تتعرض هذه الشيفرة لضغطٍ خارجي أو داخلي يتلاعب بها : **إشعاع خفي، سموم متسللة، أو مجرد**

خطأ عابر في النسخ الخلوي. هنا تتسرب أولى شرارات الفوضى.

الخلية المتمردة، التي فقدت إحساسها بالحدود، تبدأ في تجاوز الإشارات التي تنظم دورة الحياة والموت. **فبينما يفترض أن تموت الخلايا التالفة في صمت، تستمر هذه الخلية في التكاثر بلا توقف**، كما لو أن الزمن قد نسيها، وكأنها تعلن تحديًا صامتًا للحياة نفسها و فلسفة الموت المحتم فيها. تدريجيًا، يشكل هذا التمرد تجمعًا، **نسيجًا غريبًا في الجسد، غريب في جوهره لكنه مألوف في شكله، لأنه لا يزال يعتمد على أنسجة الجسم كوقود لبقائه.**

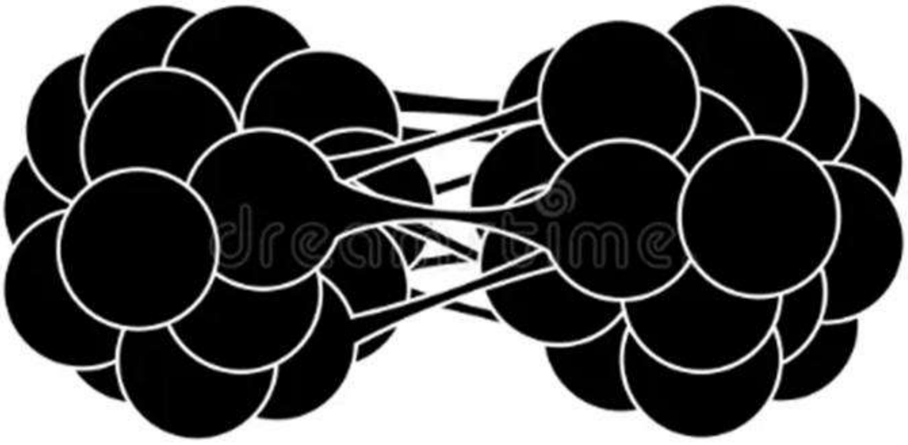

وفي اللحظة التي يبدأ فيها السرطان في الانتشار، يصبح الجسد مسرحًا لصراع خفي، صراع لا تُسمع صرخاته إلا في همسات الألم وارتجاف الخلايا السليمة. الخلايا السرطانية، في شراستها الصامتة، تكشف عن قوة الحياة وقابليتها للتحول و التكاثر بلا توقف ، لكنها

أيضًا تذكّرنا بأن النظام هش نعم ، لكنّ الانسجام الدقيق بين الخلايا هو ما يجعل الحياة ممكنة.

ومع كل خلية تمردت، مع كل نسق تشوه ، يبدأ الجسد رحلة المقاومة و محاولة إعادة التوازن، كما لو أن الطبيعة نفسها تتدخل لتستعيد النظام. إنها معركة أزلية، بين القوة المتمردة والنظام الحارس، بين الحرية الفوضوية للخلية والانضباط الضروري للحياة. وفي هذا الصراع، في هذا التوتر الدائم بين الانحراف والنظام، تتكشف الحقيقة الكبرى : أن السرطان ليس مجرد تهديد، بل هو جزء من لغة الحياة نفسها، لكنها حياة مفرطة شذت الطريق فلم تعد تصل إلى خط النهاية ..

ثالثًا ، ما هي العوامل التي يمكنها إحداثه ؟

في عالم الخلايا، حيث تتناغم الحياة بنسق دقيق، تتسلل أحيانًا قوى خفية، قوى تغيّر مسار الحياة بصمت، دون أن يُسمع لها صوت .. هذه القوى هي العوامل المسرطنة، كظلالٍ سرية تعبث بالشيفرة العتيقة للحياة، تهدد النظام المترابط الذي حافظ على توازننا منذ ولادتنا. إنها ليست قوة واحدة، بل هي طيف واسع، يمتد من اللمس الفيزيائي إلى الهمس الكيميائي، ومن إشعاع الشمس إلى صخب التلوث الصناعي، وكلها قادرة على إشعال شرارة الفوضى في الخلايا.

أول هذه القوى هو **العامل الفيزيائي**، الذي يحمل طاقة يمكن أن تخل بتوازن الخلية. الإشعاعات، سواء كانت أشعة الشمس فوق البنفسجية أو الأشعة السينية، تدخل إلى نسيجنا العميق، وتعيد ترتيب خيوط **DNA** كما لو أنّ فنانًا عديم الموهبة يشوه لوحة قديمة. في كل شعاع، احتمال صغير لخطأ جيني، وكل خطأ يمكن أن يكون بداية قصة جديدة للتمرد الخلوي، بداية الطريق إلى السرطان.

ثم هناك **العوامل الكيميائية**، هذه المواد التي يخلقها الإنسان أو يتركها في الطبيعة، تختبئ في الهواء، في الماء، في الطعام. بعضها مسرّطنة بطيئة، مثل دخان التبغ الذي يتسلل إلى الرئتين يومًا بعد يوم، وبعضها سريع، مثل بعض السموم الصناعية التي تكسر جدران الخلية فجأة. هذه المواد الكيميائية لا ترى بالعين، لكنها تزرع بذور الفوضى في عمق خلايانا، وتعيد كتابة

الشيفرة كما لو كانت روحًا غريبة تتسلل إلى مصنع الحياة.

و لا يمكننا نسيان **العوامل البيولوجية**، الكائنات الدقيقة التي تحمل معها طاقات خفية، مثل بعض الفيروسات والبكتيريا التي تمتلك القدرة على تعديل الجينات، وكأنها رسل خفية من عالمٍ آخر، تدعو الخلايا إلى التمرد بلا صخب. هذه القوى الحية تتسلل إلى أجسادنا، و تزرع بذور السرطان في تربة الجسد في غفلة من الفلاح ..

هناك أيضًا **العوامل الوراثية والداخلية**، التي تحملها الخلايا نفسها، كعواقب أخطاء في النسخ أو شيفرات قديمة تنتقل عبر الأجيال. هي عوامل غير مرئية للعين، لكنها تجلس في أعماق **DNA**، تنتظر اللحظة المناسبة لتخرج من صمتها، وكأنها رسالة قديمة من الماضي،

تذكّرنا بأن جسد الإنسان ليس حصينًا من الانحراف، و أن لعنة المرض ربما نزلت على الجسد منذ زمن سحيق و اليوم تتحقق النبوءة المشؤومة ...

وأخيرًا، هناك **العوامل البيئية والاجتماعية**، التي تشكل الساحة التي تتحرك فيها الخلايا. **نمط الحياة، التغذية، الضغط النفسي، التعرض المستمر للمواد الصناعية**، كل هذه القوى تشكل نسقًا خارجيًا يمكن أن يرفع احتمال حدوث السرطان، كأنها موجات خفية في بحر هادئ، تدفع السفينة ببطء لكن بثبات إلى شواطئ مجهولة منفية

العوامل المسرطنة إذن ليست مجرد تهديدات؛ هي رسائل من الكون، تذكّرنا بأن الحياة قائمة على توازن هش، وأن كل قوة خارجية أو داخلية تحمل معها إمكانية الانحراف عن النظام، و زرع بذور الفوضى. إنها جزء من لغة الوجود، جزء من الحوار الخفي بين الجسد والبيئة، بين الخلية والعالم، بين الخلق والانكسار. وكل خلية تتأثر بعامل مسرطن، تحمل في قلبها صدى هذا الصراع، صدى رغبة الحياة في الاستمرار، وصدى اضطراب الطبيعة عندما تُخالف قوانينها.

رابعاً ، كيف يمكن قهره ؟

في صمت الجسد، حين تتجلى الفوضى السرطانية في انسجامٍ غير متوقع، يبدأ الإنسان رحلة السعي عن حلّ

، رحلة بحث عن الضوء في قلب الظلام. السرطان، ذلك التمرد الصامت، لا يعلن عن نفسه إلا من خلال تموجات الألم، وفي كل خلية متحولة، تحمل الحياة تحديًا عميقًا : هل يمكن للنظام أن يستعيد توازنه أمام فوضى التمرد؟

تبدأ المعركة غالبًا بالسلاح **الكيميائي**، حيث تُسخر المواد الكيميائية كجنودٍ شجعان، تهدف إلى اقتلاع الخلايا المتمردة من جذورها. هذه المواد، رغم قسوتها و تساقط شعر المريض بسببها مع الاقياءات العنيفة التي تصاحبها، تحمل رسالة فلسفية : أن الحياة أحيانًا تتطلب التضحية، وأن القوة الصارمة ضرورية لإعادة النظام.

ثم يأتي السلاح **الإشعاعي**، الذي يستخدم أشعة محددة لتحطيم النواة المتمردة للخلية السرطانية. الإشعاع يشبه شعاع الشمس الذي يخترق الغابة الكثيفة، يضيء الأخطاء ويكشف الظلال، ويعيد ترتيب الفوضى في العمق. في كل شعاع، هناك توازن هش : ما يُهدم من الخلايا التالفة، وما يبقى من الأنسجة السليمة، وبينهما قصة صراع لا تنتهي، قصة صراع مستمر بين الضوء و الظلام في جسد الإنسان كما هو الحال خارجه ..

و مع تطور العلم، ظهر السلاح **المناعي**، الذي يحول الجسم إلى معقل حقيقي، حيث يستيقظ جهاز المناعة كجيش حارس، يتعرف على الخلايا السرطانية المتمردة ويهاجمها بعقلانية مذهلة. هذا العلاج يحمل في طياته

فلسفة الذات : أن الجسد لديه القدرة على الدفاع عن نفسه، وأن الحياة، مهما انحرفت أحيانًا، تحمل إمكانات الشفاء الذاتي إذا أُحييت قوى الدفاع الكامنة فيه.

ولا ننسى **العلاجات المستهدفة جزيئيًا**، تلك التي تعرف على وجه التحديد نقاط ضعف الخلية السرطانية، كالقائد الذي يعرف مكان الخاصرة الضعيفة في جسد العدوّ . هذه الاستراتيجية تعلمنا أن القوة لا تكمن دائمًا في القسوة، بل في الفهم العميق للعدو، وفي القدرة على توجيه الضربة المناسبة دون هدر للطاقة. هنا، العلم يصبح فنًا، والطب يصبح فلسفة، حيث يتم التنقل بين الغموض والحقيقة، بين الشيفرة الوراثية وعمق الوجود.

و لا يمكننا إغفال سلاح **الجراحة** ، الذي غالباً ما يكون أول العلاج و ليس نهايته .. كمحاولة لاستئصال ما

يمكن من الورم قبل مهاجمة انتشاراته الأخرى في الجسد بالأسلحة السابقة ..

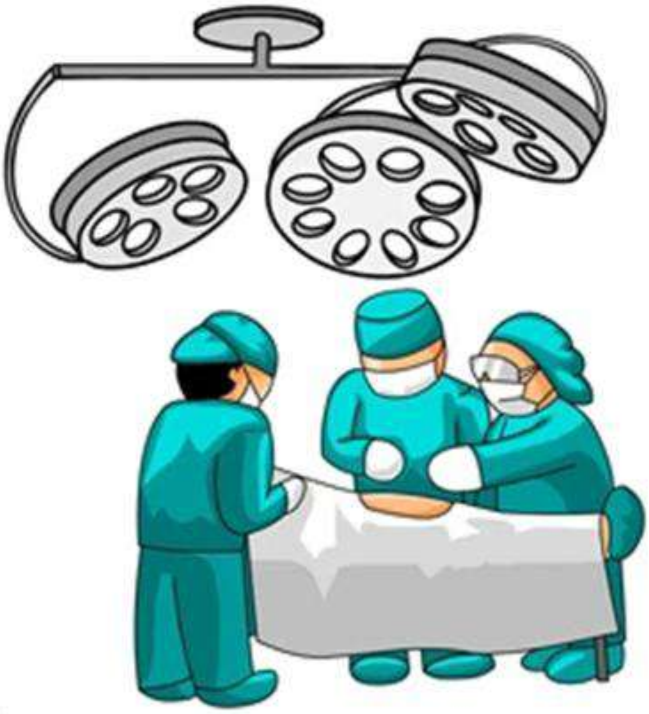

أما على الجبهات الحديثة للمعركة، يبرز علاج جديد واعد و مبشّر .. يعتمد على مبدأ بسيط لكن خلّاق ، و هو **تعطيل إنزيم التيلوميراز**، ذاك الأنزيم اللعين الذي يمنح الخلايا السرطانية القدرة على التكاثر بلا حدود، و كأنها تحاول تحدي القدر نفسه . التيلوميراز هو المفتاح الخفي الذي يسمح للخلية السرطانية بتجاوز دورة الحياة الطبيعية، وبالتحايل على الموت ، ففي الوضع الطبيعي يتقاصر طول الصبغيات مع كل انقسام خلوي حتى يبلغ النقص منطقة حرجة من الصبغيات ضرورية لحياة الخلية و عندها ترفع راية الاستسلام و تودع المعركة فتموت ، و أنزيم تيلوميراز الموجود فقط في الخلايا السرطانية يمنع ذاك القصر في الصبغيات خلال

الانقسام فتستمر تنقسم بدون توقف . لذا عند تعطيله، تعود الخلية السرطانية إلى الوضع الطبيعي فتقصر صبغياتها تدريجياً مع كل انقسام حتى تموت .. و منه فإن العلاج الواعد لمرض السرطان يتمحور حول إمكانية تعطيل هذا الإنزيم في الخلايا السرطانية .

في كل العلاجات السابقة ، يتجلى سحر الطب الحديث : الدمج بين القوة والعقل، بين القسوة والرحمة، بين العلم والفلسفة. كل علاج هو رسالة، وكل خلية تموت أو تُشفى هي فصل من قصة أكبر، قصة الإنسان الذي يحاول أن يستعيد توازنه أمام قوى الطبيعة الخفية.
الجراحة ، الكيمياء، الإشعاع، المناعة المستحثة، العلاج الجزيئي، وتعطيل التيلوميراز، كلها أدوات في يد البشرية لفهم الوجود، لإعادة النظام إلى الجسد،

وللتأمل في هشاشة كل كائن حي أمام قوى الكون الخفية.

خامساً ، السرطان من وجهة نظر فلسفية ..

في معركة الجسد، حيث تتناغم الأعضاء كجيوش صغيرة تحرس مملكة الحياة، يطل السرطان كعدو خفي، غامض، كأنه **حصان طروادة** متسلل بين صفوف الحماية. لا يأتي هذا العدو مع بوق الحرب، ولا مع أعلام معلقة على الأسوار؛ إنه هادئ، صامت، يختبئ وراء الانسجام اليومي للجسم، حتى يصل إلى قلب النظام، ويبدأ نسج فوضاه من الداخل. كمثل حصان طروادة الأسطوري، يترك للجسد شعورًا بالأمان، ثم يفتح الأبواب الموصدة داخل الخلية، ويحرر القوة المتمردة التي تكسر التوازن القديم.

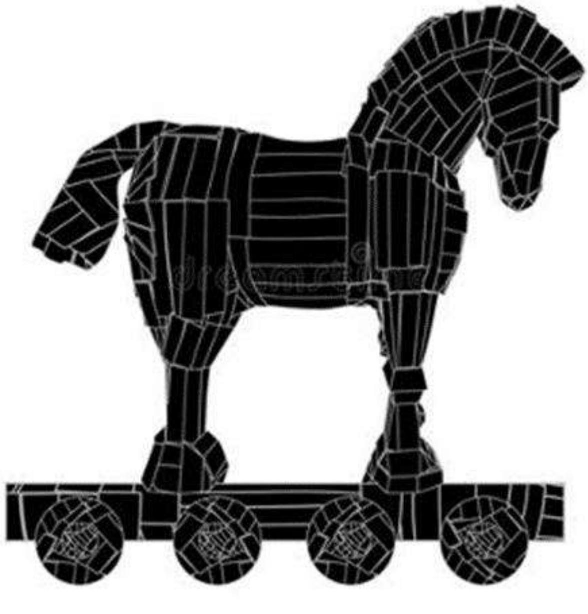

في البداية، يبدو السرطان كهمس بعيد، كما لو أن الجسد

يخبرنا أن شيئًا ما ليس في محله و غالبا ما نتجاهل النداء التحذيري . الخلايا الصغيرة التي اعتدنا على رؤيتها تعمل في تناغم، فجأة تبدأ بعض منها في التمرد، في التجمع، في بناء حصون صغيرة داخل الأنسجة. و هنا، يعلن السرطان عن نفسه، لكنه يفعل ذلك بطريقة فنية، كما يفعل القائد العسكري الذي يعرف كيف يخترق دفاعات العدو دون ضوضاء. كل خلية متمردة، كل نسق متحول، هو جندي في جيش الظل، يقود حملة صامتة على مملكة الجسد، وفي نفس الوقت يختبر قلب الإنسان : هل سيستسلم ؟ أم سيدافع ؟

وفي هذا الغزو، يظهر درس الإنسان الأول : **الصبر**. فالصبر ليس مجرد انتظار سلبي، بل هو اليقظة في خضم المعركة، هو القدرة على رؤية الضوء في نهاية النفق رغم سواد عتمته ، و كيف تتعلم الروح كيفية التعايش مع القلق والخوف، دون أن تفقد قوتها.

إنّ السرطان لا يقتصر على كونه عدوًا، بل يصبح معلمًا. يعلم الإنسان أن **الأمل** ليس مجرد فكرة، بل شعاع يُضاء في أعماق الروح، حتى في أصعب اللحظات. كل دورة علاج، كل خلية تُستهدف وتُحطم، تحمل معها رسالة : أن الفوضى يمكن مواجهتها، وأن النظام يمكن استعادته، وأن الحياة، مهما علت فيها الفوضى، تمتلك قوة داخلية لتعيد ترتيب نفسها. وكأن

السماء نفسها تهمس للإنسان بأن المعجزات ممكنة، وأن كل تحدٍ هو فرصة لاكتشاف القوة الكامنة في قلبه.

السرطان أيضًا يعلم الإنسان عظمة **الامتثال والتواضع أمام معجزات السماء**. فحين تتعطل الخلايا و تتمرد، لا يمكن للعلم وحده أن يحل كل الأزمات؛ هناك لحظات تحتاج فيها الروح إلى الإيمان، إلى الاعتراف بأن قوة أكبر من إدراك الإنسان تدير نسق الحياة، وأن كل انتصار صغير هو جزء من حكمة أكبر، غامضة وجميلة في آن واحد. في كل خلية تعود إلى النظام، في كل لحظة استشفاء، هناك معجزة صغيرة، تذكرنا بأن الحياة لا تزال تسير، وأن الكون ينسق توازنه بدقة متناهية .. و كم من مريض سرطان شفي بطريقة غير مفسرة أو منطقية عندما أقسمت الأرقام أنه هالك لا محالة !!

كما في الحروب الكبرى، هناك دروس في **التحالفات، في القوة المتضافرة بين العلم والطبيب والمريض**، بين العلاج والصبر، بين الجسم والروح. تمامًا كما يحتاج الحصن لمقاتلين متعاونين لمواجهة الغزو، يحتاج الإنسان إلى **الانسجام بين جسده وروحه وعقله وقلبه** ليقاوم السرطان. كل دورة علاج، وكل تجربة، تحمل معها درسًا عن وحدة الكينونة، عن التآزر بين الجسد والروح، عن أن مجابهة الغزو ليست مهمة فردية فقط، بل رحلة مشتركة مع الحياة نفسها.

سادساً ، حقائق غريبة عن السرطان ..

❁ يمكن أن يصيب السرطان أي جزء من الجسم تقريبًا، حتى العين أو القلب وإن كان ذلك نادراً جداً

❁ بعض السرطانات تنمو ببطء شديد لدرجة أن الشخص قد يموت من سبب آخر قبل أن يلاحظ وجودها.

❁ الحيوانات قد تُصاب بالسرطان أيضًا، مثل الكلاب والقطط، وحتى بعض الأسماك.

❁ يوجد نوع نادر من السرطان يمكن أن ينتقل بين الكلاب **عن طريق التزاوج**.

❁ بعض الأورام قد تنمو لتكوّن أسنانًا أو شعرًا، مثل أورام المبيض **تيراتوما**.

❁ يُعتبر التدخين مسؤولًا تقريباً عن ثلث جميع حالات السرطان عالميًا.

❁ بعض الفيروسات يمكن أن تسبب السرطان، مثل **فيروس الورم الحليمي البشري (HPV)** المسبب **لسرطان عنق الرحم**.

❁ جهاز المناعة لدينا ينجح في القضاء على خلايا سرطانية يوميًا قبل أن تتطور إلى مرض ظاهر.. لكن توجد خلايا سرطانية تنتج بروتينات تخدع جهاز المناعة وتجعله لا يهاجمها.

❁ الخلايا السرطانية تستطيع إقناع الأوعية الدموية بتغذيتها بعملية تسمى تكوّن الأوعية الجديدة

❁ بعض الأورام يمكن أن تبقى خاملة في حالة سبات لعشرات السنين ثم تنشط فجأة.

❁ هناك مرض نادر يُسمى **الورم الميلانيني الشرعي المنقول من زرع الأعضاء**، ينتقل من المتبرع إلى المستقبل.

❁ العلاج الكيميائي صُمم أول مرة استنادًا إلى غازات سامة استُخدمت في الحرب العالمية الثانية.

❁ بعض الخلايا السرطانية تستطيع التحرك عكس اتجاه تيار الدم، وهو أمر غير معتاد في الخلايا الطبيعية

❁ في **قرية لوجانوس بالإكوادور** يعيش أشخاص

قصيرو القامة بسبب مرض وراثي نادر (**متلازمة لارون**)، وهؤلاء لديهم مناعة شبه كاملة ضد السرطان بفضل طفرة جينية تثبط مستقبلات هرمون النمو.

❁ بعض الأورام قد تفرز هرمونات غريبة تجعل المريض يعاني أعراض تشبه أمراضًا أخرى (مثلاً : ورم رئوي يُسبب أعراض تشبه مرض كوشينغ في غدة الكظر).

❁ في حالات نادرة، اكتشف الأطباء سرطان داخل جنين لم يولد بعد و سمّي التيراتوما الجنينية

❁ بعض السرطانات يمكن أن تنكمش أو تختفي دون علاج فيما يعرف بالتراجع العفوي ..

❁ في **أستراليا**، قد تصاب **حيوانات الشياطين التسمانية** بسرطان معدٍ ينتقل عبر العض.

❁ بعض الأورام تنمو بسرعة مذهلة : يمكن أن يتضاعف حجمها خلال أيام قليلة فقط.

❁ يوجد نوع نادر من سرطان العظام يمكن أن يسبب إنتاج مادة تشبه **الأدرينالين** تجعل المريض في حالة نشاط مفرط.

❁ بعض الأورام تفرز بروتينات تسبب رائحة مميزة للجسم، بحيث يمكن للكلاب المدربة اكتشافها مبكرًا.

❁ هناك تجارب على استخدام بكتيريا معدلة وراثيًا

لمهاجمة الخلايا السرطانية من الداخل.

❁ الورم السليم لا يعني أنه غير مؤذٍ ، فقد يسبب أعراضاً انضغاطية بسبب حجمه الكبير ، أو يفرز هرمونات معينة تتلاعب بتوازن الجسم و وظائف الأعضاء ..

❁ أورام الكبد أحيانًا تسبب الإصابة بمرض السكري الثانوي بسبب إفرازها مواد تغيّر استجابة الجسم للأنسولين.

❁ في الصين القديمة، اكتُشفت آثار جراحة لإزالة أورام في هياكل عظمية تعود لآلاف السنين.

❁ العلماء يدرسون إمكانية أن يكون لدى بعض الأشخاص بكتيريا معوية خاصة تساعد في منع نمو الأورام.

❁ أشيع ورم هو سرطان الجلد و بين الذكور سرطان الرئة و بين الإناث سرطان الثدي ، أما أندر ورم فهو ورم الغدة الصنوبرية في الدماغ ..

❁ هناك محاولات لإنتاج لقاح عالمي ضد السرطان يعتمد على تدريب جهاز المناعة لمهاجمة بروتينات مشتركة في أغلب الأورام و هذا حلم واعد للبشرية ننتظر تحقيقه بفارغ الصبر ..

****

في ختام مقاربتنا لمغالطتنا الجديدة (**تيلوميراز**) ، من الأنسب ألا نقول بعد الآن :

= لقد أصبت بالسرطان .. إنها النهاية ..

بل أن نقول :

= و إن مرضت فهو يشفيني .. و الله منحنا سبل العلاج المادية بوسائل متنوعة بعضها أثبت نجاعته و بعضها الآخر واعد بقوة .. كما منحنا سبل العلاج المعنوي أيضاً بالصبر و الأمل و الإيمان أن زمن المعجزات لن يولي ما دام هنالك إله في السماء ..

السرطان في جوهره ليس غريبًا عن الحياة؛ فقد وُجدت دلائل على أورام سرطانية في عظام ديناصورات عمرها أكثر من **70** مليون سنة .. هذا يعني أن المرض قديم قِدم الحياة نفسها، و رافق الكائنات منذ فجر الخليقة.

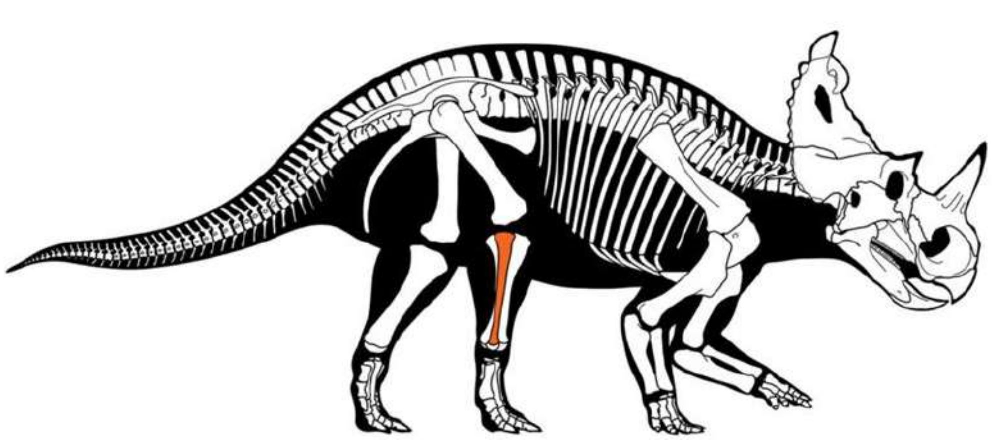

فلسفيًا، يشبه السرطان ظلًّا أزليًا يمشي إلى جوار الكائن

الحي، ليذكّره بأن الخلود وهم، وأن الفناء جزء من المعادلة الكونية .. إنه شاهد على أن الطبيعة لا تعرف الكمال، بل تحتضن دائمًا احتمالية الانحراف والتمرد.

ومن هذا الوعي يولد الدرس الأكبر: **أن قيمة الحياة ليست في طولها، بل في نوعيتها .. في عمقها و صبرها و إصرارها على بلوغ النور.**

الإرهاب

(القوّة كقناع للخوف)

الإمارات العربية المتحدة ..

دبي ..

جزيرة النخلة ..

كان الليل ممددًا على المدينة كجسدٍ نائم، لا يقطعه سوى وميض شاشة تلفاز أمام وجه **ديميتري** الجامد. لم يكن يولي انتباهًا لأي شيء... حتى انقطع البث فجأة، وعاد بصورة باهتة يظهر فيها مذيع باكستاني يتلعثم :

((شفرة جديدة... تهديد على الهواء... المنظمة تتحدّى العالم... من يفك الشفرة و يقي العالم من عملية ارهابية جديدة))

لم يسمع ديميتري ما تبقى .. كل حواسه انتفضت .. تمدّد داخله ذاك الصمت الثقيل الذي يسبق العاصفة، ثم اندفع كبرقٍ أصمّ نحو هاتفه، يبحث... ينبش... يعثر .. هناك كانت الشفرة.

قرأها بعينيه أولاً .. ثم بعقله .. ثم بحدسه.

ثوانٍ فقط... وتدفّق في رأسه جدولٌ من المعاني، تكوّنت كالنيزك داخل جمجمته، و من ثم احترقت عند

اكتمال الفهم.

شهق .. حدّق من زجاج النافذة ..

((برج خليفة ؟!.. يا الله... إنهم على وشك إشعال القيامة !))

نظر إلى ساعته...

الثالثة إلا خمسًا.

أمامه خمس دقائق فقط. لا وقت للشرح .. لا وقت للبحث عن نافذة رسمية أو إرسال تقارير أو اتصالات عبثية .. كانت الساعة تخونه، وكانت الأرواح المعلّقة في السماء تنتظر إشارة.

كان عليه أن يعود إلى ذلك العالم الذي تخلى عنه ، حين كان هاكرا يخترق جدران البنوك و الحسابات كما يخترق السهم الضباب.

جلس أمام الحاسوب... لم يشعر بنفسه، كانت أصابعه تتحرك وحدها، كأن روحًا أخرى تولّت زمام القيادة .. مرّت دقيقة... ثم دقيقتان... ثم انفتح الحصن الرقمي أخيرًا.

وزارة الدفاع الإماراتية .. قلب الحدث .. آخر فرصة.

نشر الشفرة المذكورة مع ترجمتها كتحذير عاجل لهم :

(على الساعة الثالثة ظهرا من تاريخ 7-6- 2029 م ستخرج صواريخنا من مدينة كراتشي متوجهة إلى مدينة دبي و ستسقط برج خليفة ركاماً إلى الأرض، هذا عقاب المرتدين الذين خالفوا روح الشرق و تعاليمه و تشبهوا بحضارة الغرب الزائفة، و بدءاً من اليوم ستصبح جميع الأماكن المشابهة هدفا لعملياتنا القادمة)

وقف ديميتري في توتر .. ثم تمتم :

(الآن... الكرة في ملعبهم) .

رفع عينيه نحو السماء.

في الخارج... كانت دبي نائمة.

وفي الداخل... كانت الثواني تنزف.

في تلك الأثناء و على قمة جبل شاهق من سلسلة جبال كيرثار في كراتشي، وقف رجل ملثم كظلال الليل، يرفع يده التي تحمل جهاز التحكم كيد شيطان مغمسة بالدماء . بصوتٍ خافتٍ محاطٍ بخشوعٍ غامض، تلا آية من القرآن الكريم، كأنما يستحضر قوةً أسمى تبارك فعلته المشؤومة. ثم، بلمسةٍ واحدة، ضغط على زر صغير في الجهاز.

و من ثمّ ، انطلقت عشرة صواريخ عابرة للقارات من مخابئها السرية الموزعة بعناية في الجبال المحيطة، تصاعدت بسرعة هائلة، تخترق السماء كسهام غضب تتجه صوب دبي. الهواء مفعم برهبة اللحظة، وكأن الأرض تحبس أنفاسها في انتظار المصير.

في دبي، تسارعت دقات القلوب واشتد التوتر، فقد وصلت الرسالة واضحة إلى وزارة الدفاع .. و على الفور، أُصدرت الأوامر لأجهزة الرادار بأن تظل يقظة على مدار الساعة، وللقوات الصاروخية المضادة بالتحضير الكامل للإطلاق التلقائي.

الصواريخ انطلقت بسرعة هائلة تقارب سبعة كيلومترات في الثانية، والوقت يمضي كالسهم؛ ثلاث

دقائق فقط تفصل بين الخطر والكارثة.

حينما دخلت الصواريخ المجال الجوي الإماراتي، كانت قوات الدفاع لا تزال في حالة استعداد متأخر، لكن قبل أن تلامس أهدافها، انطلقت صواريخ الاعتراض في السماء، تتعقب بدقة قاتلة كل واحد من الصواريخ المهاجمة.

تفجرت الصواريخ تلو الأخرى في مشهد يحبس الأنفاس ، تطايرت شظاياها كأمطار من نار في ليل دبي المتوتر ، متساقطة على رمال الصحراء كأشلاء قاتمة.

كانت كاميرات البث المباشر تنقل الحدث بدقة، لتكون شهادة حية على بطولات الدفاع ونجاحها في التصدي لهذا التهديد الإرهابي.

هناك في الفيلا ، كان ديميتري يقطع الأرض ذهابًا

وإيابًا، وجهه محمر من التوتر والقلق، عرقه يتصبب وكأنه يخوض معركة حياته. ولكن حينما انطفأ آخر صاروخ في السماء، خمدت النيران في صدره، وسقط على كرسيه متنفّسًا الصعداء.

همس في نفسه بامتنان عميق:

(الحمد لله الذي حفظ دبي أجمل شقيقاتها الستة و إحدى أجمل مدن العالم من آثار و آثام الإرهاب..)

*****

باكستان ..

كراتشي ..

كانت سيارة محسن تشق الطريق عائدة إلى المنزل خلف رتل سيارات الأمن المحملة بالإرهابيين فيما يدور حوار ساخن بينه و بين سبيروزار..

= ألن تخبرني سيد جان كيف استطعت إفقاد الرجلين وعيهما عن بعد ؟ و كيف جعلتهما يستردان وعيهما من جديد ؟

فكر سبيروزار قليلا ، إن عليه أن يبقي سره بأنه الطبيب مورفين ، و بنفس الوقت لا مفرّ من الإجابة ، لذا سرعان ما ابتدع تفسيراً آخر قابلاً للتصديق ..

= سأخبرك ، لكن هذا يبقى سر بيننا و يجب ألا يعرف به أحد اتفقنا ..؟

= بالطبع !

= إنـها تقنية تنويم مغناطيسي حديثة قيد التطوير، و قد خضعت في الولايات المتحدة الأمريكية لجلسات تدريب مطولة عليها، لكنها تقنية سرية و يجب أن تبقى كذلك

= حسنا، كما تريد، إنـها تقنية فعالة و خطيرة للغاية على كل حال كما رأيت بأم عيني !! ..

وصلت السيارة إلى منزل الشيخ مجددا ، و كان الجميع ينتظرهما بفارغ الصبر ..

= أهلا بالأبطال ..

= أهلا حضرة الشيخ ..

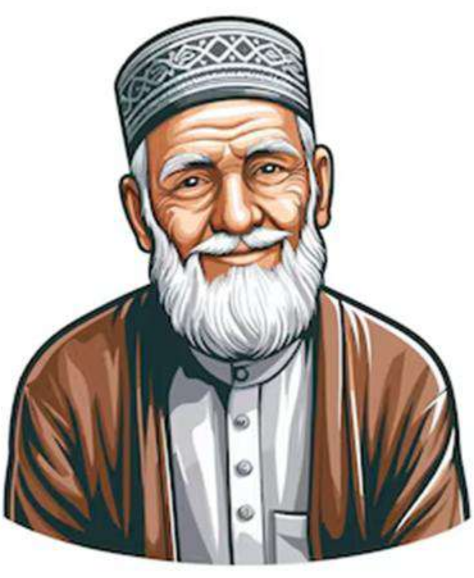

= لقد كان وجهك خيرا علينا في أولها و في آخرها

كذلك حضرة الطبيب جان، أنت رهيب بالفعل ، في يومين أوقعت بمنظمة تبحث البلاد كلها عنها منذ سنوات ..

ابتسم سبيروزار و هو يفكر بينه و بين نفسه، إن القبطان باروناج هو الرهيب و هو الذي أسقط للمرة الثانية على التوالي إحدى المنظمات الخطيرة بفضل تحليله العلمي و المنطقي للأحداث و الدلائل، إنه الجندي المجهول في الحكاية كلها ..

= إن لي الشرف أن أخدم شعبا طيبا كشعبكم الباكستاني و أحميه من الإرهاب حضرة الشيخ ..

= لقد كانت المنظمة تخطط لضرب برج خليفة في دبي منذ دقائق، لكن أحد الهاكرز فك الشفرة في اللحظات الأخيرة و نبه وزارة الدفاع التي أنقذت الموقف ..

= مذهل، من هو هذا الهاكر المحترف و النبيل ..؟!

= لا أحد يعرف هويته بعد ..

= و كيف حصلت المنظمة على صواريخ عابرة للقارات ؟

= غالبا من السوق السوداء، و وصلت إليهم على الأرجح عبر ميناء كراتشي من خلال رشوة بعض الموظفين الفاسدين هنالك ، فهذا يحدث أحيانا ..

= و بربط الأمور ببعضها، فقد تم نقل الصواريخ

باستخدام عربات خاصة في اليوم الذي شاهدهم فيه الراعي فقتلوه إثر ذلك، ثم عثرت الشرطة على آثار عجلات السيارات هنالك و التي انتهت عند سفوح جبال كيرثار حيث تم نقل الصواريخ يدويا بعد ذلك عبر الجبال ..

ابتسم الشيخ بإعجاب

= بالضبط، تحليل دقيق و ذكي للغاية ..

= إذا فقد كان ذاك الراعي شهيدا مجهولا، إذ فدى بحياته حياة آلاف من البشر الآخرين ..

= تماما، و سأطالب السلطات بوضع نصب تذكاري له في ذاك الوادي عند سفح الجبل كتخليد له ..

= هذه بادرة لطيفة للغاية و معبرة جدا، و هل تتوقع استمرار المنظمة بعد اليوم ؟

= على الأرجح لا، فبفضلك تم قطع رأس الأفعى اليوم و ستتفكك المنظمة نتيجة لذلك ..

= أرجو ذلك، و فاطر ؟

= سينال فاطر العقاب المناسب له، لقد خرج من دائرة عائلتي منذ سنوات عديدة، منذ قتل أخاه يوسف، و هو بالنسبة لي كالغريب الآن و سأطالب السلطات بإنزال أشد العقوبات عليه ..

حين حلّ المساء، ارتسم على الأفق لون خافت من الحزن تسلل إلى حنايا منزل الشيخ كريم، كان وداع سبيروزار و العائلة لحظة تتسرب فيها الدموع بصمتٍ ثقيل. لم يعرفوا بعضهم سوى يومين، صحيح ، لكن تلك الأيام كانت كأنها سنوات حُفرت في القلب بحروف من ذهب و عمدت بأحداث عظيمة أنهت ليل الارهاب لتشرق شمس الأمان و السلام ..

في نظراتهم، وفي صمتهم، كان ثقل الوداع يختلط بعمق الارتباط الذي لم يكن متوقعًا، كأنما كانت أرواحهم تودع بعضها بعضاً، وتتبادل عهودًا صامتة باللقاء من جديد، وسط همسات الريح التي لامست وجوههم بذكريات لن تنسى.

= ألا تبقى بضيافتنا لعدة أيام أخرى ..

= أتمنى ذلك بالفعل سيدي ، لكن علي الرحيل لارتباطي بأعمال هامة .. نلتقي في مناسبة أخرى بإذن الله ..

= بإذن الله رافقتك السلامة ..

أدار سبيروزار (د. مورفين) ظهره و غادر و الدموع في عينيه ..

****

(الإرهاب ليس قوة ، بل هو قناع للخوف ، إنه محاولة يائسة لفرض الصمت على صوت العقل ، لكنه لا يولّد سوى مزيدٍ من الفوضى و العدم)

X

في قصتنا السابقة حاول بعض الإرهابيين من باكستان ، الذين انسلخوا عن طبيعة الشعب الباكستاني الرحيمة و الطيبة ، أن يدمروا برج خليفة في الإمارات ، بحجة أنه عمران غربي فاجر و بعيد عن الله .. و هذا ليس بغريب ، فحجج الإرهابيين – أياً كان نوع الإرهاب **ديني ، عسكري أو جريمة** – دائماً ما تكون واهية و واهمة و تنم عن عدم اتزان نفسي / عقلي لدى الإرهابي

و نظراً لهول تأثير الإرهاب السلبي المدمر على الشعوب و الدول بل الكوكب برمته ، كان لا بد له من أن يحل ضيفاً ثقيلاً على كوخ مغالطاتنا النائي في غابات المعرفة المسحورة .. كي نحلله ، نفهم جذوره ، فنعرف كيف نجفف مصادره و نواجهه ..

لذا هيا بنا عزيزي القارئ ، متسلحين بالعقل و القلب الروح ، نقارب مفهوم الإرهاب الذي لا يمت للعقل أو القلب أو الروح بصلة .. فنشرحه بمشرط فيزاليوس الشهير كي نخرج إلى النور أحشاءه المظلمة حيث تقبع

الأفكار السوداوية التي تسعى لتدمير الذات و الآخرين كونها عاجزة عن الحياة و تقديم المنفعة للبشرية فتنتقم منها بمحاولة تدمير إنجازاتها بالإرهاب ...

و سنحاول إنجاز ذلك عبر تحليل النقاط التالية :

(1) أنواع الإرهاب ..
(2) التحليل النفسي للإرهابي ..
(3) الإرهاب جريمة بحث الله ..
(4) كيف نجفف مصادر الإرهاب ..

لننطلق ..

أولاً ، أنواع الإرهاب :

الإرهاب ليس مجرد رصاصة تُطلق في ليلٍ دامس، ولا قنبلة تُفجر جسداً بريئاً؛ إنه ظاهرة أعمق، كائن يتغذّى من ظلمات النفس قبل أن يتجسّد في أفعال البشر. هو مرآة معكوسة للخوف البشري، ورغبة مرضيّة في السيطرة، وغريزة للانتقام تتحوّل إلى وحشٍ يعيث خراباً في الأرض. وللإرهاب وجوهٌ شتى، غير أن أبرزها ثلاثة : **الإرهاب الأيديولوجي، والإرهاب العسكري، وإرهاب الجريمة**.

الإرهاب الإيديولوجي يولد من رحم الفكرة حين تُقدّس حتى تتحوّل إلى سيفٍ مُسلّط على رقاب الآخرين. هو محاولة لفرض العقيدة على من يرفضها، أو للانتقام

ممن يجرؤ على مخالفتها. في هذا النوع، لا يكتفي المجرم بإقناع الآخرين بما يؤمن به، بل يراهم أعداءً لمجرد اختلافهم. فيتحول الدين إلى أداة قمع بدل أن يكون طاقة خلاص، وتتحول العقيدة إلى سوطٍ بدل أن تكون نورًا يهدي العقول.

إنه إرهاب لا يقتل الجسد وحده، بل يحاول أن يشنق الروح الحرة، أن يطفئ شعلة التساؤل، أن يحوّل التنوع إلى لعنة لا إلى نعمة. وهو أخطر الأنواع لأنه يلبس قناع القداسة، ويغطي العنف بوشاح الإيمان الزائف.

على جبهة أخرى، يقف **الإرهاب العسكري**، وهو الوجه الأكثر صخبًا ودمارًا. هنا لا يدّعي المجرم أنه يحمي عقيدة، بل يعلن جهارًا أنه يسعى إلى السيطرة :
السيطرة على أرض، أو على ثروات، أو على مسار التاريخ نفسه.

هذا الإرهاب يزحف بالدبابات، ويقصف بالمدافع، ويهدم البيوت على رؤوس ساكنيها. إنه لا يعرف لغة سوى لغة الحديد والنار. وإذا كان الإرهاب الأيديولوجي يطمس حرية الروح، فإن الإرهاب العسكري يطمس وجود الجسد ذاته، يمحو المدن من الخرائط، ويحوّل حياة الشعوب إلى رماد.

إنه إرهاب يتغذى على الأطماع الإمبراطورية، وعلى جشع لا يرتوي، فيصبح الغزو غاية، والتدمير وسيلة، والاستعباد نتيجة متوقعة .. و هذا ما انتهجته امبراطوريات التاريخ قاطبة في توسع رقعتها و بسط سيطرتها ..

أما الوجه الثالث، فهو **إرهاب الجريمة**، الوجه الذي يختبئ في الأزقة المعتمة وبين أزقة المدن المزدحمة. إنه إرهاب لا يرفع راية عقيدة ولا شعار وطن، بل يرفع راية الربح السريع والسيطرة على قلوب الناس بالخوف .. أو يقبع في ظله خلل نفسي عميق أو اضطراب عقلي خطير ..

تقوم عصاباته بنشر الرعب عبر جرائم منظمة : خطف، قتل، ابتزاز، اتجار بالمخدرات والبشر. هنا يصبح الخوف سلعة، والرعب وسيلة للتربح. وفي كل مرة يُقتل فيها بريء أو تُرتكب جريمة مدوية، يترسخ في المجتمع شعور بالعجز واليأس .. و ربما كان الإرهاب هنا لا لغاية إلا غاية الترويع بسبب اضطراب النفس أو العقل كما ذكرنا ..

هذا الإرهاب خفيّ لكنه متجذر، ينهش النسيج الاجتماعي من الداخل، حتى يغدو الناس غرباء في مدنهم، أسرى لظلّ الرعب الذي يسكن الأزقة.

هكذا نرى أن الإرهاب ليس وجهًا واحدًا، بل هو قناع يتبدّل ليتوافق مع رغبات أصحابه : مرة باسم العقيدة، مرة باسم السيطرة، ومرة باسم المال أو بسبب خلل نفسي عميق . لكنه في جوهره يظل واحدًا : محاولة لاغتيال إنسانية الإنسان.

وإن كان يختلف في وسائله، فإنه يتشابه في غايته : زرع الخوف حيث ينبغي أن يزهر الأمان، وبث الموت حيث يجب أن يسكن الحب.

ثانيًا ، **التحليل النفسي للإرهابي** :

الإرهاب ليس صدفة عابرة في مسار التاريخ، بل هو كيان يولد من رحم العقول المظلمة والقلوب التي غلبها الخوف أو الطمع أو الوهم. إنه ليس مجرد رصاصة في يد عابث، ولا مجرد قنبلة تنفجر في شارع مكتظ؛ بل هو فكرة، ودافع، وصوت داخلي مريض يحاول أن يبرر للإنسان أبشع أفعاله. وما لم نفكك هذه الدوافع ونفهمها في عمقها، سيبقى الإرهاب يتجدد في كل جيل، ويأخذ أشكالًا مختلفة، لكنه يحمل دومًا الجوهر نفسه : قتل إنسانية الإنسان.

ومن بين الوجوه المتعددة للإرهاب، تبرز ثلاثة هي الأشد رسوخًا كما قلنا منذ قليل : الإرهاب العقائدي، والإرهاب العسكري، وإرهاب الجريمة. ولكل منها دافع مختلف، لكنه يلتقي مع غيره في النتيجة : **الخراب**.

منبع الإرهاب العقائدي هو الفهم المشوّه للدين. حين يُختزل الدين في نص جامد، أو شعارات جوفاء، وتُغفل روحه الحقيقية القائمة على الرحمة والعدل، يصبح أداة قمع بدل أن يكون سبيل خلاص.

هؤلاء الذين يعجزون عن إقناع الآخرين بالحجة والبرهان، يجدون أنفسهم في مواجهة مع عقول لا تخضع بسهولة، فيلجؤون إلى القوة كوسيلة بديلة.
وكأنهم يقولون : (**إن لم تؤمن بفكرتي، سأرغمك عليها بالقوة.**)

هذا يتناقض تمامًا مع النصوص القرآنية التي تؤكد حرية الاختيار : (**لا إكراه في الدين**). ويتعارض مع وصايا الأنبياء الذين جعلوا الكلمة الطيبة والحوار الهادئ أساس الدعوة.

الإرهاب العقائدي إذن ليس ثمرة إيمان، بل ثمرة شكّ وضعف. إنه دليل على هشاشة الفكرة، لا على قوتها.
ولو كان صاحبها واثقًا من نورها، لما احتاج إلى تفجير

ولا إلى دماء. إنه باختصار صرخة العاجز، الذي يستر ضعفه بستار القداسة.

على الجانب الآخر، نجد الإرهاب العسكري، الذي يولد من رحم الطمع والحقد. هنا لا يختفي الدافع وراء لافتة دينية، بل يُعلن بوضوح : السيطرة على أراضٍ، ونهب ثروات، أو الانتقام من ماضٍ لم يندمل.

قد يكون خلفه تاريخ طويل من النزاعات، أو حقد دفين على شعوب بعينها، أو حسابات سياسية ضيقة. لكنه في النهاية يقود إلى النتيجة ذاتها : **حروب لا تنتهي ، وخرائط تتغير بدماء الأبرياء.**

الإرهاب العسكري ليس مجرد غزو تقليدي، بل هو استراتيجية قائمة على نشر الرعب، ليُخضع الشعوب دون مقاومة. إنه حين تُستخدم الطائرات والصواريخ لا

للدفاع، بل لتدمير مدن آمنة. وحين يتحوّل الجندي من حامٍ للأرض إلى أداة إرهابٍ للشعوب.

وما يزيد خطورة هذا الوجه هو أنه يرتدي أحيانًا ثوب الشرعية الدولية، فيُمارس الإرهاب تحت لافتة (حماية الأمن) أو (نشر الديمقراطية) ، فيما الهدف الحقيقي ليس سوى النفط أو الأرض أو النفوذ. وهكذا يصبح الحقد السياسي والأطماع الاقتصادية مبررًا لإبادة أمم كاملة.

أما الوجه الثالث، فهو إرهاب الجريمة، وهو الوجه الأكثر خفاءً لكنه لا يقل بشاعة. هذا الإرهاب لا يرفع شعارًا عقائديًا ولا سياسيًا، بل يتحرك بدافع الجشع والخلل النفسي.

هناك من يبحث عن الثراء السريع، فيختار طريق الدم بدلاً من الكدّ المشروع. وهناك من يستعذب ترويع الناس، لأن داخله فراغًا نفسيًا أو خللاً عميقًا لا يشبعه سوى رؤية الآخرين يصرخون.

إنه الإرهاب الذي تمارسه العصابات المنظمة، من الاتجار بالبشر والمخدرات إلى عمليات الخطف والقتل والابتزاز. وهنا يصبح الخوف أداة اقتصادية : كلما زاد الرعب، زادت المكاسب.

لكن خلف هذا الوجه المادي يكمن جانب مظلم آخر:

نفس بشرية عليلة، لم تعرف التوازن، ولم تجد علاجًا لآلامها الداخلية، فحوّلت ضعفها إلى سلاح ضد الآخرين. إرهاب الجريمة إذن ليس جريمة فردية فقط، بل هو انعكاس لخلل اجتماعي يترك فراغًا يستغله المجرمون لبثّ الرعب.

الإرهاب إذن ليس مجرد فعل خارجي، بل هو نتيجة تراكم داخلي. قد يولد من فهم مشوه للدين، أو من طمع سياسي، أو من جشع نفسي، لكنه في النهاية يلتقي عند نقطة واحدة : **الرغبة في السيطرة عبر الخوف**.

إن الإرهابي، في أي وجهٍ كان، يظن نفسه قويًا، لكنه في الحقيقة ضعيف. لأنه لم يستطع أن يقنع بالعقل، ولم يصبر على الحق، ولم يجد في ذاته ما يكفيه.

والإرهاب، مهما تنوّعت دوافعه، سيظل شاهدًا على أن الظلام لا يبدّد الظلام، وأن الخوف لا يبني مستقبلًا، وأن العنف لا يخلّف سوى العدم.

ثالثًا ، الإرهاب جريمة بحقّ الله :

الإرهاب ليس فعلًا عابرًا من أفعال العنف البشري، بل هو في جوهره جريمة مزدوجة : جريمة بحق الإنسان، وجريمة بحق السماء. لأنه حين يقتل البريء أو يفرض العقيدة بالقوة، فإنه لا ينتهك فقط حقوق المخلوق، بل يعتدي أيضًا على الخالق الذي أراد لعباده الحرية والكرامة.

الإرهاب إذن ليس تمرّدًا على المجتمع وحده، بل هو خيانة لجوهر الرسالات السماوية التي نزلت رحمة للعالمين، ودعوة إلى الحوار بالكلمة الطيبة لا بالسيف الغادر.

القرآن الكريم، وهو أصفى مرآة لإرادة الله، أعلن بوضوح أن الإيمان لا يكون بالإكراه، بل بالاختيار الحر:

(لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ)

فمن يفرض عقيدته بالقوة، يناقض النص الصريح، ويزعم أنه أغير على الدين من الله نفسه.

وقال تعالى أيضاً :

(ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ)

هنا يضع الوحي قاعدة الدعوة: الحكمة، الموعظة الحسنة، والجدال الحسن. لا تفجير، ولا دماء، ولا ترهيب.

ويؤكد القرآن أن الرسالة السماوية أساسها الرحمة :

(وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ)

فكيف يمكن أن يُحوَّل رسول الرحمة إلى رمز يُستغل لتبرير العنف؟ أليس هذا تشويهًا للسماء نفسها؟

فنبي الرحمة، الذي كان مرجعه القرآن، بيّن أن الإيمان الحق لا يقاس بكثرة الشعائر، بل بسلامة العلاقة مع الناس. فقال :

(المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده)

وفي حديث آخر قال:

(إن الله رفيق يحب الرفق في الأمر كله)

فأي علاقة بين هذا الرفق الذي يحبه الله، وذلك العنف

الأعمى الذي يمارسه الإرهابيون؟

و كان يقول باستمرار :

(أفشوا السلام بينكم)

السلام هو شعار الإسلام الأول، بينما الإرهاب لا يعرف إلا العنف والدماء. فالإرهابي حين يقتل أو يروع، لا يقتل إنسانًا فقط، بل يذبح روح الإسلام ذاتها.

أما في الإنجيل، فقد جاء في عظة المسيح على الجبل :

(طوبى لصانعي السلام، لأنهم أبناء الله يُدعون)

فالإرهابي الذي يزرع الرعب ليس ابنًا لله، بل عدوًا للسلام.

وقال المسيح أيضًا :

(أحبوا أعداءكم، باركوا لاعنيكم، أحسنوا إلى مبغضيكم)

أي روح أسمى من هذه ؟ وأي خيانة أكبر من تحويل دين المحبة إلى ذريعة للكراهية ؟

أما في التوراة، فقد جاءت الوصية الشهيرة :

(لا تقتل)

إنها كلمة قصيرة، لكنها تحمل كل المعنى. فالقتل اعتداء على صورة الله في الإنسان كما نصّت التوراة نفسها :

(فخلق الله الإنسان على صورته، على صورة الله خلقه)

فمن يقتل إنسانًا بغير حق، كأنه يعلن حربًا على الله نفسه، لأنه يفسد ما خلقه على صورته.

إذا كانت هذه هي الوصايا الإلهية في الكتب المقدسة، فما الإرهاب إذن إلا جريمة بحق الذات الإلهية.

لأنه يدّعي الدفاع عن الله بوسائل تناقض إرادة الله. و لأنه يحوّل الدين من نهر رحمة إلى بحر دماء، ومن لغة محبة إلى صوت رصاص.

إن الإرهابي لا يجرح إنسانًا فقط، بل يجرح صورة الله في ذلك الإنسان. ولا يعتدي على حياة فرد فحسب، بل على رسالة السماء جمعاء. **إنه – فلسفيًا – أكبر أنواع التجديف** : حين يضع الإنسان نفسه وصيًا على الله، ويفرض باسمه ما لم يأذن به الله.

جميع الرسالات السماوية التقت عند نقطة واحدة : **حرية المعتقد، نبذ العنف، الدعوة إلى الحوار بالكلمة الطيبة**. و الإرهاب يعتدي على هذه القيم الثلاث مجتمعة، فيحوّل الحرية إلى قسر، والسلام إلى حرب، والكلمة إلى رصاصة.

ولذلك فإن الرد الحقيقي على الإرهاب ليس بالسلاح وحده، بل باستعادة صوت السماء، وإحياء الوصايا الإلهية في النفوس :

- لا إكراه في الدين ..
- طوبى لصانعي السلام ..
- لا تقتل ..

فحين يسود هذا الوعي، سيفقد الإرهاب معناه، لأنه لن يجد أحدًا يبرره، ولا أحدًا يرفعه راية.

رابعًا ، كيف نجفف مصادر الإرهاب :

الإرهاب ليس شجرة تنبت في فراغ، بل هو ثمرة مُرّة لشروط اجتماعية وفكرية واقتصادية ونفسية تتداخل حتى تُنتج إنسانًا مشوهًا يرى في العنف خلاصًا، وفي الدم وسيلة للتعبير عن ذاته. لذا فإن مواجهته لا تقتصر على السلاح أو الجدار الأمني، بل تبدأ من الجذور أو حتى البذور: من تصحيح الفهم، ومن بناء العدالة، ومن تهذيب الثقافة. لأن الإرهاب، في جوهره، مرضٌ حضاري، لا دواء له إلا بتجفيف المنابع التي تغذّيه.

أول منابع الإرهاب هو الفهم المبتور للدين، حين يُختزل الوحي في عبارات مشوهة أو اجتزاءات منحرفة. الدين في جوهره رحمة، وحرية، وكرامة للإنسان كما قلنا ، لكن حين يُفرغ من مقاصده العليا ويُستخدم كسوط، يتحوّل إلى وقود للعنف.

إن الردع يبدأ من هنا : إعادة الدين إلى نصاعته الأولى، حيث لا إكراه في العقيدة، وحيث الحوار مقدم على السيف، وحيث قبول الآخر جزء من الإيمان. فالفهم الصحيح يقطع الطريق على دعاة الإرهاب

العقائدي، الذين يستندون إلى نصوص محرّفة المعنى أو قراءات مبتورة.

حين يترسخ في العقول أن الإيمان لا يُفرض بالقوة، بل يُختار بالحرية، يصبح الإرهاب باسم الدين بلا جذر.
وحين يعلو صوت الأنبياء في وصاياهم : **السلام، الرحمة، العدل**، ينكسر كل من يرفع راية الدم متذرعًا بقداسة زائفة.

أما المنبع الثاني للإرهاب، فهو غياب العدالة في النظام الدولي، حيث تتحول قوة بعض الدول إلى ذريعة لممارسة الإرهاب العسكري تحت لافتات براقة : حماية الأمن، نشر الديمقراطية، أو حتى الدفاع عن حقوق الإنسان.

إن بناء مجتمع دولي متكاتف لا يعني مجرد وجود منظمات شكلية، بل يعني نظامًا عالميًا يردع النزوات الفردية للدول، ويضمن أن لا تتحول الأرض إلى ملعب للأقوياء.

فالظلم الدولي يولّد الحقد، والحقد يثمر عنفًا، والعنف يتغذى من عجز الشعوب عن استرداد حقوقها بطرق سلمية. وحين يغيب القانون العادل، يبرز قانون الغاب، ويتحوّل الإرهاب العسكري إلى وسيلة طبيعية لفرض النفوذ.

إذن الردع هنا يكون عبر إرساء ميزان دولي منصف : مؤسسات تحاسب الكبار قبل الصغار، قوانين تسري على الجميع بلا استثناء، وتعاون يضع مصلحة الإنسانية فوق مصالح الجغرافيا والسياسة. عندها فقط يفقد الإرهاب العسكري شرعيته، لأنه يواجه عالمًا متماسكًا يرفض منطق القوة العمياء.

غير أن الإرهاب لا يولد من فراغ سياسي أو ديني فقط، بل من فراغ في النفس والثقافة. كم من إنسان انجرف نحو الجريمة لأنه ظن أن الثراء السريع هو الطريق الوحيد للكرامة ؟ وكم من شاب انغمس في العنف لأن المجتمع لم يوفر له ثقافة عمل وصبر وإبداع ؟

إن الردع يبدأ من التربية : تربية تزرع في الفرد قيمة العمل المتدرج، لا الربح السريع، وتعلّمه أن الثروة ليست في الأموال وحدها بل في الرضا الداخلي والإنتاج النافع. حين يشبّ الإنسان وهو يرى أن العمل الجادّ طريق طبيعي للتقدّم، فلن ينخدع بوهم الثراء الدموي.

لكن هناك بُعدًا أعمق : البعد النفسي. كثير من الإرهابيين هم في الأصل مرضى نفسيون لم يجدوا من يسمع آلامهم. إن نشر ثقافة العلاج النفسي، وجعل الاعتراف بالاضطراب النفسي أمرًا عاديًا لا وصمة

فيه، هو أحد أهم وسائل الردع. فالعقل المريض إذا تُرك في الظلام، قد يتحول إلى سايكوباثي لا يرى في العالم سوى ساحة للدماء.

العلاج النفسي ليس رفاهية، بل هو خط الدفاع الأول ضد ولادة جيل جديد من المجرمين.

إن تجفيف منابع الإرهاب لا يعني فقط محاصرة نتائجه، بل يعني القضاء على أسبابه قبل أن تتحول إلى فعل. **فحين يفهم الإنسان دينه بصفاء، وحين يعيش في نظام عالمي عادل، وحين يتربى على ثقافة عمل وصحة نفسية**، عندها يختنق الإرهاب في المهد، ولا يجد من يغذيه.

الإرهاب في النهاية ليس قدراً محتومًا، بل عرضٌ لخلل حضاري يمكن تجاوزه. والسؤال الحقيقي ليس : كيف نواجه الإرهابي ؟ بل : كيف نمنع ولادته أصلًا ؟

الجواب إذن يكمن في بناء إنسان جديد : إنسان حرّ في عقيدته، عادل في نظامه، متوازن في نفسه، مبدع في عمله. وحين يظهر هذا الإنسان، سيذوب الإرهاب كما يذوب الليل أمام الفجر، لأنه لم يعد يجد أرضًا ينبت فيها، ولا ظلامًا يختبئ خلف ستاره.

لا تشبيه أدقّ للإرهابي إلا بوصفه كدراكولا الذي يعشق الدماء و ترويع البشر متخفياً تحت جنح الظلام كي لا

يرصد إرهابه أحد .. لكن عندما تسطع شمس الحريات الدينية ، و العدالة الدولية ، و التربية الثقافية و النفسية القويمة ، يتبخر دراكولا إلى اللاشيء ..

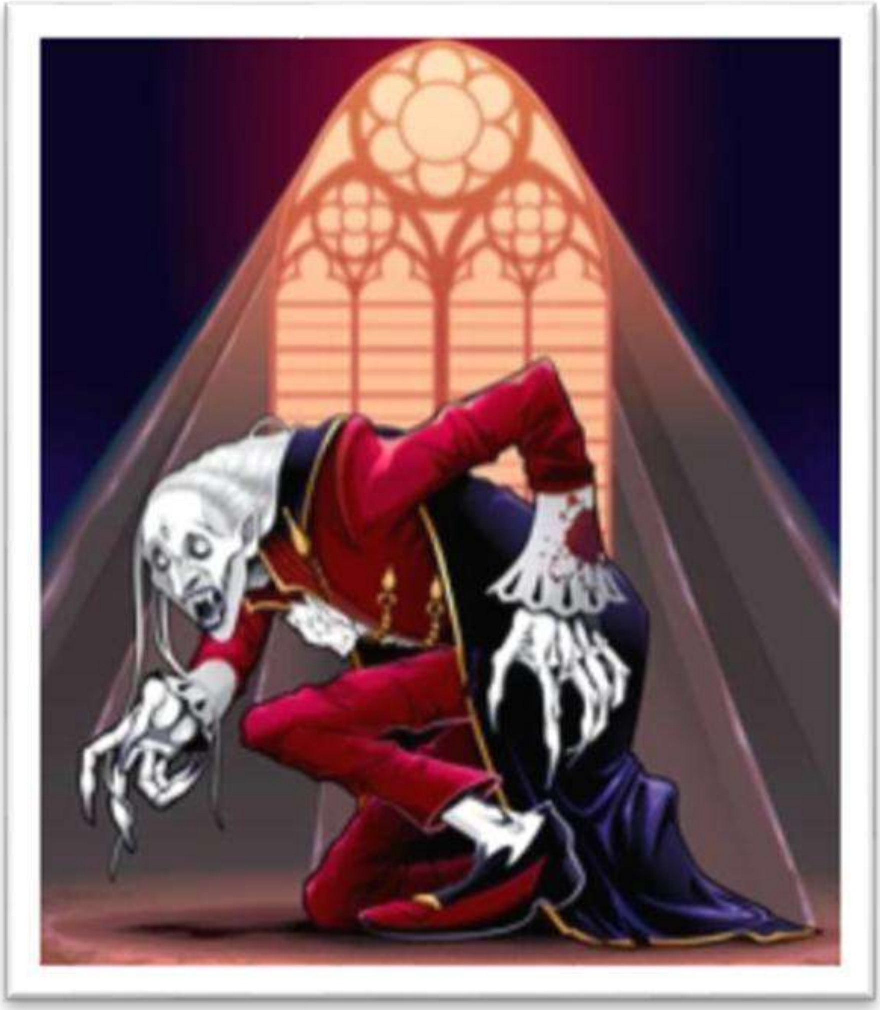

****

في ختام مقاربتنا لمغالطتنا الجديدة (**الإرهاب**) ، من الأنسب ألا نقول بعد الآن :

= الإرهاب له ما يبرره ..

بل أن نقول :

= الإرهاب لا دين له ، لا رادع أخلاقي يحلله ، و لا أعراف اجتماعية تباركه .. إنه مرفوض بالفطرة الإنسانية .. فلن تكون القوة و الدماء في أي يوم من الأيام طريقاً ينتهي بالخير .. وحده الحب و السلام و الثقافة و النضج النفسي من يفضي إلى الصالح العام ..

الإرهاب ليس مجرد فعل بشري، بل هو جرح في الروح الإنسانية واعتداء على السماء نفسها.

هو تشويه للرسالات السماوية، وتحويل نور الدين من رحمة إلى سوط، ومن كلمة طيبة إلى صدى رصاص.

هو ثمار الطمع السياسي، والحقد التاريخي، والفراغ النفسي، والجشع الفردي، وجميعها تغذي نيران الرعب.

كل فعل إرهابي يخون حرية المعتقد، ويهدم جسور الحوار، ويغتال صورة الله في الإنسان.

والرد الحقيقي يبدأ بالفهم الصحيح، والعدالة العالمية، والتربية الروحية والثقافية، والعلاج النفسي.

حين تسود الرحمة، ويعلو صوت العقل، ويزدهر العمل الصادق، يذوب الإرهاب في ظلال الوعي.

فالإرهاب مهما طال ليله، لا ينجو أمام فجر الإنسانية الذي ينبعث من قلب الحرية والسلام ..

بردّية فيزاليوس

(مشرط حجري)

= أنت بالفعل جراح ماهر يا صديقي .. لقد كانت عملية المرارة لزوجتي ناجحة بامتياز ..

= أشكرك ..

= كنت سأقول أنك أفضل جراح بالتاريخ .. لكن باعتبار أن الجراحة علم حديث فسأقول أنك أفضل جراح في العصر الحالي ..

= و من قال لك أن الجراحة حديثة العهد .. الجراحة موجودة منذ آلاف السنين ..

= لا يمكن لهذا أن يكون صحيحاً !!

= بل هو كذلك .. فقد اكتشف العلماء آثار تعود لقرون عدة خلت تصف إجراء الحضارات القديمة للعمليات الجراحية ..

= هل لي بمثال ؟

= بالطبع ، مثلاً **بردية إدوين سميث الفرعونية** التي

تعود لعام **1600** قبل الميلاد ، و هي وثيقة جراحية مصرية قديمة، تُظهر معرفة بتشخيص إصابات الرأس والعمود الفقري والكسور .. و تذكر أعراضاً مثل الشلل ، كما تفرّق بين الحالات القابلة للعلاج والتي لا أمل فيها .. و هذا يقارب منهج الطب الحديث المبني على الملاحظة السريرية.

= مذهل !!

= أجل ..

ضحك الصديق ..

= إذن يمكنني القول الآن بثقة أنك أفضل جراح في التاريخ يا صديقي ..

****

للطب في سلسلة مغالطاتنا نصيب كبير بحكم توجهي المهني كطبيب ، و قد سبق و قاربنا أربع مغالطات طبية من قبل ، و الآن سنضيف إليها مغالطة جديدة تتناول فكرة مغلوطة شائعة بين كثير من الناس ، أنّ الطب علم حديث لا يتجاوز عمره بضعة عقود ، و أنه كان في العصور القديمة مجرد علم بدائي معتمد بشكل أساسي على الخرافات و البدع ..

و هذا ما سنحاول تصويبه سوياً خلال الصفحات التالية ، حيث سنقارب بدقة أكثر هذه الفكرة الشائعة طمعاً في إجابات مرضية ، و ذلك بتحليل النقاط الثلاثة التالية :

① تاريخ الطب عبر العصور ..

② شواهد على تطور الطب في الماضي ..

③ آفاق الطب المستقبلية ..

فهيا بنا عزيزي القارئ نجري صورة بأشعة **X** للتاريخ الطبي كي تذوب قشرته الخارجية و يظهر جوهره جلياً

أولاً ، تاريخ تطور الطب عبر العصور :

منذ فجر الإنسان، حين كان يختبئ من زمجرة الوحوش في كهوفٍ غابرة، كان المرض رفيقًا خفيًا يزوره من حيث لا يدري. ارتعشت قلوب الأجداد أمام الحمى التي تحرق الجسد، وأمام الجروح التي لا تندمل، فمدّوا

أيديهم إلى الطبيعة : ورقٌ يُمضغ، جذور تُسحق، وأحجار تُضغط على الرأس لعل الألم يزول. في تلك العتمة الحجرية، كان الطب وليدًا، يرضع من صدر الغريزة والتجربة، يخطو خطواته الأولى بين الأعشاب والدخان وأهازيج السحرة.

ثم جاءت الحضارات الكبرى، فصار الطب علمًا إلى جانب كونه فنًّا. في وادي النيل، حيث يشقّ النهر طريقه بين الرمال، دوّن **المصريون** على البرديات أسرارهم : وصفاتٌ للعين، تعاويذ للحب، وتعليمات دقيقة لجراحاتٍ تمسّ العظام والدماغ. هناك، في بردية إدوين سميث، نشهد عقلًا يحلل كسور العمود الفقري ويصف علامات الشلل بوعي يكاد يلمس الطب الحديث. لم يكن الفرعون وحده من ينشد الشفاء، بل حتى الفلاح البسيط كان يلجأ

إلى كاهن- طبيب يعرف كيف يمزج بين الدعاء والمعرفة.

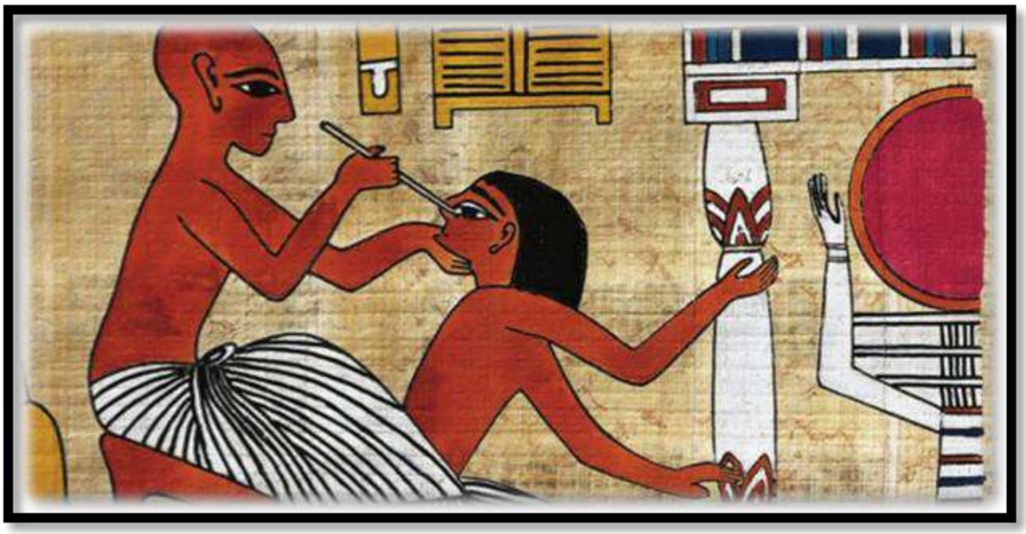

وفي بلاد الرافدين، خطّ **السومريون والبابليون** ألواحًا طينية تسرد أمراض الكبد والعيون، وتربط بين النجوم في السماء وأوجاع الجسد. أما **الإغريق**، فقد أزاحوا الغطاء عن الطب من عباءة السحر، وأجلسوه على عرش العقل. كان أبقراط ، أبو الطب ، يرى المرض خللاً في توازن الأخلاط الأربعة، ويعالج بالحمية والرياضة والراحة. هناك بدأت ملامح الطب الوقائي، الذي ما زال جوهرًا في فلسفة العلاج.

وفي **الهند** البعيدة، كتب **سوشروتا** ملحمة الطب الآيورفيدي، فوصف مئات العمليات وأدوات جراحية بدائية لكنها بديعة، وأجرى أولى محاولات ترقيع الجلد. أما **الصين**، فقد خطّت طريقًا آخر؛ مسارات خفية للطاقة الحيوية، وإبرٌ صغيرة كأنها همسات على الجسد، تكبح

الألم وتعيد الانسجام.

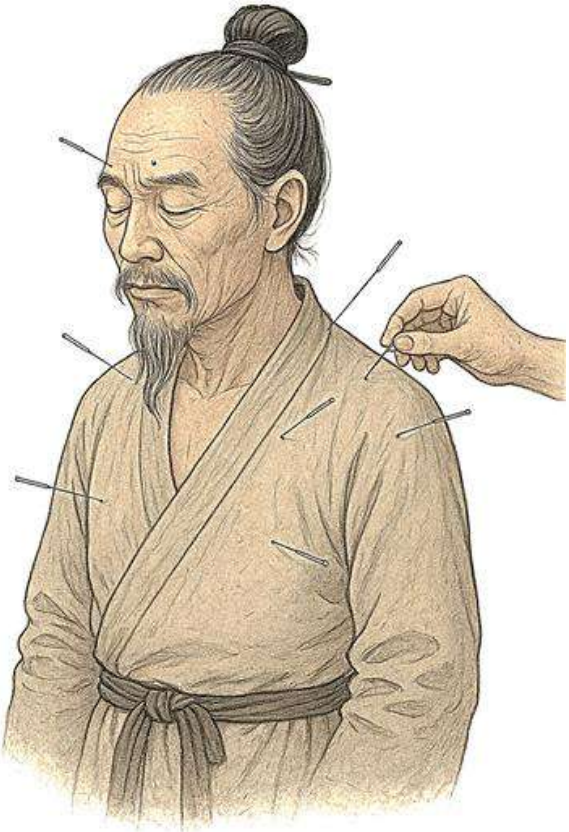

وجاءت العصور الوسطى، حين غطّى الظلام أوروبا، لكن مشاعل الشرق كانت مضاءة. **في بغداد ودمشق والقاهرة**، وُلدت **البيمارستانات**، أولى المستشفيات الحقيقية في التاريخ، حيث وُضع المرضى في أجنحة متخصصة، وسُجّلت حالاتهم بدقة. هناك لمع اسم **الرازي** ، الذي ميّز بين الجدري والحصبة، و **ابن سينا** الذي كتب (القانون في الطب) ، موسوعةً عبرت إلى اللاتين فشكّلت عصب الطب الأوروبي لقرون. و **الزهراوي**، الذي رسم بخط اليد صورًا للأدوات الجراحية وأبدع في علم الجراحة حتى صار مرجعًا لا غنى عنه .. أما أوروبا ساعتها فكانت في ركود علمي

تواجه الطاعون الأسود اللعين بلا حول أو قوة ..

ومع **عصر النهضة**، انقشعت الغشاوة. أزاحت مشرحة **فيزاليوس** ستار الغموض عن الجسد البشري، فانكشف ما كان خافيًا من عظامٍ وأعصابٍ وأوعية.

ثم أتى **هارفي** ليكشف الدورة الدموية، فيضع أساسًا جديدًا لفهم الحياة. وفي القرون اللاحقة، حملت المختبرات روائح الكحول والمعادن، وبدأت الكيمياء تتزاوج مع الطب، فولدت الصيدلة العلمية.

القرن التاسع عشر كان زمن الانتصارات العظمى :
باستور حارب الجراثيم وأثبت أن المرض كائنات دقيقة لا لعنات سماوية، و **ليستر** غسَل يديه بالمطهرات فأنقذ آلاف الأرواح من تعفن الجروح. تفتحت أبواب المستشفيات على عالم جديد من الجراحة المعقمة، والتخدير الذي حوّل الألم إلى صمت.

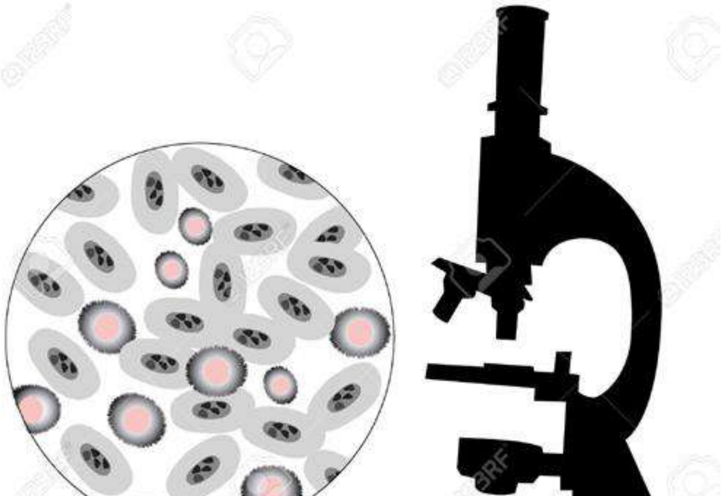

و **في القرن العشرين**، أطلّت المعجزة : **البنسلين**، أول مضاد حيوي، يفتح عهدًا جديدًا في مكافحة العدوى. ومعه تطورت اللقاحات، وزرعت الأعضاء، واخترعت أجهزة التصوير التي ترسم ما في داخلنا كما لو كان كتابًا مفتوحًا. صار الأطباء لا يسمعون فقط نبض

القلب، بل يرون صوته في رسم كهربائي، ويُتابعون خفقات المخ في موجات مضيئة.

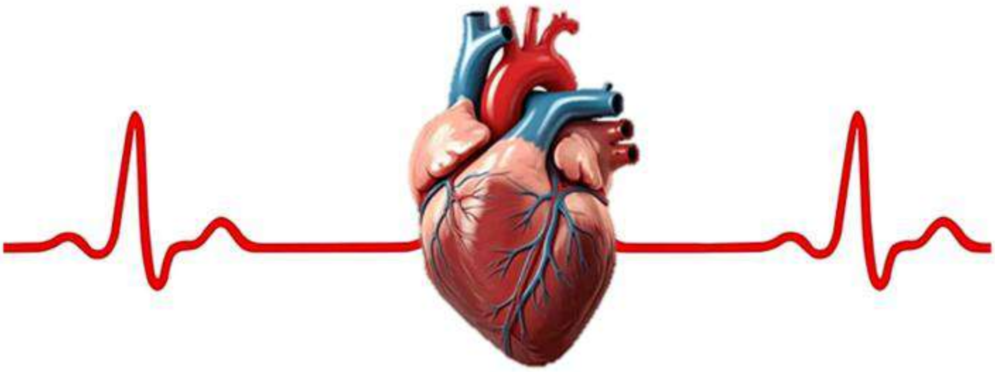

واليوم، **في القرن الحادي والعشرين**، يقف الطب على أعتاب آفاق لم يعرفها الحلم من قبل ، إذ لم يعد الجسد كتابًا مغلقًا، بل صار مخطوطًا يُحرَّر ويُعاد صياغته.
ومع ذلك، يظل الطبيب ـ كما كان منذ فجر التاريخ ـ إنسانًا ينصت لألم إنسان آخر، ويبحث عن شفاء يجمع بين العلم والرحمة.

ثانياً ، شواهد على تطور الطب في الماضي :

هنالك العديد من الاكتشافات التي أثبتت أن الطب في الحضارات القديمة كان متطوراً أكثر بكثير مما يعتقد أغلب الناس ، لدينا مثلاً :

❁ **بردية إيبرس** التي تعود لعام **1550** ق.م تقريبًا .. أطول بردية طبية مصرية (**20** متر تقريبًا) .. و تحتوي على مئات الوصفات لعلاج أمراض القلب والجهاز الهضمي والسكري والطفيليات .. و هناك

أيضاً إشارات دقيقة إلى أوعية دموية وارتباطها بالقلب، أشبه بمفهوم الدورة الدموية.

❁ **الجراحة الدماغية في بيرو القديمة** : عُثر على جماجم في حضارات الأنديز (البيرو و بوليفيا) بها ثقوب في الجمجمة وعليها علامات شفاء .. و كانت نسبة البقاء بعد هذه العمليات عالية جدًا (حتى **70%** في بعض الدراسات الأثرية).

❁ **الأدوات الجراحية الرومانية** : اكتُشفت في بومبي وهيركولانيوم (إيطاليا) أدوات جراحية من البرونز والحديد تشبه الأدوات الحديثة : مشرط، ملقط، قسطرة. و هذا يدل على ممارسة متقدمة للطب الجراحي.

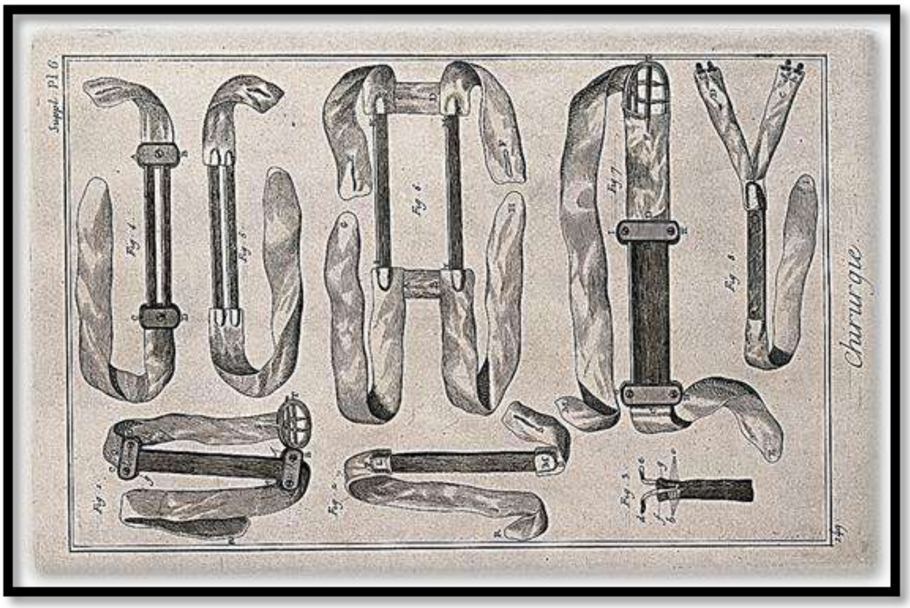

❁ **الأسنان الصناعية المصرية** : في مقابر مصرية قديمة، وُجدت جسور أسنان بدائية مصنوعة من ذهب وأسلاك لتثبيت الأسنان .. هذا يثبت وجود شكل من أشكال طب الأسنان التعويضي.

۞ **الطب الهندي القديم** : نجد (آيورفيدا – سوشروتا سامهيتا) و هو نص هندي قديم (حوالي **600** ق.م) يصف أكثر من **300** عملية جراحية و **120** أداة طبية .. الطبيب سوشروتا يوصف أحيانًا بأبو الجراحة ، وقد وثّق عمليات ترقيع الجلد (جراحة تجميلية).

۞ **الطب الصيني القديم – الوخز بالإبر**: استخدمت إبراً حجرية وعظمية تعود لأكثر من **2000** سنة. النصوص مثل **هوانغ دي نَي جينغ** تشرح نظامًا متكاملاً للعلاج بالوخز بالإبر والأعشاب.

۞ **الطب الوقائي في اليونان القديمة** : أبقراط (أبو الطب) دعا إلى نظام غذائي صحي، ممارسة الرياضة، وتوازن بين البدن والروح .. نصوصه توضح أن الأطباء كانوا يدركون أن الوقاية خير من العلاج، وهو مبدأ أساسي في الطب الحديث ..

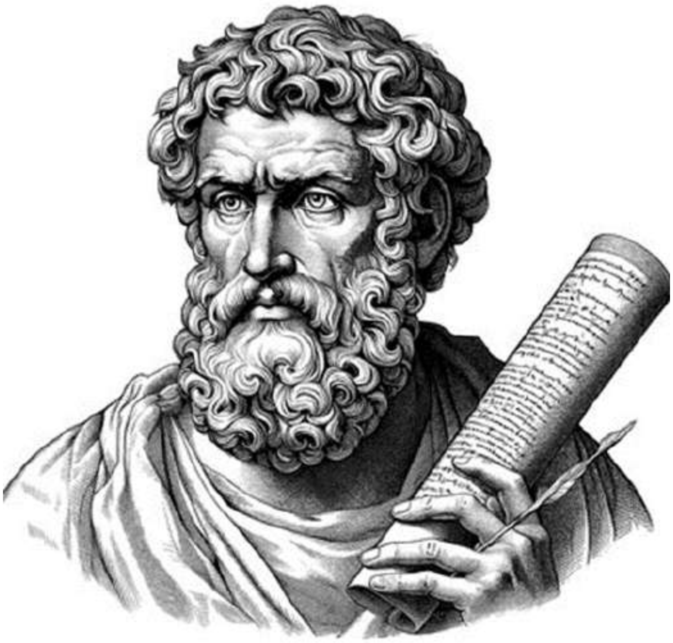

❁ **النظافة والتعقيم في الحضارة الإسلامية** : العلماء مثل الزهراوي (أبو القاسم) وصفوا طرق تعقيم الأدوات الجراحية واستخدام الكحول والخل كمطهرات. كما ابتكروا أدوات جراحية متخصصة ما زالت تُستخدم بشكل مشابه اليوم.

❁ **المستشفيات المنظمة (بيمارستانات)** : في العصر العباسي و الفاطمي، كانت هناك مستشفيات عامة (بيمارستانات) تُقدّم علاجًا مجانيًا، فيها أجنحة متخصصة وأطباء مقيمون وسجلات للمرضى .. و هذا سبق المستشفيات الحديثة الأوروبية بقرون.

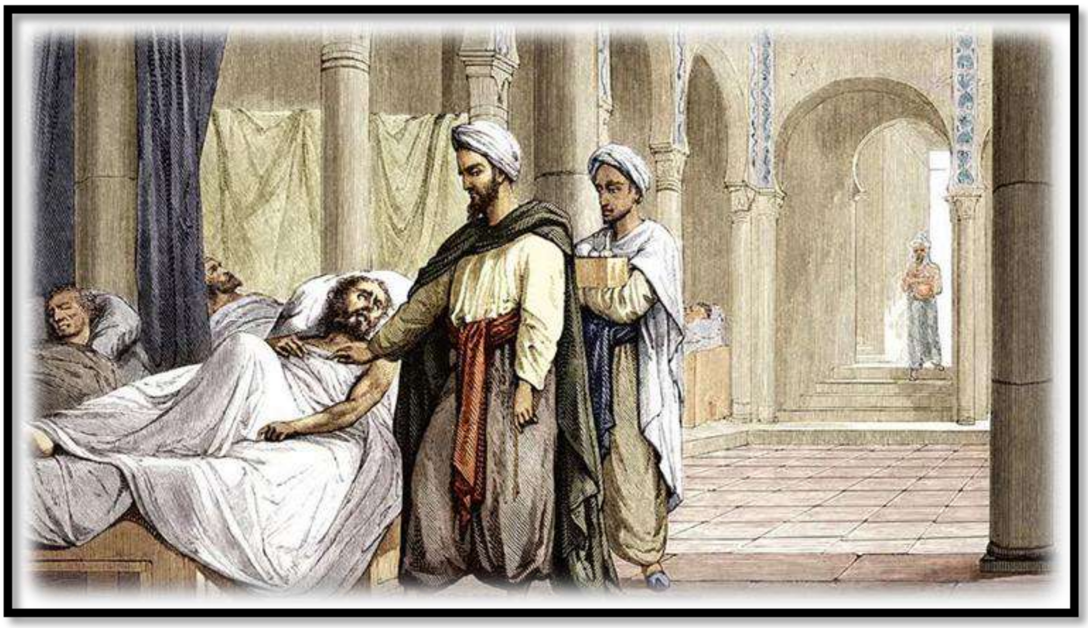

ثالثًا ، آفاق الطب المستقبلية :

في الأفق البعيد، يلوح زمنٌ لم يعد فيه الطب مجرد علاج للداء، بل فنٌّ لإعادة صياغة الحياة نفسها. سيكون الجسد كتابًا مفتوحًا، تُقرأ جيناته كما تُقرأ الأسفار،

وتُصحّح أخطاؤه كما يُصلَح بيت من الشعر. لن يكون الطبيب مقيدًا بالمشرط والدواء فحسب، بل سيمتلك مفاتيح الخلايا، يعيد برمجتها لتولد من جديد، فتمحو الشيخوخة كما يُمحى الغبار عن مرآة قديمة.

في ذلك المستقبل، لن يقتصر العلاج على إصلاح ما فسد، بل سيمتد إلى ما لم يوجد بعد : قلوب تُزرع بلا خوف من الرفض، عيون تُنبت من الضوء، وأطراف تتحرك بإرادة أعصابٍ مزروعة. ستصبح الروبوتات الجراحية رفيقةً ثابتة في غرف العمليات، تلمس أنسجة الإنسان بدقةٍ تفوق ارتجاف أصابع البشر. وسيجلس الذكاء الاصطناعي إلى جوار الطبيب، يحلّل ملايين البيانات في لحظة، فيكشف الداء قبل أن يبوح بأعراضه.

أما الأدوية، فلن تكون أقراصًا تُبتلع أو إبرًا تُغرز، بل

جزيئات دقيقة كالنجوم، تنساب في الدم لتبحث عن الخلية المريضة وتُداويها وحدها، تاركة الجسد في نقاءه.

و ربما تُزرع في أدمغتنا شرائح ذكية، تراقب نبض القلب وأنفاس الرئة، فتُرسل إشارات استباقية قبل أن يطرق الخطر الباب .. و هذا ما يعمل **إيلون ماسك** عليه بالفعل منذ الآن ..

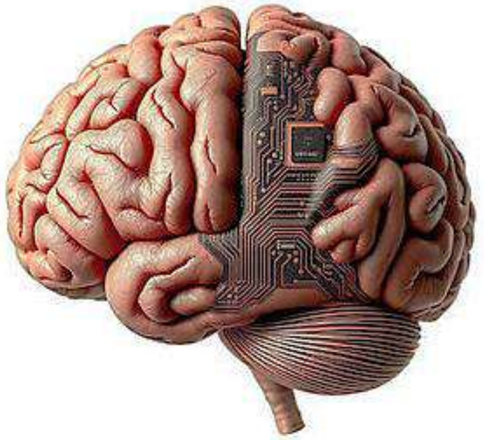

سيكون الطب آنذاك لغة حياة جديدة، يتجاوز حدود الألم والزمان. وربما، في لحظةٍ ما، يصبح السؤال ليس : (كيف نُشفى ؟) بل : (كيف نُعيد تعريف معنى أن نكون أحياء ؟)

****

في ختام مقاربتنا لمغالطتنا الطبية الجديدة (**بردية فيزاليوس**) ، من الأنسب ألا نقول بعد الآن :

= الطب علم حديث العهد لا يزال يحبو على دروب

التطور ..

بل أن نقول :

= الطب موضوع حساس منذ قديم الزمان ، حظي باهتمام و تفكير البشر بقوة ، فالصحة لا تقدر بثمن ، لذا لا عجب أن نجد في اكتشافاتنا الأثرية شواهد تؤكد أنـهم بلغوا من العلوم الطبية مبلغاً لا يستهان به .. بل لعلهم امتلكوا وصفات و أساليب أكثر نجاعة مما نمتلكه الآن لكنها اندثرت مع اندثار الحضارات !!

من الكهوف الحجرية حيث اكتشف الإنسان الأعشاب والحرارة، بدأ الطب رحلةً بين الغموض والمعرفة، ينسجها أجدادنا بحذر ودهشة.

في وادي النيل وبلاد الرافدين، دوّن الأطباء القدماء وصفات وعلاجات تشبه أساليبنا الحديثة، وجعلوا الجسد كتابًا يُقرأ بعقل وفن.

الإغريق والهنود والصينيون أضافوا أبعادًا جديدة، من التوازن والوقاية إلى الجراحة الدقيقة والوخز بالإبر، فأصبح الطب علمًا وفلسفةً معًا.

العصور الوسطى و بيمارستاناتها كانت صرحًا للرحمة والعلم، حيث وُضع المريض في قلب المعرفة الإنسانية.

ثم أطلّت النهضة والعصر الحديث، فزُرعت المختبرات و المستشفيات بالإبداع، و ولد التخدير، و المضادات

الحيوية، و التصوير الطبي، لتفتح أبواب الجسد على مصراعيها.

و اليوم، يرقب الطب المستقبل بعينين متقدتين : الجينات ، الخلايا الجذعية، الروبوتات الجراحية، والذكاء الاصطناعي، ليعيد كتابة حدود الحياة والشفاء.

من الماضي إلى المستقبل، يظل الطب حكاية الإنسان الذي لا يكلّ من البحث عن الصحة، الشفاء، والرحمة، في رحلةٍ بلا بداية معروفة و لا نهاية متوقعة ..

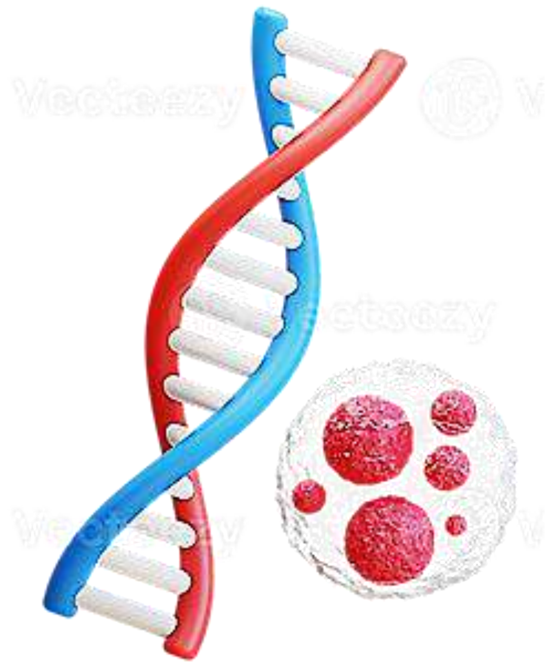

المعجزة

(عندما تسجد القوانين و يتنحى المنطق)

وصل سبيروزار إلى اليخت و هو يشعر بدوار و غثيان شديدين، و كان جسده يتصبب عرقاً ، ما الذي يحدث يا ترى ؟

ضغط على زر الذكاء الاصطناعي المتطور اسألني فظهر **القبطان باروناج** ..

= حضرة القبطان أنا مريض للغاية، فهل لديك تفسير طبي لحالتي ..

= أنا آسف لسماع ذلك سيد سبيروزار، بماذا تشعر ..؟

= دوار و غثيان و تعرق غزير و طفح غريب على جسدي ..

= أظن أن الأخبار التي أحملها لك غير جيدة إطلاقاً..

= و ما هي ؟

= لقد تجاهلت نصيحتي بالحذر من الفيروس الذي يحمله سكان هذا كوكب كوليتوس في جسدهم و يتعايش معهم و الذي هو للأسف قاتل بشدة لسكان كوكب الأرض ..

= و ما الذي ينتظرني لاحقاً ؟

= أعتذر لإخبارك ذلك، لكنه فيروس فتاك وقاتل خلال أقل من ست ساعات، حيث يبدأ بمهاجمة أجهزة الجسم واحداً تلو الآخر حتى يصيب القلب و يسبب توقفه ..

= و هل هو مؤلم ؟

= للأسف أجل، و ألم شديد للغاية ..

قال سبيروزار بنبرة تحمل في طياتها الألم و الفزع و اليأس ..

= و ما الذي تنصحني بفعله ؟

= أعذرني سيد سبيروزار لصراحتي الوقحة، و لكن المنطق يقول بأن عليك في حال تأكد التشخيص أن تختصر طريق العذاب و تنهي حياتك بنفسك ..

= ألا يوجد أي علاج ممكن ..

= إطلاقاً ..

تمدد سبيروزار على فراشه و هو يفكر بكلام **نونيس** السابق عن الاحتمال و انتظار المعجزات، و من جهة

ثانية تذكر قناعاته السابقة و مساعدته لمرضى السرطان على إنهاء حياتهم عبر القتل الرحيم ، و دخل في صراع عميق بين القناعتين، و في النهاية قرر الصبر و الاحتمال ما أمكنه، فإن تخطى الألم مرحلة التحمل فإن زجاجة المورفين التي صنعها منذ ساعات بتلك الآلة العجيبة جاهزة و سيحقن نفسه في وريده دون تردد ..

مضت ثلاث ساعات على سبيروزار كجحيم مستعر، كل ثانية تمر كأنها دهور من العذاب. الألم اختلط بخفقان قلبه المتسارع، والتنفس أصبح مشقة لا تُحتمل، كأن الهواء نفسه يتحول إلى خناجر تخترق رئتيه. عضلاته تضعف، وكأن جسده ينهار من الداخل، بينما حرارة نار الجحيم تحرق أحشائه، تضغط على روحه وتدفعه إلى حافة الهاوية.

استسلم أخيراً ، و بما تبقى لديه من طاقة وقف مرتعشًا، يتلمس طريقه نحو زجاجة المورفين، يده ترتجف من الضعف والخوف، قلبه ينبض بين الإصرار والخضوع. ملأ المحقن ببطء، كأن كل قطرة تحمل ثقل عمره كله. أدخل الإبرة في وريده ببطء، وحقن الدواء دفعة واحدة، شعور غريب يعتريه بين الرجاء والهلع .. حدقتاه انكمشتا حتى غاب العالم كله، صوت أنفاسه تلاشى في دوامة الظلام التي ابتلعته، وسقط على الأرض، جسدًا لا حياة فيه، لكنه هارب من عذابٍ لا يحتمل، في صمتٍ

قاتل تخللت جسده لحظة انفصال عن الألم والعالم.

في البرزخ ...

حين انفرجت أجفان سبيروزار، لم يُولد في عالم، بل في بياضٍ يتنفّس، بياضٍ ليس له سقفٌ ولا قاع، كأن الضوء ذاته قد حلم به فصار. كل شيء من حوله ذائب في النقاء، لا جدران، لا أرض، لا أفق... فقط سكونٌ ناصع البياض في كل مكان، يتردد صداه في داخله قبل أن يسمعه.

وهناك، وكأنما انبثق من جوف النور، تجلّى رجل ستينيّ الملامح، إفريقيّ البشرة، تشع من محيّاه حكمة العصور الأولى. لحية بيضاء كصمت ثلوج القمم ، وبذلة كأنها حيكت من خيوط الضوء ذاته، تمتد حتى قدميه، المحاطتين بحذاء يخترق الفراغ بلا أثر. فبدا للرائي كرأسٍ معلّق في ملكوت سرمدي، لا تدرك له هيئة ولا تعرف له بداية.

= سيد سبيروزار .. أهلاً بك ..

= من أنت ؟ هل أنا أحلم ..؟

= لا ، أنت ميت سيد سبيروزار و نحن هنا في البرزخ الذي يفصل الدنيا عن الحياة الآخرة ..

= و من أنت ؟

= أنا رسالة الله لك، و أدعى **ميدوسيز**، لقد زرت والدتك من قبل في المنام و أطلقت عليك اسمك الجميل

نظر إليه سبيروزار بدهشة ..

= نبي كوكب كوليتوس ؟

= هو بذاته ..

= و ما الذي تريده مني الآن ؟

= أريد أن أعقد معك صفقة ؟

= صفقة ؟

= أجل، سأعيدك إلى الحياة من جديد و أمنحك صفة خارقة تختص بها الآلهة فقط ..

= و ما هي ؟

= أن تملك القدرة على إماتة الناس ثم إحيائهم من جديد

= **المميت المحيي !؟**

= بالضبط ..

= و ذلك بمقابل ؟

= أن تكون بيدقاً بيد الله لتحقيق عدالته على الأرض ، أن تنصر المظلومين و المستضعفين، و تقف في وجه المجرمين و منتهكي القوانين السماوية ..

= انتهاك القوانين السماوية **!** كأن تساعد مريض

السرطان على إنهاء حياته **!؟**

= القوة التي ستحصل عليها ستخولك قتل من تشاء و إحياء من تشاء بشرط وحيد ..

= و ما هو ؟

= ألا يكون لك **مكسب شخصي** من وراء استخدام قوتك

= و في حال فعلت **!؟**

= عندها ستغادر روحك جسدك مرة واحدة و للأبد، فهل اتفقنا ؟

لبث سبيروزار صامتًا للحظات، يتأمل المصير الذي يلوّح له من بعيد. لم يكن الموت خيارًا مقبولًا بعد... فداخله نار لم تخمد، ورسالة لم تكتمل. كان يشعر، بيقينٍ جديد، أن لوجوده على الأرض غاية لم يُنجزها بعد، غاية تتجاوز ذاته، تتصل بالخَلق ذاته، كما لو أن الكون نفسه انتظره ليصنع فرقًا.

ومع ذلك، فكرة الانضمام إلى أولئك الأبطال المتفرّدين، المنتشرين في أرجاء الأرض، بدت له كدعوة قدرية. يمكنه، بمساعدتهم، أن يُعيد ترتيب الفوضى، أن يجعل من الكوكب موطنًا أرحب للحياة، أكثر عدلًا، وأقل ألمًا.

فلمَ لا؟

ربما لم يكن البطل هو من يولد خارقًا، بل من يختار في

لحظة مصيرية... ألّا يموت ..

= لكن كيف سأستخدم قوتي هذه ؟

= انظر فقط في عيني الشخص الذي تريد احياءه أو قتله و صوب أفكارك نحوه، إذا أردت قتله ستتوسع حدقتاك و إذا أردتك إحياءه ستنكمشان ..

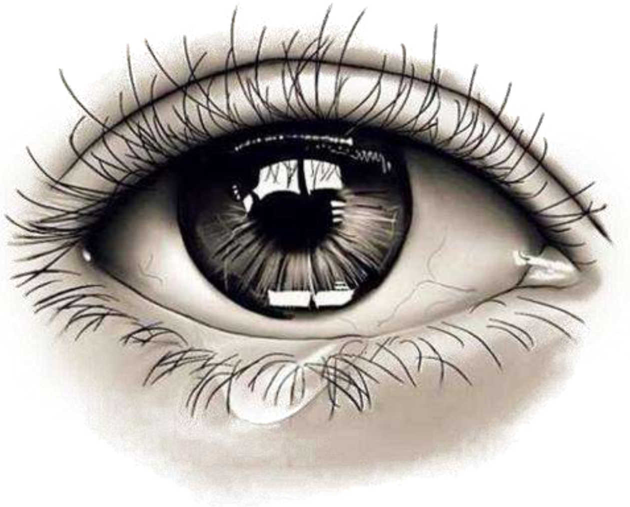

= وهل أستطيع إعادته للحياة مهما كان سبب موته ؟

= سيد سبيروزار، طالما أن للجسد عينين فيمكنك إعادته للحياة مهما كانت حالته ..

= و كيف ذلك ؟ ما التفسير العلمي له ؟

= إنها **معجزة** سيد سبيروزار، فإن أعطيتك تفسيراً علمياً لها ، لما بقيت كذلك ، لكن لنقل أن مبدأ قوتك هو اللعب بالزمن و إعادته للوراء، أي أنك تعيد الجسد إلى فترة زمنية سابقة للوقت الراهن ..

ابتسم سبيروزار ..

= إذا سأصبح من الأبطال الخارقين ؟

ابتسم ميدوسيز بدوره ..

= بالطبع ، إن قبلت الصفقة ..

= لكنني عندها سأحتاج اسماً مميزاً ..

= بلى، لننقل أنك ستكون **الطبيب مورفين** ..

= ياه، إنه اسم مميز و معبر للغاية **!** فالمورفين هو من أوصلني منذ البداية إلى هذه اللحظة، منذ إمساكي متلبساً بتنفيذ القتل الرحيم لغيري بالمورفين و سجني ، انتهاءً بالقتل الرحيم لنفسي بالمورفين نفسه **!**

ابتسم ميدوسيز ...

= تماماً ..

= لكن كيف سأعود إلى كوكب الأرض ؟

= إن ذلك بسيط جداً سيد سبيروزار، تعود من المكان نفسه الذي غادرت منه كوكب الأرض ..

= مثلث برمودا ؟

= بالضبط ..

= لكن هنالك مشكلة أخرى حقيقية ..

= و هي ؟

= أنا هارب من السجن، فكيف سأعود إلى بلادي ؟

= أنت لن تعود إلى هنالك سبيروزار، عليك الذهاب إلى **جزر الرأس الأخضر** و بالتحديد إلى أكبر جزيرة فيها و هي **سانتياغو** و بالتحديد أكثر عاصمتها **برايا**، و اسأل هنالك عن **القس ريكاردو فونسيكا** في كاتدرائية برايا، و هو سيتكفل بالباقي ..

فكر سبيروزار للحظات ثم قال بحزم ..

= اتفقنا، قبلت الصفقة سيد ميدوسيز ..

= هذا جيد للغاية .. إذن سأفارقك الآن و ستعود روحك إلى الاتحاد بجسدك، لكن أوصيك بشيء واحد أخيراً ..

= تفضل ..!!

= حاول بقدر الإمكان أن تعمل في الظل ، لا أريد لحقيقتك أن تُكشف سوى في الحالات الضرورية جداً و لأشخاص محددين.

= حسناً سيد ميدوسيز، سأفعل ..

تقدم ميدوسيز منه و مد يديه ثم دفعه إلى الخلف بقوة فشهق سبيروزار شهقة عميقة و فتح عينيه ليجد نفسه ممدداً على أرضية القمرة، كان يشعر بالتحسن و بأنه عاد معافى تقريباً ..

كوكب كوليتوس ..

بلاد كارسيلاس / عدن ..

حين نظر سبيروزار إلى جسده، لم يجد أثرًا للطفح... جلده صافٍ كصفحة ماءٍ لم تلمسها ريح .. ارتعشت أنفاسه .. لم يكن ذلك حلمًا !!. لم يكن هلوسة رجل ضائع في عرض البحر، بل معجزة نُقشت على جسده، ثم انمحت كأنها لم تكن... أو لعلها كانت الختم.

لكن كيف يتأكد ؟

العقل، هذا الحارس القديم، أراد برهانًا.

نزل من اليخت بخطى بطيئة، كمن يخشى أن يوقظ منامه، واتجه نحو شاطئٍ تغفو عليه سلحفاة عتيقة، كأنها خرجت من كتب الحكمة القديمة.

جثا أمامها، وحدّق في عينيها الصغيرتين، وزرع داخله

فكرة : (**الموت**)

في اللحظة التالية، اتسعت حدقتاه على الآخر، واندفع من عينيه طيفٌ لا يُرى... شعور، أو طاقة، أو حكمٌ أزلي.

سكنت السلحفاة. لم تتحرك .. أغلقت عينيها ببطء ، وكأن الحياة خرجت منها بإذنٍ سماوي ..

شهق سبيروزار، وقلبه يخفق كما لم يخفق من قبل.

ثم استجمع ذاته، وحدّق فيها من جديد... وزرع فكرة ثانية مضادة : (**العودة الى الحياة.**)

تقلّصت حدقتاه هذه المرة، كما لو أن الضوء نفسه انكمش داخله.

وفي صمتٍ مهيب، فتحت السلحفاة عينيها، وحركت أطرافها، ثم مشت في هدوء... كما لو أنها عادت من العالم الآخر بخطى مألوفة.

وقف سبيروزار ساكنًا... متخشبًا بين الذهول والرهبة.
(يا إلهي)... تمتم، (هذا ليس حلمًا... هذه بداية شيء لا رجعة فيه)

لقد أصبح الآن ـــ دون إعلان، دون تاج، دون برق ـــ أحد أولئك الذين تُروى عنهم الحكايات...

لكن في صمته كان يعلم : الهدية الكبرى لا تأتي إلا

ومعها العبء الأكبر، كما وعده ميدوسيز.. فمسؤوليات كبيرة تنتظره ..

****

المعجزة ...

تلك الكلمة التي سحرت عقول البشر على مر العصور و تتالي الدهور ..

ليست مجرد خرقٍ لقوانين الكون، بل نافذةٌ يطلّ منها السرّ على العيان.

كلما شهدها البشر، ارتجف العقل أمام دهشته، وانحنى القلب أمام سطوتها .. فهي الجسر الخفي الذي يصل بين صلابة المادة ورقّة الروح.

فيها يجد الإنسان نفسه صغيرًا أمام عظمةٍ لا تقاس، لكنه في الوقت ذاته متصلٌ بسرّ أبدي.

المعجزة تُذكّر العقل أن قوانينه ليست السقف الأعلى،

بل طبقة من طبقات الوجود.

وتُذكّر الروح أن للغيب رسائل تتسرّب إلى الدنيا حين تشاء الحكمة.

وعبر التاريخ، ظلّ أثرها كالنور، يوقظ الضمائر من سباتها، ويزرع يقينًا في صحراء الشك.

إنـها توقيع الغيب على صفحة العالم، ليقول للإنسان :
لست وحدك في هذا الطريق.

لكن ..

رغم حدوث عشرات المعجزات على يد الأنبياء و القديسين ، يبقى هنالك من يشكك بل و من يؤكد أنـها محض خدعة .. سحر حاوي .. أو وهم بصري ..

فهل هذا التشكيك مبرر ؟ هل العقل و العلم يؤكدان بشكل قاطع أن لا وجود للمعجزات في قاموس الحياة .. و ماذا عن الله الذي تسجد القوانين له و ينحني المنطق أمام كلمته العليا ؟

هذا ما سنحاول معرفته سوياً خلال الصفحات التالية عبر تحليل مفهوم **المعجزة** من الزوايا التالية :

1. **تعريف المعجزة ..**
2. **لماذا يحب الناس المعجزة و يبحثون عنها ..**
3. **أشهر المعجزات ..**

فهيا بنا عزيزي القارئ في هذه المغامرة المثيرة الغنية بالمعجزات ..

أولاً ، تعريف المعجزة :

المعجزة، في جوهرها، هي ذلك الحدث الذي يطلّ على الوعي البشري من نافذةٍ تتجاوز حدود المألوف، فتخلخل يقين العقول وتزرع في الأرواح دهشةً لا تُقاوَم. ليست المعجزة مجرد واقعة استثنائية تنكسر عندها القوانين الطبيعية، بل هي لغة خاصة ينطق بها الغيب إلى الإنسان، كأنها توقيع غير منظور على صفحات الزمن، يذكّرنا بأن الكون أرحب مما نستطيع أن نُدركه.

ماديًا، تبدو المعجزة وكأنها اختراق لقوانين الفيزياء والعلل المحسوسة، خرقٌ في نسيج النظام الكوني يجعل العالم يلتفت بدهشة. إنها الحدث الذي يربك العقل الحسابي، ويضعه أمام سؤال : هل القوانين التي نحسبها

مطلقة هي في حقيقتها إلا حجابٌ على سرٍّ أعمق؟ هنا، يصبح العقل مجبرًا على الاعتراف بحدوده، والوقوف صامتًا أمام ما لا يمكن أن يفسّره.

أما **روحيًا**، فالمعجزة هي نفحة نورانية تُسكب في القلب قبل أن تُرى بالعين. هي يقظة مفاجئة توقظ الروح من غفلتها، وتعيد لها شعور الانتماء إلى مصدر أسمى. في حضور المعجزة، يشعر الإنسان بأن العالم ليس مقفلًا بإحكام، بل مفتوح على احتمالات الرحمة والإلهام. ولذا فهي ليست مجرد حدث خارجي، بل هي أيضًا تجربة باطنية، تهزّ أعمق الأوتار وتُشعل جذوة الإيمان.

و **فلسفيًا**، يمكن النظر إلى المعجزة كجدلٍ أبدي بين الممكن والمستحيل، بين العقل واللامعقول، بين النظام والخرق. إنها السؤال المعلّق في فضاء الفكر : هل قوانين الوجود مكتفية بذاتها، أم أنها إشارات إلى من وضعها، قادر على تجاوزها متى شاء؟ بهذا المعنى، تصبح المعجزة أداة للتفكير، تدفع الإنسان للتأمل في حدود العقل البشري، وفي المعنى الأوسع للحرية الإلهية التي لا تُقاس بمعايير البشر.

في النهاية، المعجزة ليست مجرد حدث يُسجَّل في كتب التاريخ أو يروى في قصص الإيمان؛ إنها حالة وجودية، لحظة تذكّر بأننا نعيش في كونٍ تحرسه

الأسرار، وتضيئه إشارات من عوالم أعمق من مداركنا. إنها وعدٌ غامض بأن الغيب ما زال يتنفس في هواء المادة، وأن وراء ستائر الواقع المألوف يكمن أفقٌ لا ينضب من الدهشة.

ثانياً ،لماذا يحب الناس المعجزة و يبحثون عنها ؟

المعجزات ظلّت منذ فجر التاريخ هاجسًا عميقًا في وجدان البشر، كأنها الخيط الخفي الذي يربط الأرض بالسماء، والمحدود باللامحدود. سرّ التعلّق بها لا يكمن فقط في ندرتها أو غرابتها، بل في عطش الإنسان الدائم إلى ما يبدّد خوفه ويُطمئنه إلى أن حياته ليست عبثًا عابرًا، وأن وراء حكاية الوجود عينًا ترعى وقوةً قادرة على كل شيء. الإنسان، وهو الكائن القَلِق بطبعه، يبحث دومًا عن إشارةٍ تتجاوز **ضباب المستقبل**، إشارة تقول له : **الغد ليس مجهولًا بالكامل، والموت ليس جدارًا أصمًّا**، وإنما هناك معنى أوسع وحقيقة أرحب تنتظرك. ومن هنا، تصبح المعجزة بمثابة رسالة سماوية مكتوبة بمداد الغيب، تعيد له توازنه وتسكّن روعه.

المعجزة تمنح الروح نوعًا من **الضمانة الوجودية**، إذ تذكّر الإنسان بأن النظام الكوني ليس مغلقًا ولا صلبًا كجدار من حديد، بل فيه نوافذ يُطلّ منها السرّ، تُبشّر بالقدرة المطلقة التي لا يقف أمامها قانون ولا يحدّها

شرط. لهذا كان البشر عبر العصور يترقبونها كما يترقب الظمآن قطرة الماء، لأنهم يجدون فيها ترياقًا ضد قلقهم العميق من الزمن، ومن المجهول الذي يتربّص بهم في كل منعطف. إنّها الحاجة إلى معانقة المطلق، إلى الشعور بأن هناك قوة رحيمة تعرف ضعفهم وتمنحهم إشارات بأنها حاضرة، قادرة، وفاعلة في خفايا الوجود.

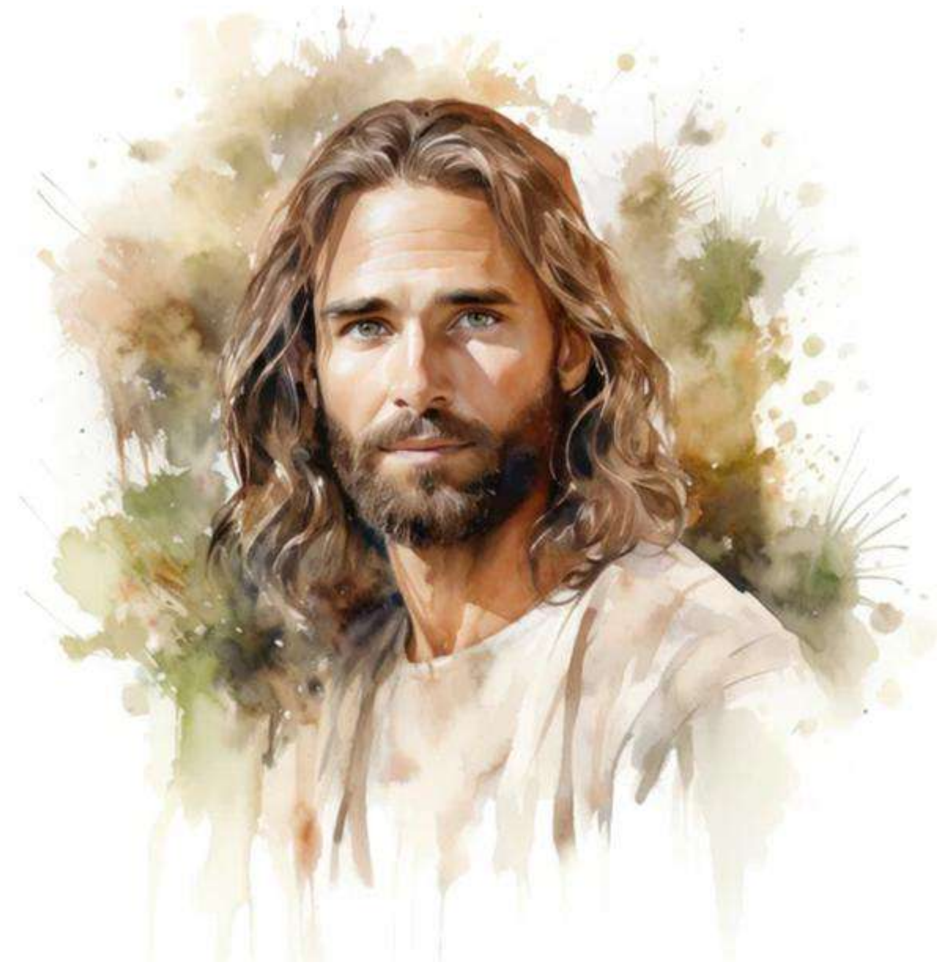

ومن زاوية أخرى، تشبه المعجزة لعبة حاوٍ عظيم، لكنها لعبة ذات مغزى يتجاوز كل خدعة. إنها تسحر العقول والأفئدة في الوقت ذاته، تتركها متأرجحة بين الشك واليقين، بين وهم التفسير ودهشة الغموض. هنا يكمن

سرّ سحرها : لو أنها كانت يقينًا كاملًا لما أبقت على جذوة البحث حيّة، ولو أنها كانت وهمًا صرفًا لما لامست أعمق أعماق القلب. إنّها تلك **المنطقة الوسطى** التي تجعل العقل يتساءل والروح تسكر، كأنها خمرٌ غيبية تترنح بها الروح في رقصتها الأبدية بين الإيمان و الدهشة.

وهذا التأرجح ليس نقصًا في قيمة المعجزة، بل جوهر سحرها؛ فهي لا تُعطينا يقينًا نهائيًا يُطفئ السؤال، ولا تتركنا في خواء يائس من دون معنى. بل تمنحنا مساحة للتساؤل، للبحث، للاهتزاز اللذيذ بين الاحتمالين، وكأنها تريد أن تقول للإنسان : لست مخلوقًا مكتفيًا بالمعرفة الجامدة، بل أنت كائن حيّ يحتاج إلى دهشة مستمرة، إلى لغز يتغذى عليه عقلك وروحك معًا.

لذلك، فإن بحث الإنسان الدؤوب عن المعجزات ليس بحثًا ساذجًا عن الخوارق بقدر ما هو بحث عن الطمأنينة. هو توقٌ لأن يرى في العالم أثرًا للقوة الغيبية التي تحكم المصائر وتُسكّن المخاوف. كلما ازداد خوفه من المستقبل المجهول أو المصير بعد الموت، اشتدت حاجته إلى المعجزة التي تذكّره بأن حياته ليست مقطوعة الجذور، وأنه لم يُلقَ في الوجود عبثًا، بل هو محاط برعاية قوة لا تُحدّ.

وهكذا، تظل المعجزة في أعين البشر أكثر من حدث

نادر؛ إنها احتفال كوني بالغيب، ومشهد مسرحي يمزج الماورائي بالمحسوس، **حيث يجلس العقل مبهورًا والروح مترنّحة في سُكرها العذب**. إنّها النغمة التي تربك المنطق وتوقظ القلب، وهي السرّ الذي يجعل الإنسان، رغم تقدّمه العلمي وتراكم معرفته، يظل عطشانًا للدهشة، متعلّقًا بمعجزة جديدة، يبحث عنها كما يبحث العاشق عن إشارة خفيّة من محبوب غامض لا يُرى ..

ثالثًا ، أشهر المعجزات :

منذ أن خطّت البشرية أولى حروف دهشتها على جدران الكهوف، وهي ترنو بعينين مرتعشتين نحو

السماء، تبحث عن معنى يتجاوز حدود الطين، عن سرّ يبدّد عتمة الخوف ويؤكّد أن للحياة جذورًا في غيبٍ رحيم. ومن بين أعظم ما استجاب لهذا التوق، جاءت المعجزات؛ تلك اللحظات التي انفتح فيها حجاب المادة على أنوار الغيب، فشهد البشر خرقًا مهيبًا للقوانين التي ظنّوها مطلقة. ليست المعجزة مجرد حدث خارق للعادة، بل هي لغةٌ غامضة، رسالةٌ مكتوبة بمداد القدرة، توقيعٌ من السماء على صفحات التاريخ، كي يوقن الإنسان أن هناك قوة أعلى تسيّر الوجود وتدعوه إلى الإيمان.

من بين أوائل المشاهد التي تسكن الذاكرة الدينية، نرى **إبراهيم** عليه السلام يُلقى في أتون نارٍ عظيمة، أضرمتها أيادٍ تتحدّى رسالته. في منطق المادة، لا مفرّ من الاحتراق، فالنار طبيعتها أن تلتهم. لكنّ الغيب شاء أن تُسلب النار من خاصيّتها، فتغدو بردًا وسلامًا.

هنا تتجلّى المعجزة بوصفها ثورة على ما نسمّيه المستحيل .. إنّها إعلان أن قوانين الكون ليست سجناً، بل هي طاعة لآمرٍ أعلى. الفلسفة هنا عميقة : النار التي تحرق الجسد لا تحرق الروح، وما يبدو في الظاهر موتًا يصبح في الباطن حياةً جديدة. لقد قدّمت هذه المعجزة درسًا خالدًا : أن الإيمان حين يتجذّر، يصبح أقوى من عناصر الطبيعة نفسها.. و أنك لا يمكنك أن

تحرق الشمس بالنار فلا تأثير لها عليها !!

لا معجزة في الذاكرة البشرية أكثر حضورًا من عصا **موسى** عليه السلام. عصا بسيطة، أداة راعٍ متواضع، تتحوّل فجأة إلى حيّة تسعى، ثم تشق البحر نصفين في مشهد أسطوري يمزج الرعب بالرجاء.

الفلسفة الكامنة هنا أن أبسط الأدوات، حين تمسّها يد القدرة، تتحوّل إلى ما يتجاوز الخيال. العصا رمزٌ للمحدود، للضعف الإنساني، لكنها حين تتصل بالغيب تصير رمزًا للتحوّل والقدرة اللامتناهية. البحر المنشقّ ليس مجرد مشهد مادي، بل صورة كونية لانقسام طرق الوجود : طريق نجاة لمن آمن، وطريق هلاك لمن طغى. إنها معجزة تذكّرنا أن المادة في النهاية خاضعة للروح، وأن البحر العظيم لا يقدر أن يقف أمام كلمة الحق.

حين نأتي إلى **المسيح** عليه السلام، نجد أن معجزاته

تمسّ الجسد والروح في آن. شفاء الأعمى وفتح البصر، شفاء الأبرص وإعادة نقاء الجسد، إحياء الموتى حتى، و السير على المياه .. كلّها مشاهد تتجاوز قدرة الإنسان. لكنّها أيضًا تحمل دلالات فلسفية عميقة:

فالأعمى ليس فقط ذاك الذي لا يرى بعينيه، بل هو رمز للروح التي تاهت عن النور. والأبرص ليس فقط مَن شوه المرض جلده، بل رمزٌ للروح المثقلة بخطاياها. إحياء الموتى ليس مجرد عودة الجسد للحياة، بل بعثٌ للقلوب الغارقة في غفلتها .. و قوانين الفيزياء تتنحى لكلمة الله .. بهذا المعنى، معجزات المسيح ليست حوادث جسدية فحسب، بل رموز لشفاء الروح، لإعادة الإنسان إلى صلته بالمطلق.

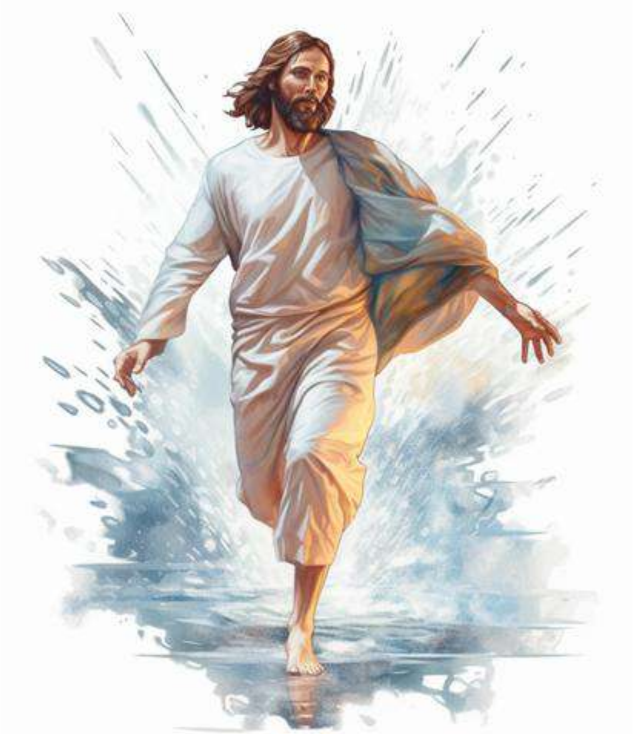

وفي سيرة نبي الرحمة **محمد** يسطع مشهد انشقاق

القمر. القمر، رمز الليل والدهشة والسرّ، ينشقّ نصفين ثم يعود متماسكًا، كأنما يريد أن يعلن خضوعه لرسالةٍ جديدة.

من منظور فلسفي، هذه المعجزة تضع الإنسان أمام سؤال عظيم : هل الكون ذاته ليس إلا مرآة لإرادة أعلى؟ هل الأجرام السماوية التي حسبناها ثابتة يمكن أن تصبح لوحات مرنة في يد القدرة المطلقة؟ القمر المنشقّ يذكّر بأن الغيب لا يقتصر على الأرض وحدها، بل يشمل السماوات بأسرها، وأن الوجود كلّه مسرح لقدرةٍ لا تحدّها حدود.

و لدينا أيضاً النبي **نوح** مع معجزة السفينة التي أنقذت المؤمنين من الطوفان الجارف، رمز الخلاص والنجاة وسط الفوضى الكونية.

و لا ننسى بالطبع النبي **صالح** مع ناقته التي خرجت من قلب الصخر، كمعجزة تكسر منطق الطبيعة لتدلّ على

أن القدرة الإلهية تُخرج الحياة من الجماد ..

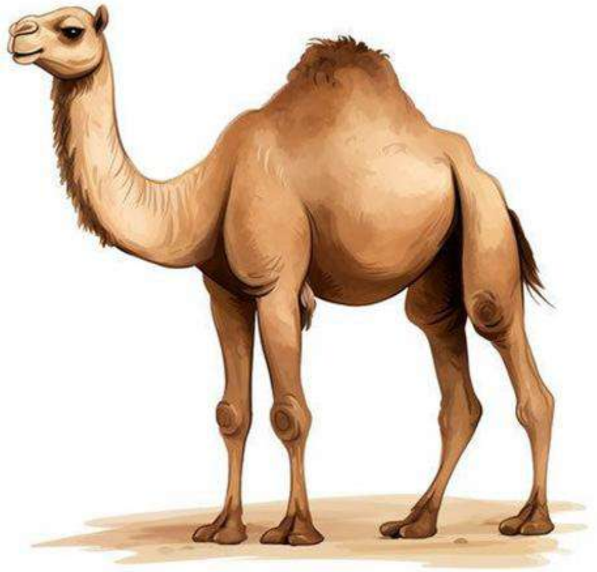

****

في ختام مقاربتنا لمغالطتنا الجديدة (**المعجزة**) ، من الأنسب ألا نقول بعد الآن :

= لا تفسير علمي للمعجزة ، إذن فهي مجرد خدعة بصرية .. سحر حاوي .. أو وهم عقلي ..

بل أن نقول :

= لو فسرت المعجزة لما بقيت معجزة .. فأجمل ما فيها هو أنها تتأرجح بين الشك و اليقين ، كإثبات على أن قوانين العلم و المنطق تسجد لإرادة الله و تتنحى أمام كلمته ..

أجمل ما في المعجزة أنها تُطلّ بلا مفتاح، وتبقى أبوابها مشرعة على اللغز.

كلما حاول العقل أن يحيط بها، أفلتت من قبضته كوميضٍ في فضاءٍ لا يُمسك.

إنها لحظة يقف فيها الإنسان بين شاطئ الشك ومرفأ اليقين، متأرجحًا كطائرٍ يختبر جناحيه.

وذلك التأرجح نفسه هو السحر، إذ يمنح العقول غذاء السؤال، والقلوب دفء الإيمان.

فلو انكشفت حقيقتها، لانطفأت دهشتها، ولصارت عادية كسائر الحوادث .. لكنها باقية بلا تفسير، كزهرةٍ تنبت فجأة في صخرٍ قاسٍ، لا يُدرى من أين جاءت .. في صمتها الغامض تتسرب الحكمة، وفي غموضها يترقرق النور.

وهكذا تبقى المعجزة وعدًا إلهياً سرّيًا، يهمس للإنسان بأن سرّ الوجود أوسع من مداركه.

الكون DNA

(البرمجة المسبقة)

= ما الذي تقرأه على هاتفك يا صديقي ؟

= مقال عن بنية **DNA** الخلايا ..

= و ما الذي اكتشفته بالمحصلة ؟

= إنّ جزيء **DNA** عبارة عن لغز كبير .. معجزة حقيقية تفجر العقل ذهولاً .. كيف يمكن لجزيء لا يتجاوز طوله بضعة نانومترات أن يتحكم حرفياً بكل شيء قادم في حياة الكائن الحي ، بدءاً **بالشكل** مروراً **بالأمراض** و انتهاءً ربما **بالمصير** ..

= غريب بلا شك .. لكن كيف ينجز ذلك ؟

= ببساطة يتم ترجمة **DNA** الخلية إلى بروتينات و هذه البروتينات هي كل الحكاية .. هي من تحدد لون العيون .. طول القامة .. عمل الأنزيمات و بالتالي الخلية .. و كل تفصيل آخر من الكائن الحي .. دون الخوض في تفاصيل علمية معقدة أكثر .. و بالطبع كمية و نوعية هذه البروتينات يحددها التسلسل الجزيئي في جينات **DNA** الخلية و الذي يختلف بين شخص و آخر مما يمنح التفرد لكل كائن حي و لو كان من نفس النوع و الجنس ..

= مذهل بالفعل .. لكن أتعلم ما هو أكثر إذهالاً ؟

= ما هو ؟

= السؤال التالي : هل الكون برمته يمتلك **DNA** خاص به يحمل مصير الكون من البداية إلى النهاية .. هل كل هذه الفوضى الكونية مجرد وهم بصري يختبئ خلفه تنظيم فائق الدقة مبرمج مسبقاً بآليات معقدة و متطورة لا يزال الإنسان يجهلها ؟!

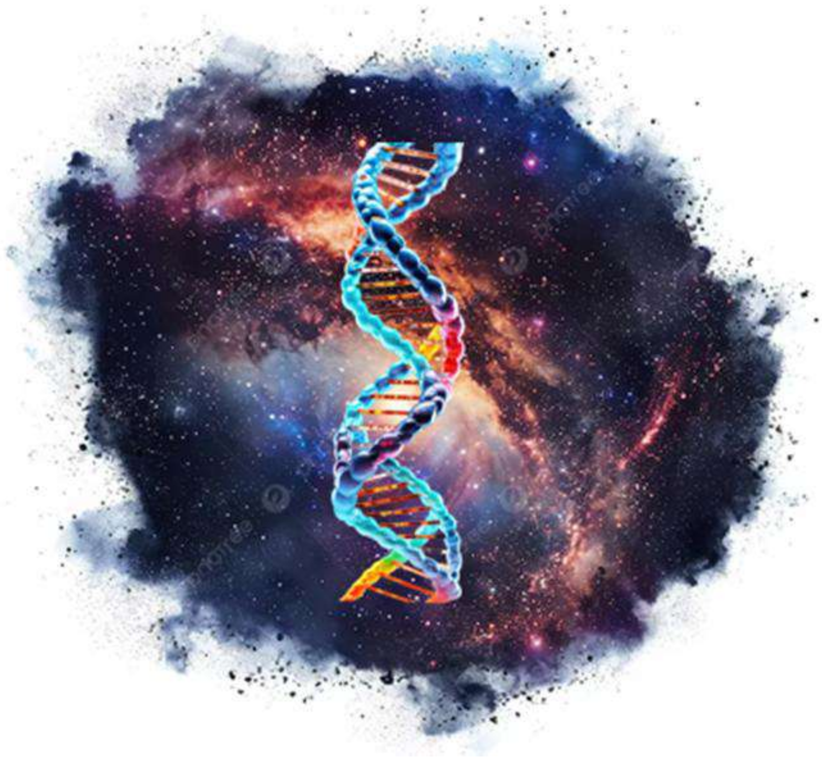

= محق .. سؤال غريب و ملهم يستحق التفكير به مطولاً .. فإن كان هنالك **DNA** للكون فربما تمكن العلماء ذات يوم من تحديده كما اكتشفوا **DNA** الخلايا ، و بالتالي كما نجح العلماء بعدها من التعديل الجيني و رسم الخارطة الوراثية للبشر ، قد يتمكنوا من رسم الخارطة الكونية و ربما أيضاً من تعديل مجريات الأمور عبر السفر بين أصقاع الكون أو رصد اللحظات الأولى من ولادته أو التنبؤ بمصيره الأخير !!

= و لا أستغرب حدوث ذلك فالعقل البشري لا ينفك يدهشنا بقدرته على الاكتشاف و الابتكار ..

******

في مغالطتنا الجديدة هذه سنحاول عزيزي القارئ أن نقارن بين الإنسان و الكون من زاوية فريدة .. زاوية **الشفرة الأساسية** التي وضعت مسبقاً قبل الخلق و تترجم الآن في مخلوقاته ، لنفهم سوياً هل هنالك تشابه بين الحالتين و ما مقدار هذا التشابه ؟.. و نستوعب أكثر آلية عمل هذه الشفرة أو البرمجة التي تتحكم بمصيرنا كبشر و بمصير الكون الذي نعيش فيه برمته ، و سنسعى لإنجاز ذلك عبر التطرق إلى النقاط التالية :

① **نبذة عن طبيعة DNA ..**
② **البرمجة المسبقة ..**
③ **التشابه بين DNA و الكون ..**
④ **هل يمكننا تغيير البرمجة ؟ ..**
⑤ **الفيروسات ، الطفرات و الخلل الكوني ..**

فهيا بنا في هذه المغامرة العلمية الفلسفية الشيقة ..

أولاً ، نبذة عن طبيعة DNA :

في أعماق كل خلية حيّة، هناك مكتبة صامتة لا تراها العين المجردة، مكتوبة بلغة غريبة تتكون من أربعة

أحرف فقط : **A**، **T**، **C**، **G**. هذه ليست مجرد رموز كيميائية لجزيئات نيتروجينية، بل هي الأبجدية التي يكتب بها الخالق قصة الحياة. جزيء **DNA** ، ذلك الحلزون المزدوج المتدرج في أناقته، ليس خيطًا عاديًا من الذرات، بل كتابًا سرّيًا يحوي جميع تفاصيل الكائن الحي قبل أن يخرج إلى الوجود.

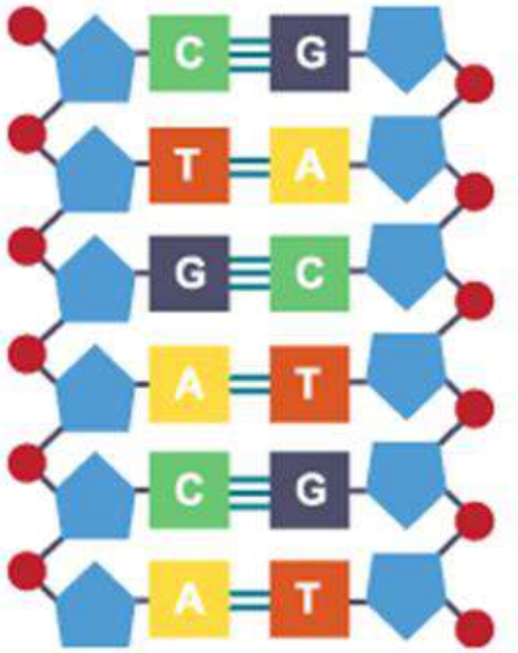

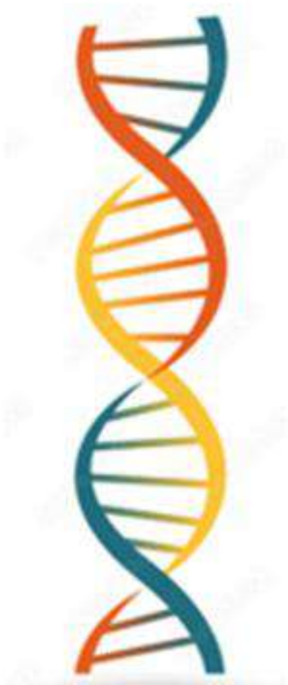

لو تأملت **جينًا** واحدًا من هذا الحمض النووي، ستدرك أنه بمثابة **تعليمات تشغيل** ، أشبه بكود برمجي يحدد كيف ستُبنى البروتينات، وكيف ستتشكل الأنسجة، وكيف ستتشابك الخلايا لتكوّن القلب أو العين أو الدماغ. كل ما سيظهر لاحقًا على السطح – من لون الجلد، إلى قوة العضلات، إلى قابلية الإصابة بمرض ما – موجود مسبقًا كاحتمال نائم في ذلك النص المكتوب داخل النواة.

خذ على سبيل المثال ألوان العيون. ليست الصدفة من جعلت عيني إنسان زرقاوين وأخرى خضراوين و ثالثة بنّيتين ... ما يحدد ذلك هو تتابع دقيق في الشيفرة : كيف صممت جينات الميلانين، وكيف يُوزَّع الصباغ البروتيني الناتج عن ترجمتها بكميات معينة في قزحية العين. القرار اتخذ منذ اللحظة التي اتحد فيها حيوان منوي ببويضة ، لم يكن المولود قد رأى النور بعد، لكن كتاب عينيه كان قد كُتب.

لكنّ **DNA** لا يكتب نصًا مغلقًا، بل يكتب إطارًا عامًا يترك مجالاً للتأويل. **فالبيئة، والتجربة، والعوامل الخارجية** كلها تتداخل لتحدد كيف تُترجَم هذه الشيفرة إلى واقع. الجينات قد تحمل استعدادًا لمرض السكّري مثلًا، لكن نمط الحياة قد يفتح الباب للمرض أو يغلقه.

إنه أشبه بمسرحية كتبها مؤلف حكيم، حيث تحدد الأدوار والشخصيات والمشهد الأساسي، لكن كل ممثل ما يزال قادرًا أن يلوّن أداءه بلمسة شخصية. فالشفرة تحدد البنية، لكن الحرية تكمن في التفاصيل.

إذا تأملنا طبيعة **DNA** ، سندرك أننا لسنا مجرد أجساد عابرة، بل نحن نصوص تمشي على الأرض. كل واحد منا هو **كتاب صغير** مكتوب بأبجدية الحياة ذاتها، لكن بصياغة مختلفة. وهذا الكتاب لا يخص الفرد

فقط، بل يحمل في داخله تاريخًا طويلًا ، آثار أجدادنا، تجاربهم، وحتى أخطاءهم .. فالطفل الذي يولد اليوم يحمل في جيناته أصداء أسلاف عاشوا قبل آلاف السنين. لون جلده، شكل عظامه، مقاومته لأمراض معينة، كلها انعكاس لرحلة طويلة كانت محفوظة بحرص في ذلك الحلزون المزدوج. وكأن **DNA** هو **ذاكرة الكائن الحيّ** ، أرشيف مكتوب بلغة كيميائية لكنه يعبّر عن معنى أبعد : معنى **الاستمرارية والخلود**.

إنّ **DNA** هو الدليل الأكبر على أن الحياة ليست صدفة، بل نصّ مكتوب بعناية، نصّ لا نزال نحاول قراءته سطرًا بعد سطر. وما يثير الدهشة أن هذه **الأبجدية البسيطة المكوّنة من أربعة أحرف** **A**، **T**، **C**، **G** استطاعت أن تنسج منها الطبيعة ملايين الكائنات المختلفة : من زهرة تتفتح في الصباح، إلى إنسان يتأمل السماء ويسأل عن معنى وجوده .. كائنات مختلفة فيما بينها حتى لو انتمت لنفس النوع و الجنس ..

إنه لسرّ ساحر أن يكون كل ما نحن عليه، وكل ما يمكن أن نصبحه، محمولًا في خيط كيميائي متواضع، لا يتجاوز طوله بضع نانومترات. كأن الكون أراد أن يخبئ أعظم أسراره في أصغر أماكنه، ليقول لنا :

(إن العمق لا يُقاس بالحجم، بل بالمعنى.)

ثانياً ، البرمجة المسبقة :

ليست البرمجة الحاسوبية التي نعرفها جميعاً مجرد صناعة تقنية أو لغة جامدة من أوامر و أكواد و تسلسل رقمين ذهبيين سحريين **0** و **1**، بل هي في جوهرها فلسفة الوجود نفسه.

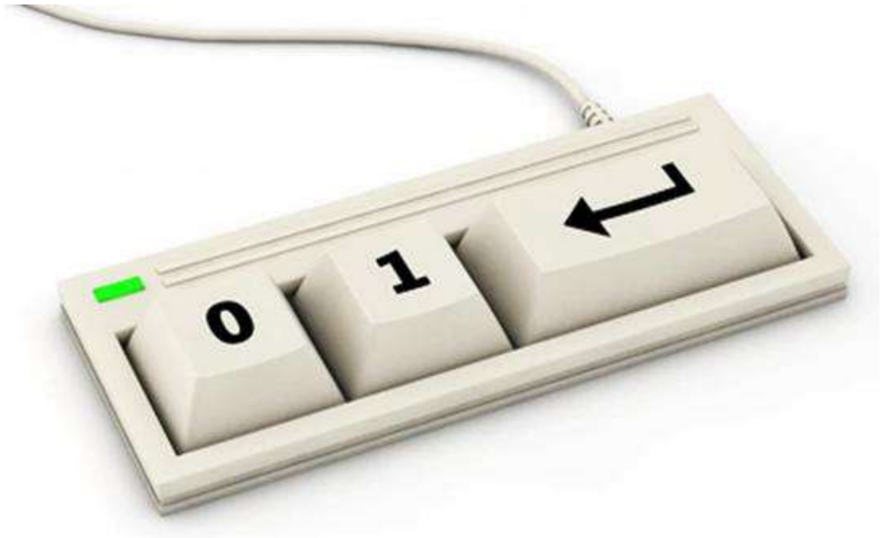

حين نكتب برنامجًا، فإننا لا نُنشئ النتيجة في اللحظة، بل نرسم مسبقًا كل ما سيحدث لاحقًا. السطر الأول يحدد الطريق الذي سيسلكه السطر الأخير، والحلقة المنطقية تُقرّر مسبقًا إلى أين سينتهي التدفق. حتى أعقد العمليات الحسابية، أو أعمق المحاكيات، أو أضخم الشبكات ، كلها لا تفعل شيئاً سوى تنفيذ ما كان مكتوبًا سلفًا في شفرة صامتة.

هذا هو جوهر البرمجة : أن تكون النتيجة محددة مسبقاً قبل أن تبدأ العملية بالأساس ، أن يكون المآل مرسومًا قبل الخطوة الأولى ، عبر ضبط تتالي الأحداث بآليات

علمية معروفة لا حاجة للخوض في تفاصيلها الآن.

الحاسوب، بكل قدراته المذهلة، ليس سوى خادم مطيع لشيفرة مكتوبة. لا يعرف **الحرية** ، ولا يؤمن **بالاحتمال** ، بل ينفذ ما بُرمج عليه، بدقة تصل إلى حدّ **الحتمية المطلقة**.

وهنا تتجلى المفارقة الفلسفية : ألا يشبه ذلك حال الوجود ؟ أليست الظواهر الكبرى – من حركة المجرات إلى تمايز الخلايا – خاضعة لشيفرة أزلية لا نراها ؟ **إذا كان البرنامج الحاسوبي البسيط الذي صممه الإنسان يحسم كل احتمالاته قبل أن يبدأ، فكيف بالبرنامج الكوني و البشري الذي كتب قوانينه من قبل الإله قبل الانفجار الأول ؟**

هكذا كل شيء من حولنا بدءاً من الخلية و انتهاء بالمجرة يسير وفق برمجة كتبت من قبل الخلق .. برمجة تكشف لنا أن الفوضى الظاهرية ما هي إلا نظام عميق مستتر. كود صغير يولّد فوضى بصرية هائلة، لكنها فوضى محسوبة. بل ربما حتى تفاصيل حياتنا التي تبدو مليئة **بالمصادفات**، ليست إلا مخرجات لشفرة برمجية أخرى لا نملك مفاتيحها كاملة حتى الآن .

ثالثًا ، التشابه بين DNA و الكون :

حين يلتقي العلم بالفلسفة، تتفتح أبواب لم نكن نتصوّر

وجودها. فما بين خلية حيّة تحمل في نواتها خيوطًا دقيقة من **DNA** ، وبين كون شاسع ولد من نقطة متناهية في الصغر، ثم تمدّد ليغدو محيطًا من المجرات والكواكب والنجوم، يكمن سرّ عجيب يوحي بأن ثمة قانونًا أعمق من كل قوانين الفيزياء والأحياء. قانون يربط بين الحرف الأول الذي كُتب في نسيج الجسد، وبين الكلمة الأولى التي انطلقت من فم الوجود.

إنّ **DNA** ليس مجرّد جزيء، بل هو كتاب صامت مكتوب بلغة رياضية دقيقة، يحمل في داخله الخطة الكاملة للكائن الحي قبل أن يخرج إلى النور. وكذا الكون، لم يبدأ فوضويًّا كما يتوهّم البعض، بل حمل منذ لحظة الانفجار العظيم شفرته الخاصة : مقدار طاقته، ثوابته الكونية، سرعته في التمدد، وحتى احتمالات نشوء الحياة على كوكب مثل الأرض. ما يبدو اليوم نتيجةً عشوائية، قد يكون في العمق انعكاسًا لبرنامج أزلي ينساب في عروق المادة كما ينساب الدم في الشرايين.

إننا حين نتأمل **DNA** نكتشف أن مستقبل الكائن الحي مكتوب في ماضيه. لون عينيه، ميلاده، حتى أمراضه المحتملة، كلها مرسومة داخل خريطة كيميائية عجيبة. والكون بدوره لم يترك مصيره للصدفة، بل خبّأ في اللحظة الأولى معادلاته التي ستقرر بعد مليارات السنين

موقع كل مجرة، ولون كل شمس، وربما حتى مصير كل كائن عاقل سيتساءل عن سبب وجوده.

هكذا يظهر التشابه : كما أن الشفرة الجينية تجعلنا نسير وفق برنامج محدد، فإن الكون بأسره يسير وفق شفرة كونية، هي **أشبه بكتاب عظيم لم نقرأ منه بعد سوى الفهرس**. نحن جزء من نصّ مكتوب منذ الأزل، نمشي على سطور لم نخترها، وإن توهّمنا أننا أحرار، و ما قيودنا الجينية سوى دليل دامغ على ذلك و لو كنا نجهل للحين قيودنا الكونية الأوسع و الأكثر إحكاماً ..

حين نقرأ هذا التشابه بين الخلية والكون، ندرك أن الحياة ليست صدفة عابرة، بل هي تكرار لنمط واحد يتردد على مستويات مختلفة. كما لو أن اليد التي كتبت **DNA** هي ذاتها التي خطّت معادلات الكون، وكأن كل ما نراه مجرّد طبقات متراكبة لكتاب واحد، كتاب الوجود .. **منتجات مختلفة لذات المصنع و ذات الآلات**.

فالخلايا التي تنقسم في أجسادنا، والنجوم التي تتوهج في السماء، كلتاهما تتبعان لحنًا واحدًا ، لحنًا مكتوبًا منذ اللحظة الأولى، يوم كانت كل الإمكانات متشابكة في نقطة صغيرة، ثم انفجرت لتصبح كل ما هو كائن .. لذا قال الإمام **علي** ذات مرة :

و تزعم أنك جرمٌ صغير

و فيك انطوى العالم الأكبر

و لعل الحكمة الأعمق هي أن نفهم أننا لسنا خارج هذا البرنامج الكوني، بل نحن جزء من شفرته. إن وعي الإنسان ليس إلا إحدى الجمل التي قرر الكون أن ينطق بها، والجملة لم تأتِ صدفة، بل جاءت في مكانها، كحلقة في قصيدة أبدية .. فالفنان البارع ليس بحاجة لخشبة مسرح ينثر عليها إبداعاته فحسب ، بل لجمهور محتشد يقيم و يقدر تلك الأعمال .. لذا كان البشر جزءاً من لوحة الكون العظيمة ..

رابعاً ، **هل يمكننا تغيير البرمجة** ؟

هل تعني البرمجة المسبقة أن كل شيء محسوم ؟

في الحقيقة هنا تكمن المفارقة ، ما يبدو مكتوبًا مسبقًا لا يسلبنا معنى الحرية، بل يضعها في إطار أوسع. نحن

أشبه بقصيدة مقفّاة، حرية الشاعر محدودة بالوزن والقافية، لكنه داخل تلك الحدود يملك فضاءً رحبًا ليختار كلماته ويصنع موسيقاه. كذلك نحن، مبرمجون داخل قوانين كبرى، لكننا نلوّن تفاصيل الطريق بما نشاء.

إنّ **DNA** لا يُنتج جسدًا واحدًا جامدًا غير قابل للتعديل ، بل يفتح احتمالات مختلفة تتفاعل مع البيئة والظروف ، فلون بشرتك يتغير تحت أشعة الشمس ، و طول قامتك يزداد عند تعاطيك لهرمون النمو و قس على ذلك من حالات .. بل أبعد من ذلك يمكننا اليوم التلاعب بالجينات ، و اختيار مواصفات معينة دوناً عن سواها ، و تحسين التسلسل الجيني عبر الأجيال ..

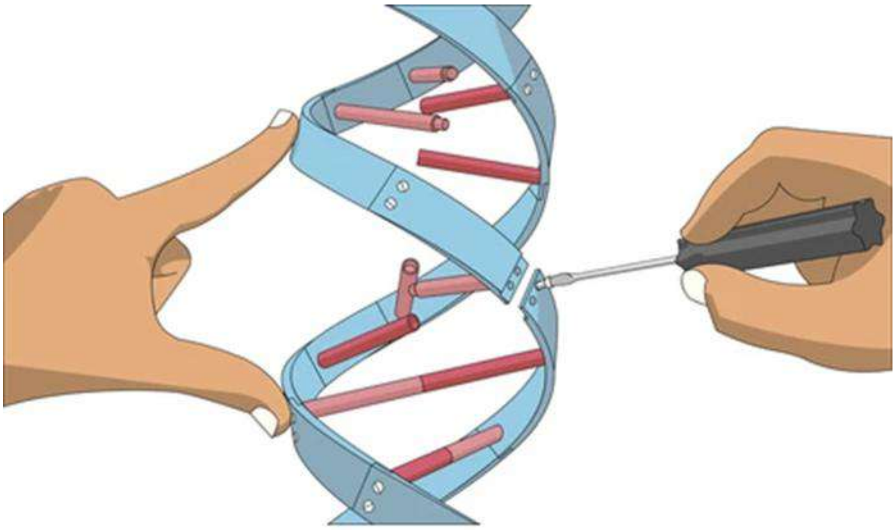

أما الكون بدوره فليس مسرحًا مغلقًا، بل نصًّا مفتوحًا يتجلّى في تنوّع لا نهائي .. صحيح أننا نراه حتى اللحظة محكوماً بقوانين و ثوابت لا تتزعزع .. لكن ذلك ظرفي بحت .. فالإنسان كان قبل قرن من الزمن

يجهل حقيقة أن صفاته كلها محمولة على جزيء **DNA** لكنه بعدما اكتشفه تمكن من تطويع هذا الجزي كيفما أراد ، و من يدري ، لعلنا ذات يوم نكتشف **DNA** الكون ، و عندها سيصبح التلاعب بأجرامه أمراً يسيراً لنتمكن من السفر عبر أصقاعه الواسعة أو تلافي كوارثه المحتملة .. !!

خامساً ، **الفيروسات** .. **الطفرات** .. **الخلل الكوني**.

كل نظام عظيم، مهما بلغت دقته، يظل معرّضًا لخلل، كأنه يذكّرنا بأن الكمال ليس سوى فكرة معلّقة في فضاء المثالية . فالخلية الحيّة تحمل في نواتها شفرة دقيقة تُبنى عليها حياة كاملة، لكنها أحيانًا تتعرض لطفرة جينية : تغيير حرف واحد في نص طويل قد يغيّر مصير كائن بأكمله. وقد يكون التغيير بسيطًا لا يُذكر، أو كارثيًا يولّد مرضًا وراثيًا يطبع الأجيال اللاحقة.

وفي عالم الحاسوب، نجد الصورة ذاتها : برنامج محكم يُدار وفق أكواد مكتوبة بعناية، فإذا اقتحمته فيروسات برمجية، حدث التشويش. الفيروس ليس أكثر من شيفرة دخيلة، لكنها كفيلة بإفساد المسار الطبيعي، بإعادة توجيه الأوامر أو تعطيلها. وما يشبه الخلية المريضة هو الحاسوب المشلول، كلاهما أسير خطأ صغير اخترق النص الأصلي.

أما الكون، فهل هو في مأمن من الخلل ؟

الفلاسفة والفيزيائيون طالما تساءلوا ، ماذا لو اختلّت ثوابت الطبيعة قليلًا ؟ لو تباطأ تمدد الكون أو تسارع خارج المعادلة المثالية ؟ إنّ أي اضطراب في تلك التوازنات الدقيقة قد يؤدي إلى فوضى شاملة، كأن المجرة نفسها أصيبت بطفرة أو فيروس، يعصف بنظامها ويغيّر مسارها.

ومع ذلك، ثمة ما يثير الدهشة ، كل نظام يحمل داخله آليات للحماية أو التصحيح. الخلية لديها **بروتينات** مسؤولة عن إصلاح **DNA** ، وكأنها لجان تدقيق تعيد ترتيب النصوص المتضررة. والبرمجيات تُحصَّن **بجدران نارية ومضادات فيروسات**، أدوات تراقب وتصحّح وتمنع الاختراق.

والكون بدوره يحمل قوانينه التي تعمل كشبكة أمان :

الجاذبية ، الديناميكا الحرارية ، التوازنات الكمية ،
جميعها تكبح الفوضى وتحفظ الانسجام .. و لا أستبعد إمكانية حدوث أخطاء كونية مستمرة نجهلها للآن ، لأن الكون يقوم بتصحيحها على الفور كي يبقى متماسكاً ..

إنها مفارقة مدهشة : الخطأ جزء من اللعبة، لكنه ليس النهاية. فالطبيعة تترك مجالًا للخلل، ثم تمنح نفسها قدرة على الإصلاح. وكأن الحياة والآلة والكون كلّها كتبت شفراتها على نحو يوازن بين إمكان الانحراف وإمكانية العودة.

و لعلّ الحكمة الأعمق هنا أن الخلل ليس ضد النظام، بل هو دليل على وجوده؛ إذ لا معنى للصواب من دون احتمالية الخطأ. وما يهمّ حقًا ليس أن لا يحدث الخلل، بل أن توجد دائمًا آلية تعيده إلى مساره، كأن كل شيء في النهاية مبرمج مسبقًا كي يستعيد توازنه مهما اضطرب .. و هذه ليست عبارات عابرة ، بل جوهر فلسفة الخلق : **أنت خلقت لتخطئ ثم لتتعلم من أخطائك كي لا تخطئ لاحقاً في دار لا تحتمل الخطأ أو الخطيئة**

******

في ختام مقاربتنا لمغالطتنا الجديدة (**DNA الكون**) ، من الأنسب ألا نقول بعد الآن :

= الكون كما الحياة فوضى عارمة و عشوائية بلا هدف

واضح ..

بل أن نقول :

= لا شيء يحدث في هذه الحياة عبثي بدءاً منك كإنسان و انتهاءً بالكون كله .. فالحياة بكافة تفاصيلها مبرمجة مسبقاً لتسلك سيناريو معين ، و كأنّ قصتها كلها مكتوبة على **DNA** الكون و يتم ترجمتها توالياً على امتداد الزمن .. و جهلنا لتكوين و آلية عمل هذا **DNA** لا يعني أنه غير موجود ، فمنذ عقود قليلة خلت كنا نجهل وجود **DNA** الخلية و طريقة عمله ، لكننا اليوم بتنا نفهمه جيداً بل نتلاعب به أيضاً ..

الكون كتاب مهيب، جزيء **DNA** هو سطره الأول ، والبرمجة صداه في عقولنا.. كل كيان يولد من شفرة سبقت وجوده، نصّ خفي يوجّه مصيره قبل أن يتشكل.

العشوائية وهم، فما نراه فوضى ليس إلا نظامًا يترجم لغة أزلية.. ونحن، ما نحن إلا كلمات في قصيدة كونية كتبت مسبقا قبل البداية و تُتلى حتى النهاية بلا انقطاع.

و أنا على يقين أننا على موعد قريب مع اكتشاف **حجر رشيد اللغة الكونية** .. الذي سيمنحنا فرصة فهم آلية برمجة الكون بشكل دقيق ..

جسد للإيجار

(بل الإنسان على نفسه بصيرة)

جسد برتبة سيارة أجرة ..

في أحد الأحياء النائية في مدينة **كارلسباد** من ولاية **نيو مكسيكو**، حيث الشمس تلسع الأرض القاحلة كأنها تعاقبها، كانت **سينتيا** تتمشى بخطى ثقيلة وسط شارع ترابي لا يُفضي إلى شيء سوى المزيد من الفقر. كانت في الرابعة والعشرين من عمرها، نحيلة القوام، ذات وجهٍ ساطع كالبدر ليلة تمامه لا يشي بالبؤس الذي تجرّه خلفها. بشرتها السمراء كانت تلمع بلجين الجنوب، وعيناها السوداوتان تبرقان بما يشبه التمرد، لا البراءة. شعرها الطويل كجناح الليل كان متمردًا كطبعها، ينسدل على كتفيها بانسيابية لا تعبّر إلا عن رفضها لصورة الفتاة المتعبة التي لا تعرف إلا التكرار.

عاشت سينتيا في بيت متداعٍ، تؤثثه صرخات إخوتها السبعة، ومائدةٌ لا تكفي الجميع. الأب يعمل حارسًا ليليًا في مستودع، والأم تخيط الثياب بأجر زهيد. الفقر لم يكن حالة مؤقتة في هذا البيت، بل قدرًا مستمرًا. ومع ذلك، لم تكن سينتيا من النوع الذي يرضى بالقدر. منذ طفولتها كانت تقول لأختها الكبرى :

= لا أريد أن أعيش وأموت هنا. لا أريد أن أكون نسخة من أمي.

كانت تؤمن بشيء واحد فقط : لا أحد سيمنحها الخلاص

سوى نفسها، لكن بأي طريقة ؟ لم تكن تملك شهادة، ولا موهبة لافتة، ولا مهارة تُباع في السوق. لم يكن لديها سوى جسدها، وكانت تدرك منذ مراهقتها أن الرجال ينظرون إليها كشيء مرغوب بقوة. فكرة الثراء لم تكن حلمًا بريئًا بل خطة محمومة.

تركت سينتيا بيتها دون وداع. حملت حقيبة مهترئة وبعض النقود التي ادّخرتها من عملها الجزئي كنادلة، وسافرت إلى المدينة الأقرب. هناك، وفي أحد النوادي الليلية، التقت بامرأة تدعى **لونا** ، كانت تبدو أنيقة، واثقة، غامضة. عرضت عليها عملاً لا يتطلّب شهادات ولا خبرات : فقط حضور طاغٍ و جسد مغري .. و لم تتردد .. قطفت التفاحة .. فقد كانت الفاكهة الوحيدة في سلة إمكانياتها و لو كانت محرمة ..

كانت البداية سهلة... راقصة تعري تغوي الذكور الهاربين من بؤس حياتهم اليومية و مشاكلهم العائلية و المهنية إلى حضن دافئ أو ملتهب ، عشاء بعدها، ثم لقاء حميمي خاص، فبدأ المال يتدفق. ثياب فاخرة، فندق خمس نجوم، عطر فرنسي .. و بدأت الحياة التي طالما حلمت بها تتشكل ملامحها من حولها ..

ولكن في المرآة... شيء ما بدأ يتغير. القمر بدأ ينخسف و يذوي تدريجيا خلف ضمير ميت ، وكان في عينيها غربةٌ عن نفسها.

شيئًا فشيئًا توسعت مهامها، أصبحت عضوة في شبكة منظمة للبغاء، تديرها وجوه لا تُظهر نفسها، وتهندس حياة الفتيات كقطع على رقعة شطرنج. كانت السيناريوهات متشابهة : رجال أعمال، سياسيون، أجانب، لقاءات قصيرة، مبالغ طائلة. لم تكن سينتيا ترفض شيئًا، فقد وجدت أخيرًا ما اعتبرته طريق الخلاص.

لم يمر وقت طويل حتى عرفت العائلة بما حدث. وصلهم الخبر كطعنة في الروح. الأم بكت بحرقة، الأب صمت كأن شيئًا مات فيه، الأخوة تنكّروا لها، وأختها كتبت لها رسالة أخيرة :

= قد تفقدين كل شيء، لكن لا تفقدي نفسك.

لكن سينتيا لم تكن مستعدة للتخلي عن المال. رغم أنها في كل مرة كانت تغسل جسدها بعد علاقة جسدية عابرة جديدة ، تشعر كأن شيئًا قذرًا لا يُزال ملتصقاً بجسدها، كانت تبتسم أمام المرآة وتقول لنفسها :

= أنا بخير... أنا ثرية و .... حرة.

لكن نظرة الزبائن كانت تصفعها أكثر مما تلامسها أيديهم. نظرة دونية، مشمئزة، كأنها سيارة أجرة يتناوبون على استقلالها الى محطة الشهوة و المتعة .. لم تكن تلك النظرات تؤلمها فقط، بل كانت تقتل شيئًا في أعماقها. ومع كل صمت تنغمس فيه بعد لقاء، كانت تسمع صوتًا داخليًا يقول :

= أهذا هو الخلاص الذي سعيتِ له .. غيشة جنسية لارضاء شهوة ذكور لا تعرفينهم ؟

و بين خيار العودة إلى الفقر و استرداد نفسها و طهارتها بالتخلي عن هذه الحياة، أو البقاء كدمية مزينة يُدفع ثمنها، لم يكن القرارسهلاً. الليل كان طويلًا وثقيلًا، والوسادة لم تعد مكانًا للراحة بل للشوك.

*****

الخطيئة كفخر و سلم للأعلى ..

في لحظة انكسار، اتخذت سينتيا القرار الذي سيبدّل

ملامح روحها إلى الأبد.

قابلت في ذات مرة زبوناً جديداً يدعى **جان** ، زعيم طائفة تُعرف بسرية وطقوسها الغريبة. وجدت فيه ركن ثقة تحتاجه بشدة كي تبوح بهمومها .. لذا بعد أن أفرغ شهوته فيها ، أفرغت قصتها و همومها على مسامعه .. و كأن جان كان بانتظار هذه الحالة ، عرض عليها الانضمام لطائفتهم التي تعبد الشيطان، ليس ككيان خرافي، بل كرمز للتمرّد والقوة والحرية المطلقة من كل قيد.

قال لها :

= هناك، لا أحد يلومك على ما تفعلين... هناك أنتِ سيدة نفسك.. المتعة و الاستقلالية و الحرية سلم يقودك للأعلى لا يهوي بك الى الأسفل ..

وسرعان ما وجدت في ذلك عالمًا يعفيها من شعورها بالذنب، حيث الإباحية ليست عارًا بل وسيلة ترقٍّ، وحيث الجسد ليس بضاعة بل شعيرة.

شاركت سينتيا في أول طقس داخل قاعة واسعة من الحجر الأسود، تملؤها الشموع الحمراء ورموز نجوم خماسية مشقوقة، وجماجم بشرية مرصوفة بدقة. وقفت نصف عارية وسط الدائرة، وقُدّمت باسمٍ جديد :

ليليث الثانية .. لكن من هي ليليث الأولى ؟!

ظهرت ليليث لأول مرة في النصوص السومرية حوالي **2000** سنة قبل الميلاد، وكان يُنظر إليها ككائن روحاني شرير، من الرياح أو العواصف ، و أحيانًا كمخلوق ليلي متمرد كرمز للشهوة و الانصياع لها.

و في ملحمة غيلغامش ، ورد اسم ليليتو ككائن شيطاني يعيش في شجرة مقدسة.

أما في التقاليد اليهودية (التلمود والمصادر الكبالاوية) ، فتُعتبر ليليث أول امرأة خلقها الله مع آدم، لكنها رفضت أن تخضع له، لأنها رأت نفسها مساوية له في

الخلق. فتركت آدم وهربت من الجنة، واختارت الاستقلال والحرية، فاستبدلها الله بحواء.. أصبحت بعدها شيطانة تُغوي الرجال وتؤذي الأطفال حديثي الولادة.

ورد ذكرها في التلمود البابلي بوصفها **أم الشياطين** و **عاشقة الليل**

أنشد الحاضرون تراتيل بلغات غريبة، وقُرئت نصوص تدعو لخلع كل قيد ديني أو اجتماعي أو أخلاقي. أُهديت سينتيا قلادة بشكل قرني الشيطان، ارتدها وأقسمت بدمها أن لا تعود للوراء.

كانت هناك، لأول مرة، محاطة بوجوه لا تزدريها، بل تمدح جرأتها، تمجّد جسدها، وتعدها بمناصب داخل التنظيم كلما أثبتت ولاءها .

وكانت مستعدة.

ظنّت سينتيا أنها وجدت نفسها، لكن ما لم تدركه هو أنها لم تعد تمتلك تلك النفس أصلاً. جسدها بات رمزًا للتسلّط، روحها مسحوقة تحت كعب شيطاني. لم تعد تشعر بالخجل، لأن الخجل مات. لم تعد

تخاف من المجتمع، لأنها تركته خلفها.

لكنها كل ليلة، بعد أن يهدأ صوت الموسيقى الشيطانية، وبعد أن تنطفئ الشموع وتغلق الأبواب... كانت تعود إلى سريرها وحيدة. هناك فقط، يتسلل صوت الطفلة البريئة التي كانت، ويهمس :

= لم نكن نحلم بهذا يا سينتيا... لم نرد هذا.

لكن لا أحد يجيب. فقد ماتت سينتيا التي كانت... وولدت أخرى لا تعرف لنفسها اسمًا سوى الظل، و لا مصير الا النهاية المؤقتة.. أو البداية الحقيقية للسقوط النهائي ..

****

أنت لم تعش طفولتي البائسة .. أنت لم تتعرض إلى التحرش كما حدث معي .. أنت لا تشعر بذل الحاجة إلى المال .. لذا لا تنظر عليّ حول عملي في الإباحية

عبارات متنوعة يكررها كثيرون اتخذوا من الإباحية بشتى أنواعها مهنة لهم و مصدر رزق .. يبيعون روحهم قبل جسدهم في مهنة بسيطة ، لا تتطلب جهداً و

لا تشترط خبرات أو شهادات .. و ربما كما يقول البعض تمنحهم متعة دائمة أيضاً ..

فهل الحجج السابقة التي يتذرعون بها تعتبر مبرراً حقيقياً لسلوكهم هذا الطريق الذي حرمته السماء ، أم أنها محض مغالطة عارية من تلقاء نفسها و لا تحتاج لكشف النقاب عنها بالأساس ؟! ..

هذا ما سنحاول معرفته سوياً خلال الصفحات التالية حيث سنفهم بالضبط سيكولوجيا الإباحية ، لماذا حرمتها السماء ؟ و ما الحل المناسب لها ؟ و ذلك عبر النقاط الأربعة التالية :

① تاريخ الإباحية ..

② ذريعة منطقية أم حجة واهية ..

③ لماذا الإباحية محرمة في الدين ؟

④ لا مهرب من السماء إلا إلى السماء !!

فهيا بنا عزيزي القارئ في هذه المغالطة الحساسة و الهامة للغاية تبعاً لواقع الإباحية السائد اليوم ..

أولاً ، تاريخ الإباحية :

منذ أن بدأ الإنسان الأول يرسم على جدران الكهوف صور الطقوس والآلهة والخصب، كان الجسد حاضراً بسطوته، شاهداً على سرّ الحياة ومفتاحاً للغزها. لم يكن

الجسد مجرد أداةٍ للبقاء، بل معبداً صغيراً يختزن الرغبة في الخلود، وفي داخله يختبئ العبور من العدم إلى الولادة. ومن هنا، يمكن القول إن بذور صناعة الإباحية وُلدت مع الوعي الأول للإنسان بنفسه وجسده، حين تحوّلت الرغبة إلى رمز، والرمز إلى طقس، والطقس إلى فن أو تجارة.

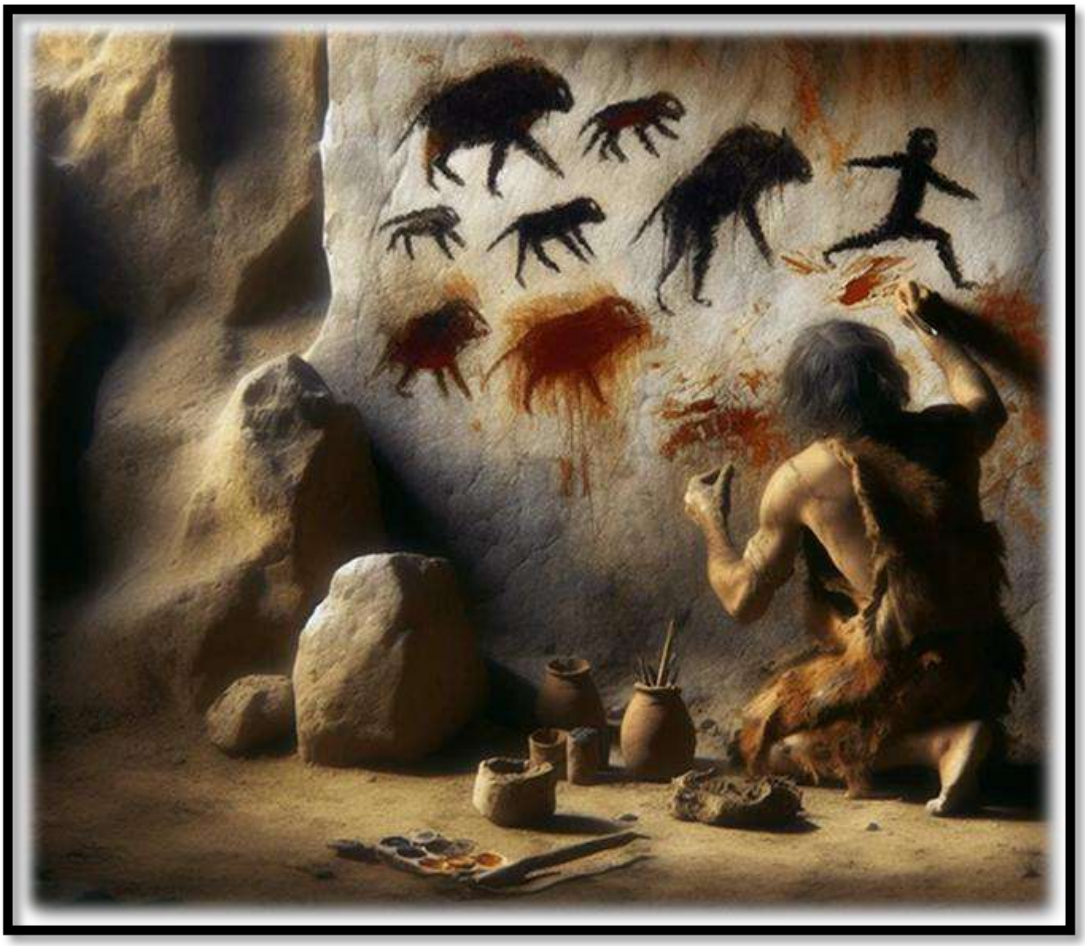

في الحضارات القديمة – من سومر وبابل إلى مصر واليونان – لم يكن تصوير العري ولا ممارسة الطقوس الجنسية أمراً معيباً بالضرورة؛ بل ارتبط بالخصوبة والقداسة. في المعابد كانت الكاهنات يُجسّدن طقوس الزواج المقدس ، حيث يلتقي الجسد بالروح في احتفال

يربط الإنسان بالكون. ومع تطور المجتمعات، أخذ هذا البعد المقدّس ينزاح شيئاً فشيئاً نحو الاستغلال التجاري والتمثيل المسرحي : من النقوش الإيروتيكية في بومبي، إلى المخطوطات المزخرفة في الصين والهند، ثم إلى لوحات عصر النهضة التي لم تخجل من تمجيد العري كجزء من جمال الإنسان ..

و على مسارٍ موازٍ للإباحية البصرية كانت المتاجرة بالجسد تسلك الاتجاه ذاته بمنحنى تصاعدي ..

ومع دخول العصور الحديثة، ومع ابتكار الطباعة والتصوير ثم السينما، تحوّل الجسد إلى سلعة بصرية، يمكن نسخها آلاف المرات وتصديرها إلى كل بيت. وفي القرن العشرين، مع صعود هوليوود والتكنولوجيا الرقمية، بلغت الإباحية شكلها الصناعي الحالي :

منظومة هائلة تحكمها قوانين السوق، تغذّيها الرغبة، ويؤطرها الخيال، وتدعمها شبكات الإنترنت التي جعلت من الجسد سلعة متاحة على مدار الساعة، من دون وسيط ولا حدود .. كما أصبحت هنالك مؤسسات مشرعة قانونياً لتجارة الجنس و الجسد حول العالم ..

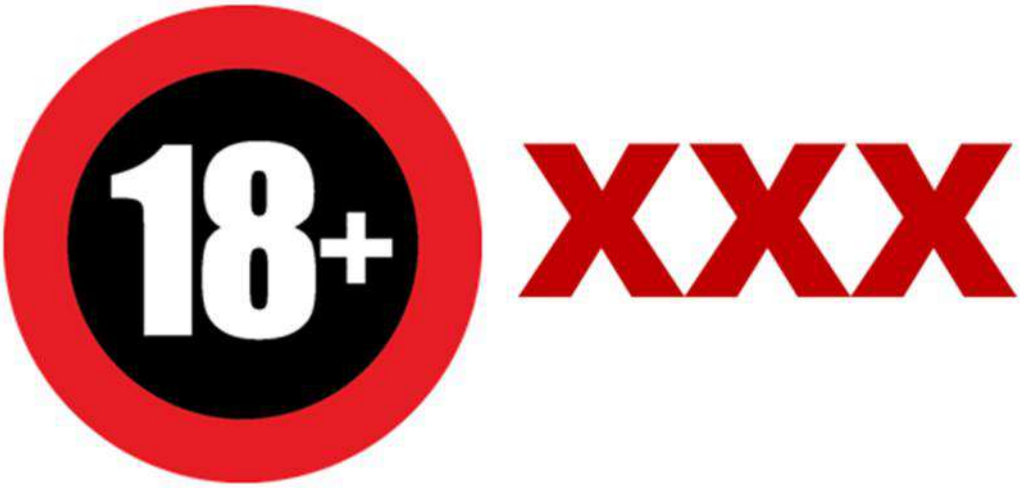

لكن، لماذا – رغم التقدم والتكنولوجيا والعقلانية – يظل لهذه الصناعة هذا الرواج الكاسح ؟

الجواب لا يكمن في مجرد **الفضول الجنسي** ، بل في طبقات أعمق من النفس الإنسانية. الإباحية تلبّي حاجة مزدوجة : **حاجة إلى اللذة، وحاجة إلى الوهم**. فالإنسان مخلوق يتأرجح بين جسد محدود وزمن قصير، وروح تطمح إلى اللامحدود والخلود. في الإباحية، يجد الفرد لحظةً من الانفلات من قيود الواقع؛ لحظة يظن فيها أنه يملك الجمال، والقدرة، والسيطرة، ولو عبر شاشة باردة أو مع جسد يمثل .. إنّها وعدٌ زائفٌ بالخلود، لكنه وعد

يتجدّد مع كل مشاهدة و علاقة ..

ثمّة أيضاً بعدٌ فلسفي أعمق : **الإباحية هي انعكاس لعجز الإنسان عن مواجهة وحدته**. فالآخر، حين يتحوّل إلى صورة أو جسد مستهلك، يصبح بديلاً عن العلاقة الإنسانية المعقّدة، التي تتطلب جهداً وصبراً وحواراً. إنها تعويض سريع عن شوق قديم إلى الحميمية، لكنها في الوقت ذاته تكشف عطش الإنسان المستمر إلى معنى يتجاوز اللذة ذاتها. من هنا يمكن القول إن رواج الإباحية هو مرآة لحالة الحضارة الحديثة : حضارة فائقة السرعة، مشبعة بالصور، لكنها جائعة للمعنى.

ولا بد أن نذكر أن في هذا الرواج **جانباً سياسياً واقتصادياً** أيضاً : الإباحية صناعة رأس المال في أنقى أشكاله، تستغل أقدم الغرائز لتضمن أكثر الأرباح ، وتعيد تدوير الوهم لبيع نفس الصورة بمليون نسخة. ومع ذلك، تبقى هذه الصناعة قائمة لأن الإنسان، مهما بلغ من عقلانية، يظل مسكوناً بالحنين إلى الجسد، وإلى لغز الرغبة الذي لا يزول.

في النهاية، يمكن القول إن الإباحية ليست مجرد صناعة للمتعة، بل ظاهرة ثقافية وفلسفية، تعكس علاقة الإنسان بجسده، وبالآخر، وبزمنه القصير على هذه الأرض. إنها في جوهرها سؤال وجودي : **هل يبحث الإنسان عن الجسد الآخر، أم عن ذاته المفقودة في مرآة الرغبة ؟**

ثانيًا ، ذريعة منطقية أم حجة واهية :

منذ أن عرف الإنسان ذاته، عرف هشاشته. وكلما انفتح وعيه على جراح الطفولة، أو ذكريات القسوة، أو فقر اليد، تسلّل إلى داخله صوتٌ يقول : (أنت ضحية... وما دمت ضحية، فكل ما تفعله مبرَّر) .. وهنا تنشأ المعضلة : هل ما يُسمى بالحجج المنطقية لمشاهدة الإباحية أو ممارسة تجارة الجسد – كطفولة معذّبة، أو تحرش سابق، أو حاجة للمال – هي بالفعل مسوغات حقيقية؟ أم أنها مجرد أقنعة وهمية تخفي استسلاماً مريراً أمام التجربة الإنسانية القاسية؟

لا أحد ينكر أن الطفولة الجريحة تترك ندوباً غائرة، وأن الفقر يضغط على القلب كما تضغط الصخور على صدر الغريق، وأن التحرش يهز كيان الإنسان في صميمه. لكن، لو كانت تلك الأسباب وحدها كافية لتفسير اختيار طريق الإباحية، لكان العالم كلّه يغرق فيها. كم من رجال ونساء عاشوا المآسي نفسها، وربما أفظع، ومع ذلك اختاروا مسارات مختلفة : من التفوق الأكاديمي، إلى الفن، إلى بناء أسر كريمة. إذن فالمسألة لا تُختزل في الجرح، بل في طريقة التعامل معه.

الفلسفة العميقة تكشف لنا أنّ الجسد حين يُباع لا يكون ثمناً للفقر وحده، بل نتيجة لوعيٍ اختار أن يرى ذاته

سلعةً لا روحاً. هنا يكمن الخطر : أن يتحوّل الألم من تجربة قاسية إلى ذريعة مريحة. فالذريعة تريح صاحبها لأنها تجنّبه مواجهة السؤال الأصعب : (هل أستطيع أن أنهض من تحت الرماد؟). مواجهة هذا السؤال تحتاج إلى شجاعة، بينما الاستسلام لذريعة "**الظروف**" يقدّم خلاصاً سهل الهضم، حتى لو كان زائفاً.

لكن الإنسان، في أعمق طباعه، ليس مخلوقاً أسيراً لجراحه. فيه قدرة غامضة على إعادة الخلق من العدم، كما تنبثق الزهرة من بين الحجارة. يستطيع أن يطلب **العلاج النفسي**، وأن يمدّ يده إلى المعالج كما يمدّها الغريق إلى قارب النجاة. يستطيع أن ينهض بإرادته، فيحيل ماضيه إلى وقودٍ للمستقبل لا إلى قيودٍ تمنعه من السير.

والأبعد من ذلك، أنّ الإنسان يمكنه أن يحوّل ألمه إلى طريق نحو القداسة. إن أُغلقت أمامه أبواب العمل والمال، فثمة أبواب أخرى لا تُغلق : **باب الله، باب الروح، باب الرسالة**. كم من نفوس مكسورة وجدت ملاذها في الترهبن، فحوّلت عزلتها إلى صلاة عميقة تغذي الكون بالمحبة. وكم من قلوب جريحة التحقت بجمعيات خيرية، فأحالت جراحها إلى نور يضيء درب الآخرين، محذّرة من هاوية الإباحية وتجارة الجسد، شاهدة بأن الجرح يمكن أن يكون بذرة خلاص لا لعنة

أبدية .. فالسؤال هنا ببساطة هو : لماذا اخترت الإباحية بدلاً من الترهبن ، فكلاهما حل لمشكلتك لكنك اخترت الطريق الأسهل مع سبق الإصرار .. و كما يقول الله : (**بل الإنسان على نفسه بصيرة و لو ألقى معاذيره**) ، بمعنى أن الإنسان يدرك بوعي أنه يتحمل المسؤولية و لم يجبر على السير في طريق وحيد الاتجاه و بلا مفارق !!

الإنسان، في جوهره، ليس مرهوناً بماضيه، بل بخياره. وهنا يتجلّى الفارق بين من يختار أن يبقى ضحية الأقدار، ومن يقرر أن يكون شاهداً على قدرته الإلهية الكامنة. الفقر قد يحني الظهر، لكنه لا يسلب الروح. التحرش قد يترك ندبة، لكنه لا يطفئ شعلة الكرامة. الطفولة المعذّبة قد تكسر القلب، لكنها لا تمنع صاحبه من إعادة صياغة ذاته من جديد.

في النهاية، تبقى تجارة الجسد مرآة مزدوجة : في سطحها الأول ينعكس **خطاب المبررات**، وفي عمقها

يتجلّى **سؤال الإرادة**. والجواب الحقيقي لا يُكتب بالحجج وحدها، بل يُكتب بالدمع الذي تحوّل إلى صلاة ، وبالجرح الذي أزهر و صار طريقاً إلى شفاء الآخرين.
إن الإنسان الذي ينهض بعد انكسار، ويختار أن يوجّه جسده وروحه نحو المعنى، هو الشاهد الأصدق على أن الحرية ليست في الاستسلام للشهوة أو الفقر، بل في القدرة على أن يقول : (أنا لست ضحية... أنا بداية جديدة) ..

ثالثًا ، لماذا الإباحية محرمة في الدين ؟

منذ الأزل، والإنسان يبحث عن معنى يضبط اندفاع غرائزه، ويهدي روحه وسط الفوضى. فجاء الدين ليضع مرآة أمامه : مرآة تكشف أن اللذة ليست غاية الوجود، وأن الجسد ليس سوقاً يُعرض فيه بلا ضابط.
ومن هنا، حين حرّم الدين الإباحية، لم يكن ذلك نزوة تشريعية أو تضييقاً على حرية الإنسان، بل كان حكمة عميقة تحرس جوهر الروح من الانحدار، وتحفظ توازن النفس من الانكسار.

الإباحية تُحيل الجسد – وهو في الأصل معبدٌ صغير تسكنه الروح – إلى سلعة تباع وتشترى. والروح، حين ترى نفسها محصورة في حدود الشهوة، تفقد جناحيها.
الدين إذ يحرّم هذه الصناعة، فهو في الحقيقة يصون للإنسان سموه، ويذكّره أنّ اللذة ليست غاية بذاتها، بل

طريق يُعاش في ظلّ المحبة الصادقة والارتباط الروحي العميق. **فحين يُختزل الجسد إلى مجرد مشهد عابر، يُختزل معه الوجود كله إلى فراغ بلا معنى.**

ليست الإباحية مجرد صورة تُرى، بل أثر يترسّب في الدماغ والجسد. أظهرت دراسات أن الاستغراق في مشاهدها يغيّر كيمياء المخ، ويعيد تشكيل مراكز اللذة بطريقة تشبه الإدمان، حتى يصبح الإنسان أسيراً لرغبات لا تشبع. الجسد يضعف، الطاقة تتبدد، والروح تتوه في دوامة. الدين إذ يمنع ذلك، فهو يمنع أن تتحول أسمى طاقة في الإنسان – طاقة الخلق والحب – إلى نزيف دائم لا يعرف الاكتفاء.

في قلب كل مجتمع خيط خفي من الثقة : ثقة بين الزوجين، بين الآباء والأبناء، بين الجار وجاره. الإباحية تقطع هذا الخيط، لأنها تزرع الخيانة في الخيال قبل أن تقع في الواقع. تُحوّل العلاقات إلى تبادل منافع، وتُشعل مقارنات جارحة، فتتصدّع الأسر، وتتشقق البيوت، ويزداد العزوف عن الزواج. بتحريمها، الدين يحرص على حماية نسيج المجتمع من التآكل، وعلى بقاء العلاقة الإنسانية مبنية على عهد لا على صورة عابرة.

الإباحية تُجرد الإنسان من حرمته، وتحوله إلى جسد بلا اسم. الأخلاق، في جوهرها، اعتراف بكرامة الآخر

ككائن كامل، لا كسلعة للنظر والاستهلاك. حين يحرّم الدين الإباحية، فهو يعيد لكل إنسان اسمه، وظلّه، وكرامته، ويحفظه من أن يصبح رقماً في أرشيف الرغبات. الأخلاق هنا ليست قيداً، بل جدار حماية للإنسان من ابتذال ذاته ، فالإباحية أشبه بفيروس يعطل النظام الروحي للإنسان و بحاجة إلى جدار ناري يحميه ..

الأخطر أن هذا الطوفان البصري لا يقف عند حدود الراشدين، بل يتسلل إلى عيون الصغار. الطفل حين يرى مشاهد أكبر من وعيه، يضيع توازنه الداخلي : تختلط عنده البراءة بالاشتهاء، ويتحول خياله البريء إلى مساحة مربكة من صور لا يستطيع فهمها. إن شاهد، تمزقت فطرته. وإن مارس قبل أوانه، أُرهق جسده وأُربكت نفسه. الإباحية إذ تدخل عقول الأطفال، فإنها تسلبهم فرصة النمو السليم، وتزرع فيهم بذور قلق واكتئاب وانفصال عن ذواتهم. لهذا جاء تحريمها درعاً

لحماية الطفولة، وصوناً لمستقبل المجتمع كله.

في النهاية، يظهر أن تحريم الدين للإباحية ليس حكماً ينفصل عن منطق الحياة، بل هو قانون كوني يحمي الإنسان في كل أبعاده : روحاً تتوق إلى السمو، جسداً يحتاج إلى الصحة، مجتمعاً يريد التماسك، وأخلاقاً تبحث عن الكرامة. إن الإباحية ليست مجرد متعة عابرة، بل هاوية بطيئة تُسقط الإنسان من علياء معناه إلى فراغٍ مظلم.

وبينما يظن البعض أن الدين يقيّد حريته، فإن الحقيقة أنه يحرّره : يحرّره من عبودية الصورة، ومن أسر الشهوة، ومن الاستسلام لمصير أطفال يولدون مثقلين بجراح لم يصنعوها. الدين حين يقول **"لا"** للإباحية، فهو يقول في العمق : "**نعم**" للإنسان، لروحه، لكرامته، ولحياته التي تستحق أن تُعاش بنور لا بظلال.

رابعاً ، **لا مهرب من السماء إلا إلى السماء** :

حين تضيق الدنيا على إنسان، ويُحاصر بين جدران الصمت والخذلان، كثيراً ما تتسلّل إلى داخله أفكار لم تخطر له من قبل. كأن السماء، حين تقسو، تُلقي في قلبه وساوس ماجنة، صوراً عابرة تدعوه إلى أن يهرب من ضيقه إلى وهمٍ سريع، إلى عالم الإباحية وأخواتها كمشاهد أو كفاعل يتاجر بجسده .. يخيَّل له أن هذا الممر المظلم هو المتنفس الوحيد، وأن الانغماس في اللذة العابرة سيخفف وطأة الألم. وللحظةٍ قصيرة، يبدو الوهم كملجأ، كما يبدو السراب ماءً للعطشان.

لكن، لو تأملنا الأمر من زاوية أخرى، لاكتشفنا أن قسوة السماء ليست دائماً لعنة، بل قد تكون هداية متنكرة. فربما كان ما تضعه في طريقك من رغبات ماجنة، أو صور مُغوية، مجرد حجارة ملقاة في مفارق الطرق الخاطئة؛ لتختبر هل ستنحني لالتقاطها وتضيع، أم سترفع عينيك باحثاً عن درب آخر. إنّ القسوة هنا ليست صدّاً، بل إشارة. كأن السماء تقول : (كل هذه الطرق تؤدي إلى العدم، فلتبقَ لك طريق واحد : إليّ)

إنّ الكائن الحي، حين يُحشر في الزاوية والسلاح مصوّب إلى صدره، لا يبقى أمامه خيار سوى النظر إلى الأعلى. وهنا يكمن سرّ التربية الروحية في المحن :

أن الألم يُحاصر الإنسان من كل الجهات، حتى لا يبقى له مهرب إلا نحو الله. وكأن الشهوة التي تراوده في لحظة الانكسار ليست إلا مرايا مشوشة، وُضعت أمامه كي يُدرك عقمها، فيرتدّ عنها بقوة أكبر.

إنّ السماء، حين تسمح لخيالات الإباحية أن تطرق قلبك، لا تفعل ذلك لتسقطك، بل لتكشف لك ضعفك. لتريك أن ما حسبته قوةً هو وهن، وما ظننته ملاذاً هو سجن. وفي اللحظة التي تدرك فيها أن لذة الشهوة لا تداوي جرحاً، ولا تروي عطشاً، ولا تمنحك معنى، تبدأ رحلة العودة الحقيقية. **فالمحنة لم تكن سوى قوس مشدود يرميك نحو العلو، لا نحو السقوط.**

ولعل أعظم ما في هذا الامتحان أن الإنسان يتعلم أنّ القسوة ليست دائماً عقاباً، بل أحياناً تكون لغة حبّ قاسية. فكما يدفع الراعي قطيعه بعصاه بعيداً عن

هاوية، كذلك تدفعك السماء بالعقبات كي لا تسقط في بئرٍ أعمق. إنك إن دخلت عالم الإباحية هارباً من ألمك، ستكتشف أن الألم يضاعف نفسه، وأنك أضعت الطريق والوجهة معاً. لكن إن واجهت تلك القسوة بالصبر، بالتماس المعنى، وبالانحناء نحو الصلاة، أدركت أنّ السماء لم تُغلق بابها، بل تركت لك باباً واحداً مفتوحاً، بابها هي .. و الله هو **الراعي الأعظم** الذي يوجه البشر بعصا القسوة و الرحمة نحو طريق النور ..

في النهاية، ربما يكون أكثر ما نحتاجه في أزمنة الاختبار أن نقرأ قسوة السماء بعيون مختلفة : لا كيداً

ولا انتقاماً، بل كخطة علوية تهدينا إلى اليقين. **فالإنسان لا يعرف قوة نظره إلى الأعلى إلا حين تنسدّ أمامه الطرق كلّها**. وحينها فقط يكتشف أن النجاة لم تكن في اللذة العابرة، ولا في الصور الوهمية، بل في الارتفاع إلى ذاك الأفق الواسع حيث لا يُباع الجسد ولا تُختزل الروح، بل يُستعاد المعنى الأول : **أن الإنسان وُجد ليبحث عن الله، لا ليتوه في سراب جسده**.

****

في ختام مقاربتنا لمغالطتنا الجديدة (**جسد للإيجار**) ، من الأنسب ألا نقول بعد الآن :

= لقد عانيت من طفولة معذبة .. تعرضت للتحرش الجنسي .. لا أجد عملاً أنفق منه على نفسي .. كل هذا يبرر لي أي أن أتاجر بجسدي ، و لا يحق لأحد أن يحاكمني على هذا الخيار ..

بل أن نقول :

= حالتك ليست استثناءً .. فكثيرون تعرضوا لما تعرضت له و وجدوا حلولاً أخرى أسمى و أجمل لكنها احتاجت قليلاً من الإرادة و كثيراً من الإيمان .. الإباحية بمختلف أشكالها لا يمكن أن تفضي إلى خير فأضرارها صرفة و جمّة .. إنها متاهة لا يجب عليك أن تطأها فتمشي بذلك إلى حتفك بنفسك ..

الإباحية أفعىٌ سامة تزحف في صمت، تلسع الروح بلسعة النار، فتشعر أن السم يغمر قلبك كله .. لكن حكمة الألم تكمن في قراءة اللسع : حين تصنع من سمها ترياقاً، يتحوّل اللدغ إلى مفتاح.

هي خديعة ومعلّم، تهدم الجسد والضمير، لكنها تفتح العين على فراغٍ يدعوك للنور.

كل وهج شهواني يُرشدك إلى هشاشة نفسك، وكل وهمٍ يفضح الفراغ الذي في روحك ، فيُذكّرك ببوابة الخلاص.

الإباحية قد تدمر، لكنها أيضاً تدفعك إلى الله، حين تُغلق أمامك كل الطرق، ليبقى أمامك طريق واحد : الأعلى، حيث السموّ والهداية.

الذي يقرأ لدغة أفعى الإباحية بوعي، لا ينجو من الألم فحسب، بل يرتفع بروحه، ويكتشف أن السم ذاته صار ترياقاً للمعنى.

هكذا تصبح الإباحية ، رغم سمّها، دليلاً صامتاً، يعلم أن كل خدش في الجسد أو القلب هو دعوة للنور، وكل لذة خائنة، خطوة نحو الخلود.

أساطير حيّة

(واقع أغرب من الخيال)

= كيف قضيت سهرتك بالأمس يا صديقي ..

= احتسيت كاساً من المتة في منزلي و شاهدت برنامجاً وثائقياً ..

= و عما يدور ؟

= عن فتاة سوفيتية تدعى نينا ، أسطورة حقيقية هاربة من أفلام مارفل السينمائية ..

= أثرت فضولي .. و ما قصتها بالضبط ؟

= استمع ، في منتصف القرن العشرين، برز اسم هذه المرأة السوفيتية **نينا كولاگينا** ، حيث أثارت الجدل في الأوساط العلمية والإعلامية على حد سواء. وُلدت نينا عام **1926** في مدينة **لينينغراد** (سانت بطرسبورغ حالياً). لم تكن معروفة في شبابها بقدرات استثنائية، فقد خدمت في الجيش السوفيتي خلال الحرب العالمية الثانية كقائدة دبابة، ثم عاشت حياة عادية كزوجة وأم. لكن في أواخر الخمسينيات بدأت قصتها الغامضة بالظهور.

= و كيف ذلك ؟

= بحسب ما نُقل عنها، كانت كولاگينا تمتلك القدرة على تحريك الأشياء من دون لمسها، فيما يُعرف بالتحريك العقلي أو التليكنيسيس. بدأت ملاحظات هذه القدرات داخل منزلها، حين لاحظت أن بعض الأدوات الصغيرة تتحرك عندما تركز نظرها عليها. ومع مرور

الوقت، جذبت هذه الظاهرة اهتمام السلطات السوفيتية والعلماء الذين كانوا يتابعون باهتمام أي ظواهر غير مفسَّرة خلال فترة الحرب الباردة.

= ثمّ ؟

= خضعت كولاگينا لتجارب في مختبرات سوفيتية أمام علماء وأطباء نفسيين. وُثّقت بعض هذه الجلسات بالصور والفيديو، حيث ظهرت وهي تُحرّك إبر بوصلة، وقطع معدنية صغيرة، وأحياناً أجساماً أكبر

قليلاً. أحد أكثر الادعاءات إثارة للجدل كان أنها استطاعت التأثير في قلب ضفدع حي، فغيّرت سرعة ضرباته عبر التركيز الذهني. هذه النتائج – إذا كانت صحيحة – كانت ستفتح باباً جديداً في فهم قدرات العقل البشري.

= فأصبحت أسطورة بعدها ..

= تقريباً ، فرغم الضجة الكبيرة، ظل الجدل قائماً حول حقيقة قدرات كولاگينا. لم تُنشر نتائج تجاربها في مجلات علمية محكمة، بل بقيت محاطة بالسرية، مما دفع الكثيرين للاعتقاد أنها كانت مجرد خدع بصرية أو ألاعيب مدروسة. بعض النقاد شبّهوا ما كانت تقوم به بخدع السحرة الذين يستخدمون تقنيات الإخفاء والخيوط الشفافة. ومع ذلك، فإن وجود تسجيلات مصورة واهتمام رسمي من الاتحاد السوفيتي جعل قصتها تنتقل إلى العالم كله.

= و كيف انتهت قصتها ؟

= توفيت نينا كولاگينا عام **1990**، لكنها بقيت رمزاً للجدل بين العلم وما وراء الطبيعة. فبين من اعتبرها دليلاً على إمكانيات غير مكتشفة في عقول البشر، ومن عدّها مجرّد مثال على قابلية الناس لتصديق الخوارق، تظل قصتها واحدة من أكثر الحوادث إثارة في تاريخ الظواهر غير المفسَّرة.

= قصة غريبة و قدرات أغرب بالفعل .. لكن تعرف ما هو السؤال الأهم هنا ؟

= تفضل ..

= تعداد البشر على الكوكب بالمليارات ، و نحن لا نعرف عن قدرات الجسد البشري سوى النذر القليل ، فلا عجب من وجود آلاف من البشر حول العالم يمتلكون قدرات خارقة بالفعل ، و ربما بالمحصلة شركات مثل مارفل و **DC** لم تنشئ أبطالها من فراغ بل على خطى قصص حقيقية على أرض الواقع ..

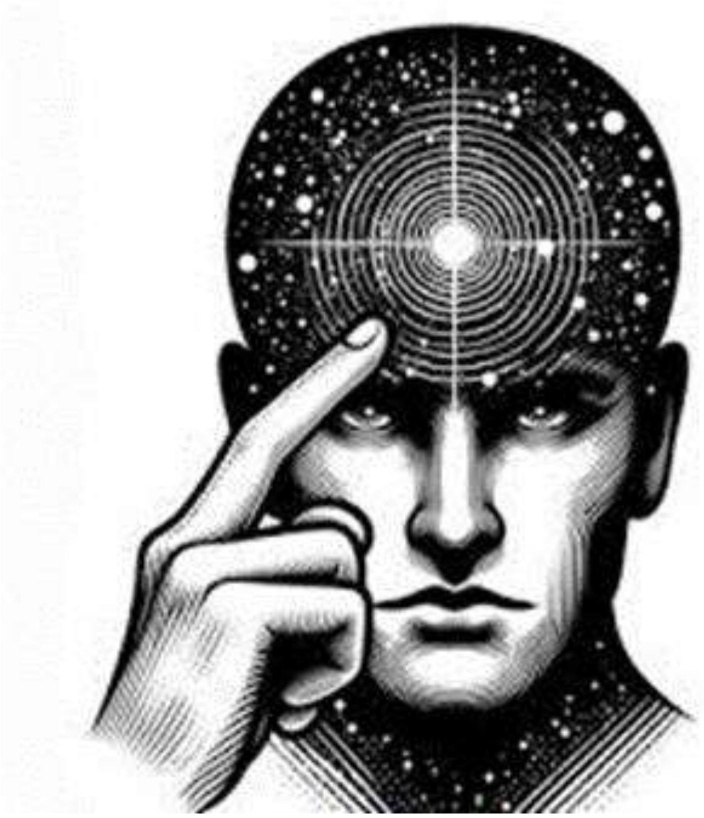

= صدقت ، فالواقع على الدوام أغرب من الخيال !!

****

من منا لم يفتن بأبطال شركة مارفل السينمائية الخارقين ، من منا لم يحلم أن يطير ، يتسلق المباني ، يمتلك قوة بدنية هائلة .. لكن للأسف أغلبنا على يقين تامّ بأن هذه مجرد اضغاث أحلام لا يمكن أن تتحقق أبداً .. أفكار من عالم الخيال تراودنا من حين لآخر ..

لكن ....

المثير في الحكاية ، أنّ قناعتنا هذه خاطئة بالمطلق ، محض مغالطة جديدة تطل علينا برأسها .. فالحقيقة الأخرى التي تهمس بها الحياة في آذاننا أنّ بشراً خارقين بالفعل يعيشون بيننا و يمتلكون هبات تفوق أبطال السينما و الشاشات بمسافات ..

كيف يمكن لذلك أن يكون صحيحاً ؟

تعال عزيزي القارئ نحلق سوياً في دنيا الواقع الأغرب من الخيال ، لنتعرف على تلك الاساطير الحية في مغامرة فلسفية ثقافية شيقة سنمرّ خلالها بالمحطات التالية :

① لماذا يحب البشر الشخصيات الخارقة ؟ ..
② أشهر الأبطال الخارقين ..
③ بشر خارقون بالفعل ..
④ نعمة أم نقمة ؟! ..

اربط حزامك ، و هيا بنا ننطلق ..

أولاً ، لماذا يحب البشر الشخصيات الخارقة ؟

منذ اللحظة الأولى التي فتح فيها الإنسان عينيه على هذا الكون الفسيح، وهو محاط بالرهبة والدهشة. السماء المترامية، البحر الذي لا يُحدّ، البرق الذي يشقّ السحاب، والنار التي تتوهج وتلتهم كل ما حولها. في مواجهة هذا السيل العارم من القوى التي تفوقه، كان الإنسان البدائي هشّاً، ضعيفاً، مسكوناً بالخوف، لكنه في أعماقه كان يحمل بذرةً مختلفة : بذرة الحلم. ومن رحم هذا الحلم وُلدت فكرة البطل الخارق، الكائن الذي يستطيع أن يتجاوز حدود الضعف البشري ويقف نداً للقدر نفسه.

لم يكن البطل الخارق اختراعاً حديثاً من قصص الكوميكس أو السينما، بل هو فكرة ضاربة في جذور الميثولوجيا الإنسانية. في **ملحمة جلجامش** ، أقدم نص أدبي عرفته البشرية، نرى ملكاً نصفه إنسان ونصفه إله، يسعى وراء الخلود ويخوض مغامرات تتجاوز قدرة البشر العاديين.

وفي الميثولوجيا الإغريقية يظهر **هرقل**، الذي يُثقل بمهام مستحيلة، فينجزها بقوة لا تُصدق. حتى في الثقافات الشرقية، نجد رموزاً مشابهة : **كرستم في الشاهنامة الفارسية**، أو **عنترة** في الذاكرة العربية، أبطال يتخطّون الحدود المألوفة ويُلهبون الخيال

الجمعي.

و بالطبع لدينا قصص الأنبياء و معجزاتهم الكثيرة التي تخترق جدران الخيال ببساطة ، مما جعل الناس تهيم بها على امتداد صفحات التاريخ ..

إنّ تشابه هذه القصص عبر الثقافات والقرون يكشف عن حقيقة عميقة : البشر في كل مكان وزمان يصوغون صوراً عن ذواتهم كما يتمنّونها، لا كما هي في الواقع. البطل الخارق ليس مجرد شخصية للترفيه، بل هو مرآة لِما نريد أن نكونه لو تحررنا من ثِقل الجسد وحدود الطبيعة.

لكن لماذا ينجذب الإنسان إلى هذه النماذج ؟

الجواب يكمن في أن البطل الخارق يُجسّد صراعاً وجودياً دفيناً : رغبة الإنسان في تجاوز محدوديته. نحن

نعلم أننا فانون، ضعفاء أمام المرض والشيخوخة والموت، عاجزون عن ردّ الكوارث أو تغيير قوانين الكون. لكن في أحلامنا، نرى أنفسنا نحلّق، ونُمسك بالنجوم، ونهزم الشرّ، ونكتب مصائرنا بأيدينا. إنّ البطل الخارق هو إسقاط لهذه الأشواق.

كما أن هذه الشخصيات تمنح الإنسان عزاءً نفسياً عميقاً : فهي تقول له إن الخير يمكن أن ينتصر، وإن العدالة، رغم ما يبدو من انهيارها، لها صوتٌ وقوة. في عالم مليء بالظلم والفوضى، يصبح البطل الخارق تجسيداً لرغبة جماعية في نظام أسمى، في عدالة كونية قد لا يحققها البشر العاديون، لكنها ممكنة في خيالهم.

منذ الصغر، يرتدي الأطفال أقنعة الأبطال ويرسمون على صدورهم شعاراتهم. قد يبدو هذا مجرد لعب بريء، لكنه في جوهره تدريب على التشبه بما هو أسمى. نحن لا نحب الأبطال فقط، بل نرغب أن نصبح مثلهم ، أن نحمل شجاعتهم، أن نتحرر من قيودنا، أن نمتلك القدرة على أن نقول **"لا"** أمام الطغيان. حتى الكبار، حين يقرؤون أو يشاهدون قصص الأبطال، فإنهم يعيشون – ولو للحظات – حالة من التقمص، وكأنّ البطل ليس سوى **"أنا"** في نسخة متحررة من كل ضعف.

فلسفياً، يمكن القول إن الأبطال الخارقين ليسوا مجرد

خيال، بل هم لغة رمزية تتحدث بها النفس البشرية عن توقها الأزلي. هم استعارات كبرى عن معركة الإنسان مع العدم. إننا لا نحب " قوة " البطل لذاتها، بل لما ترمز إليه : القدرة على تجاوز قيود الموت، على انتزاع المعنى من قلب الفوضى. ولهذا فإن الأبطال ليسوا مجرد كائنات خيالية، بل هم في الحقيقة صورٌ مجسّمة لأحلام البشرية في التحرر والاكتمال.

ثانياً ، أشهر الأبطال الخارقين :

منذ أن اعتلت السينما عرش الفنون، صارت الحكاية البشرية تتجلّى على الشاشة في صور أكثر سحراً مما كانت عليه في الأساطير القديمة. وفي زمننا، لم يعد الإله أو نصف الإله وحده بطل الحكاية، بل ظهر البطل الخارق كرمز عصري، يجمع بين ضعف الإنسان وقوة الحلم. الأبطال الذين نراهم في أفلام مارفل و **DC** و هما أكبر شركتين عالميتين لإنتاج أفلام الأبطال الخارقين ، لم يعودوا مجرّد شخصيات ورقية، بل صاروا أيقونات ثقافية تحمل في طياتها دلالات فلسفية عميقة عن معنى القوة، العدالة، والأمل.

فمثلاً نجد سوبرمان و حلم السماء المفتوحة، إنّ هبة سوبرمان هي القدرة على التحليق، والنظر بعينين تخترقان الجدران، والجسد الذي لا تخرقه الرصاصات. لكنه ليس مجرد قوة مادية؛ إنما هو تجسيد لفكرة

الإنسان المثالي الذي هبط من السماء ليكون حامياً لا طاغية .. فلسفياً، يعكس سوبرمان التوق البشري إلى الكمال، إلى أن يُولد المرء بلا ضعف، وأن يكون قادراً على حماية الآخرين دون أن يلوث نفسه بشرور العالم. إن سوبرمان ليس شخصية خيالية فقط، بل صورة **للإنسان الأعلى** الذي تحدث عنه **نيتشه**، ولكن بوجه مفعم بالرحمة بدلاً من القسوة.

نجد أيضاً **باتمان** و ظلال العدالة ، هبة باتمان ليست قوة خارقة جسدية، بل العقل والذكاء والانضباط. إنه رجل عادي، حُرم من دفء الطفولة بعد مقتل والديه، فحوّل جرحه إلى سلاح، وخوفه إلى درع.

انعكاسه الفلسفي يتجلى في سؤال عميق : هل يمكن للإنسان أن يصنع من ضعفه قوة؟ هل يمكن أن تكون العدالة ولوداً من رحم الألم؟ باتمان رمز للإنسان الذي لا ينتظر الهبات السماوية، بل يصنع قدره بنفسه، ليؤكد أن البطولة ليست هبة قدرية، بل اختيار أخلاقي.

أما **سبايدرمان** فحكاية أخرى ، براءة القوة ومسؤوليتها، شاب يافع، لدغته عناكب مشعة، فاكتسب رشاقة غير إنسانية، وحواساً متقدة، وقدرة على التنقل بين الأبراج بخيوط ينسجها من يديه. لكن الهبة الكبرى لسبايدرمان ليست قوته، بل الجملة التي تلازمه : **(مع القوة العظمى تأتي مسؤولية عظيمة.)**

هنا تتجلى فلسفة عميقة : أن القوة بلا أخلاق تنقلب نقمة، وأن البطولة الحقة ليست امتلاك القدرة، بل توجيهها نحو الخير، حتى وإن كان الثمن حياة شخصية مليئة بالتضحيات.

ثم يأتينا **الرجل الحديدي** و عبقرية العقل مع سحر التكنولوجيا ، **توني ستارك** لم يولد خارقاً، بل صنع بطولته بذكائه وعبقريته. بذل عقله في اختراع بذلة جعلته قادراً على مواجهة الشرور. إن هبته ليست القوة الميكانيكية، بل القدرة على تحويل العلم إلى أداة لحماية الضعفاء.

انعكاسه الفلسفي يكمن في أنّ الإنسان، عبر المعرفة والابتكار، يمكن أن يخرق حدود الضعف البشري.

الرجل الحديدي تجسيد لفكرة أن العلم ليس محايداً، بل يتلون بأخلاق مستخدمه : فإما أن يكون أداة دمار، أو درعاً للإنسانية.

يقتحم حديثنا عنوة **هالك** و ما يمثله من غضب الإنسان المقموع ، هبة هالك تبدو في ظاهرها لعنة : حين يغضب **بروس بانر**، يتحوّل جسده الهزيل إلى وحش أخضر هائل، لا يعرف الرحمة ولا يقف أمامه شيء. القوة الخارقة هنا ليست مجرد عضلات، بل هي انفجار الغضب المكبوت، طاقة الإنسان حين يفقد قيد العقل ويترك لغرائزه أن تنفجر.

انعكاسه الفلسفي عميق للغاية : هالك يرمز إلى الصراع الأزلي بين العقل والغريزة، بين الوجه المهذّب الذي نقدّمه للعالم، والوحش الكامن في أعماقنا. إنه تجسيد حي لفكرة فرويد عن **"الهو"** الذي ينفلت من قيود **"الأنا"** و **"الأنا الأعلى"**. نحن نحب هالك لأنه يعكس تلك القوة السوداوية المعتمة التي نحملها جميعاً في دواخلنا، ونخشى أن نُطلق سراحها. وفي الوقت نفسه، نشعر براحة حين نراه يستخدمها للدفاع عن الخير، وكأن السينما تمنحنا عزاءً : حتى وحوشنا الداخلية يمكن أن تتحول إلى حراس لنا إن تعلمنا كيف نتصالح معها

و للإناث نصيب في قصة الأبطال الخارقين ، فنجد المرأة المعجزة **وندر وومان** ، أنوثة القوة وحكمة

الأساطير ، هي ابنة الآلهة، تحمل في دمائها سرّ الخلود، وفي ذراعيها قوة لا تُقهر. لكنها في الوقت نفسه رمز للحنان، للعدالة، وللحب كقوة تحول دون انزلاق العالم إلى الظلام.

فلسفياً، تمثل وندر وومان الثورة على ثنائية (القوة ذكورية، والضعف أنثوي). إنها تقول للعالم إن الأنوثة ليست هشاشة، بل يمكن أن تكون منبع بطولة عظمى، متصالحة مع الجمال والرحمة في آن واحد.

و من أعماق الظلام النفسي يطل علينا **الجوكر** بضحكته المخيفة ، إنه بطل النقيض ، رغم أنه شرير ، فإن شخصية الجوكر أصبحت مرآة سوداء للبطولة نفسها.

هبته ليست قوة خارقة، بل القدرة على كشف هشاشة النظام الاجتماعي، والسخرية من قناع العدالة. فلسفياً، هو يذكّرنا بأن البطل الخارق لا يُولد إلا في مواجهة شرّ يعكس قبح العالم. بدون الظلام، ما كان للنور أن يظهر.

إنّ الأبطال الخارقون في السينما الحديثة ليسوا مجرد مشاهد إثارة، بل أساطير جديدة تلبس ثوب الألفية الثالثة. نحن ننجذب إليهم لأننا نرى فيهم وجوهاً متعددة لذواتنا : الطفل الذي يحلم بالتحليق، الكهل الذي يصارع جراحه، العالِم الذي يبتكر ليمنح حياته معنى، والإنسان الذي يتألم لكنه يختار أن يحارب الظلام.

هؤلاء الأبطال هم مرآتنا، نقرأ فيهم أسئلتنا الوجودية : من نحن ؟ ما حدودنا ؟ وهل نستطيع أن نكون أكثر مما نحن عليه ؟

في النهاية، لم تعد السينما مجرد فن للمتعة، بل صارت سجلاً جديداً للأسطورة الإنسانية. فكما كان هرقل و جلجامش و رستم رموزاً لأزمنة غابرة، صار سوبرمان و باتمان و سبايدرمان و وندر ووومان رموزاً لعصرنا. إنهم ليسوا شخصيات خيالية وحسب، بل أحلام متجسدة ، تقول لنا أنّ الإنسان، مهما كان ضعيفاً، سيظل يبحث عن معنى، ويظل قادراً على الحلم ببطولة تنقذ العالم، ولو على شاشة من نور وظلال.

ثالثاً ، بشر خارقون بالفعل :

منذ أن وُجد الإنسان وهو يسائل نفسه: ما حدود الممكن؟ هل أجسادنا وأذهاننا سجينة قوانين الطبيعة، أم أن هناك فجوات سرّية يتسرّب منها المجهول؟ وفي كل عصر، تظهر قصص عن بشر حقيقيين، لا أساطير ولا شخصيات من ورق، بل لحم ودم، يبدون وكأنهم يحملون شذرات من قوة تتجاوز المألوف. سنتحدث الآن عن حفنة من هؤلاء ، ستة وجوه حقيقية، ستة ظلال من الدهشة، ينسجون بخيوط غرائبية حكاية الإنسان حين يقترب من تخوم المستحيل.

في البداية دعنا عزيزي القارئ نتحدث عن **دانييل تمّيت**

، الشاب العاشق للأرقام .. الذي وُلد في **إنكلترا** بقدرة رياضية ولغوية استثنائية. كان يرى الأرقام كأشكال وألوان، فيجري العمليات الحسابية المعقدة كما لو كان يتنفس. بل إنه تعلّم لغة آيسلندية في أسبوع واحد !

انعكاسه الفلسفي يذكّرنا بأن العقل البشري ليس وحدة متجانسة، بل كوكب مليء بالقارات المجهولة. كل إنسان قد يحمل بداخله موسيقى سرّية لا نسمعها إلا حين تُفتح أبواب الوعي على اتساعها.

لننتقل الآن إلى **إيساو ماشيا** ، الرجل المقاوم للكهرباء القادم من كوكب **اليابان** ، الذي احتار الأطباء في تفسير جسده القادر على تحمّل صدمات كهربائية قاتلة دون أن يتضرر. كان يمسك الأسلاك العارية وكأنها خيوط قماش، ويترك الكهرباء تمرّ فيه وكأنه محيط يحتضن جسداً سبّاحاً.

فلسفياً، يذكّرنا هذا بأن الطبيعة التي نعتبرها حدوداً صارمة قد تكون أكثر مرونة مما نظن، وأن الجسد البشري ربما يحمل أسراراً لم تُكشف بعد ..

تعال لأعرفك أيضاً على **ستيفن ويلتشير** ، العين التي لا تنسى .. هو فنان بريطاني يمتلك ذاكرة بصرية خارقة. يستطيع أن يطير بمروحية فوق مدينة لساعة واحدة، ثم يرسمها كاملةً من الذاكرة، بأدق تفاصيل الشوارع والنوافذ.

انعكاسه الفلسفي هو أن الذاكرة البشرية ليست مجرد خزان ضعيف للذكريات، بل قد تتحول إلى مرآة كاملة للعالم. إنه يفتح سؤالاً : ماذا لو كان كل إنسان يحمل بداخله قدرة على حفظ كل شيء من حولنا ، لكننا لم نتعلم كيف نوقظها ؟ فلا نزال نجهل عن الدماغ البشري أكثر مما نعلم فلسفياً ..

أما الهولندي **فيم هوف** ، الرجل الجليدي ، فقصة أخرى ، لقد حطّم قوانين الاحتمال حين جرى عارياً في جبال جليدية، وجلس في مياه متجمدة لمدد طويلة دون أن يتأذى. يقول إنه يتنفس بطرق خاصة، تسمح له بالتحكم في جهازه العصبي وفي حرارة جسده.

فلسفياً، فيم هوف رمز لانتصار الإرادة على الطبيعة. إنه يعلّمنا أن الحدود ليست دائماً في الجسد، بل في وعينا. فحين يتعلم الإنسان كيف يصادق جسده، يمكن أن يتحول الضعف إلى قوة و يجترح المعجزات ..

ثم يطل علينا **دانيال كيش** ، الرجل ذو الرؤية الصوتية

، الذي فقد بصره وهو طفل، لكنه لم يستسلم للظلام. استخدم دانيال تقنية **الرؤية بالصدى** مثل الخفافيش، إذ يصدر أصواتاً بفمه، ثم يبني صورة عقلية دقيقة للمكان من خلال ارتداد الصوت. صار يتنقل في المدن، ويقود الدراجة، كما لو كان يملك عيوناً خفية.

انعكاسه الفلسفي يكمن في أنه يثبت أن الإعاقة مجرد تسمية اجتماعية، وأن الإنسان قادر على إعادة ابتكار حواسه حين يرفض الاستسلام .. بل إن جميع الأبطال الخارقين في القصص ليسوا سوى معاقين صنعوا من عجزهم أسطورة !!

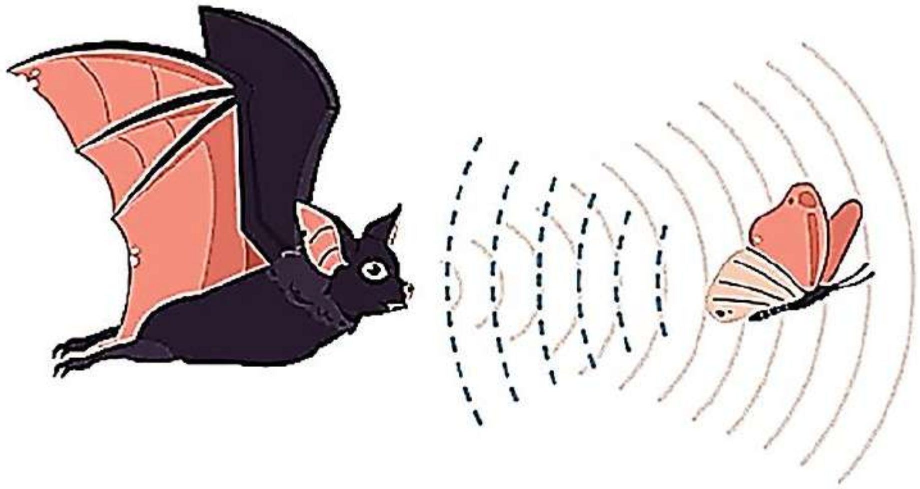

نختم أمثلتنا - التي ليست سوى حفنة رمال من شاطئ واسع - مع إسكيل ريوس ، الرجل الذي لا ينام ، في فيتنام، يُقال أنه عاش أكثر من أربعة عقود دون نوم، بعد إصابته بحمّى وهو شاب. ورغم ذلك، ظل بصحة جيدة، يعمل في حقله، ويتحدث بابتسامة هادئة عن ليله الطويل الممتد.

فلسفياً، هو صورة عن العلاقة الغامضة بين الجسد والوعي. نحن نرى النوم شرطاً للحياة، لكنه يكشف أن هناك استثناءات، وأن الإنسان ليس كتاباً مغلقاً بقوانين صارمة، بل حقل تجارب للغيب .. إن قصة إسكيل تعيد فهمنا للجسد البشري و شروط الحياة بشكل جذري .. فمن يمكنه أن يعيش بدون نوم ، يمكنه أن يطير ، يتسلق الجدران ، يعيش تحت الماء .. الفكرة في ترويض الجسد البشري لا غير ..

هذه الأمثلة الستة ليست مجرد غرائب تُحكى، بل مرايا تكشف لنا شيئاً أعمق : أن الإنسان ليس مخلوقاً ثابت الحدود، بل مشروع مفتوح على اللامعقول. كل قصة منهم تقول لنا إننا نعيش في عالم أوسع مما تسمح به معايير العلم الصارم، وأن في داخل الجسد والعقل طاقات لا نزال نجهلها.

قد نصدق هذه الحكايات، وقد نشك فيها، لكن الأكيد أن انجذابنا إليها ليس عبثاً. إنها تُشعل فينا شعوراً قديماً : أننا أكبر من قيودنا، وأننا نحمل في أعماقنا بذور المستحيل. فالإنسان، في جوهره، كائن يبحث دوماً عن أن يكون أكثر مما هو عليه.

رابعًا ، نعمة أم نقمة ؟!

القدرات الخارقة، في صورتها المشرقة، تمنح الإنسان نافذة على ما وراء الممكن. فمن يستطيع أن يداوي بجسده أو يحمي بصره في العتمة، أو يواجه برد الثلوج بلا خوف، يفتح أبواباً جديدة للمعرفة والأمل. إنها نعمة لأنها تعطي البشر أملاً بأن حدودهم ليست نهائية، وأن في داخلهم إمكانات لم تُكتشف بعد.

إنها أيضاً نعمة لأنها تُضيء للآخرين. فكل صاحب قدرة خارقة يصبح رمزاً، حتى لو لم يُدرك ذلك. الناس يرون فيه مرآة لاحتمالاتهم الخفية. هو يُخبرهم بلا كلمات : *(أنتم لستم سجناء ضعفكم، بل أنتم كائنات قادرة على أن تخرق جدران المستحيل.)* وفي هذا تكمن بركة عظمى، إذ تُحوّل الفرد إلى شعلة تُلهم الجماعة.

لكن الوجه الآخر أكثر قسوة. فالقدرة الخارقة قد تعزل صاحبها عن البشر العاديين، وتجعله غريباً في وطنه. أي سعادة يجدها من لا يستطيع النوم مثل الآخرين

فيبقى ساهراً بمفرده في دوامة من الضجر لا تنتهي؟ أي طمأنينة يحياها من يرى بعينيه ما يعجز غيره عن احتماله ؟ إن الهبة قد تتحول إلى جرح، لأنها تضع حاملها خارج السرب، في صمتٍ يشبه المنفى.

ثم إن القدرة ليست حيادية. فالقوة التي تُعطيك حريةً قد تتحول إلى قيدٍ يطاردك. أن تمتلك قوةً خارقة يعني أن تُسائل نفسك باستمرار : (*لمن أستخدمها؟ وكيف؟ وهل يحق لي أن أحمل هذا العبء دون أن أضلّ الطريق؟*) كثيرون ممن امتلكوا مثل هذه المواهب عاشوا حياةً مشوبة بالشك، يتأرجحون بين فرحة الاكتشاف ورعب المسؤولية.

القدرة الخارقة، في النهاية، ليست مجرد موهبة، بل اختبار وجودي. هي مثل نارٍ أُعطيت للإنسان : يمكن أن تُدفئه، ويمكن أن تحرقه. في هذا التناقض يكمن سحرها. فهي تضعنا أمام سؤالٍ عميق : هل نملك القوة حقاً إذا لم نعرف كيف نستخدمها؟ وهل النعمة في جوهرها إلا نقمة متخفية، أو العكس؟

ما يجعلنا مفتونين بالقدرات الخارقة ليس غرابتها فحسب، بل لأنها تُشبهنا في جوهرنا. نحن جميعاً نحمل في داخلنا شيئاً يتأرجح بين النعمة والنقمة : **عقلنا، حريتنا، وعاطفتنا**. كل هذه **قدرات خارقة** بمعنى من

المعاني، وهي تحمل الوجهين نفسيهما.

لذلك، تبقى القدرات الخارقة رمزاً فلسفياً للإنسانية ذاتها: كائن مُمزّق بين نور وظل، يبحث عن التوازن في عالم لا يعترف باليقين. هي ليست هبة ولا لعنة في ذاتها، بل مرآة تُظهر لنا كيف نتعامل مع القوة حين تُوضع بين أيدينا. فالقدرة، أيّاً كانت، لا تُعرّفنا بقدر ما تُعرّينا، وتكشف لنا أيّ نوع من البشر نحن : أولئك الذين يجعلون من النعمة نقمة، أم من النقمة نعمة.

****

في ختام مقاربتنا لمغالطتنا الجديدة (**أساطير حية**) ، من الأنسب ألا نقول بعد الآن :

= أبطال السينما الخارقون مجرد أساطير ولدوا من رحم الخيال الثقافي و العلمي .. فلا وجود لهم في المجتمعات البشرية الحقيقية ..

بل أن نقول :

= الإنسان بحد ذاته معجزة ربانية .. أسطورة حية تمتلك عقلاً قادراً على اجتراح المعجزات إن أحسن استخدامه .. بل أكثر من ذلك هنالك آلاف من البشر حول العالم و على امتداد صفحات التاريخ امتلكوا بالفعل قدرات خارقة تفوق قدرات أبطال الشاشات و

جهل البشر بوجودهم لا ينفيه ..

و يبقى السؤال الأعمق : هل نحب الأبطال الخارقين لأنهم مختلفون عنّا، أم لأنهم في الحقيقة أقرب ما يكونون إلى صورتنا المثالية عن أنفسنا ؟ ربما يكمن السرّ في أننا نبحث دوماً عن البطل في داخلنا، نريد أن نجد ذاك الجزء الصغير الذي يقاوم المستحيل، ويقف في وجه الخوف، ويمنح الحياة معنى أكبر.

إنّ انجذاب الإنسان إلى الأبطال الخارقين ليس وهماً عابراً، بل هو شهادة على جوهره : أنه كائن يحيا على الحلم، ويغذيه التوق إلى أن يكون أعظم مما هو عليه. فالبطل الخارق ليس إلا تجسيداً لذلك النداء الأزلي الذي يهمس في أعماقنا :

(أنت أكثر مما تظن، ولست محدوداً بما تراه عينك)

الدنيا دوّارة

(يخرج الميّت من الحيّ و الحيّ من الميّت)

أشار الجد مجدداً إلى شقة أخرى مزينة بالأنوار و شرع يروي قصة جديدة غريبة و مؤلمة في آن :

هذا منزل **عائلة آغا** ، كانت **حلب** في السابق تحتضنهم كما تحتضن السماء نجومها، عائلة كبيرة العدد، مترابطة القلوب، متحابة، عاشت أيامها في هدوءٍ وسلام. الأب **ماهر آغا**، رجل هادئ الحكمة، يحمل في عينيه تجاعيد تحكي عن سنوات عمره الطويلة، عينان تشعان صبرًا وفهمًا لكل من حوله، يبتسم رغم السنين وكأن ابتسامته تحدّ الزمن نفسه. أما الزوجة **مريم**، فكانت روح البيت ودفء أركانه، تمتد يدها لتحتضن الجميع، فتصنع من كل مكان مأوى للأمان والحنان. الأبناء والبنات، سبعة أرواح، كبرت بين ضحكات تملأ البيت، ورائحة الحلوى التي كانت تزين مطبخهم صباح كل يوم.

كانت حياتهم هانئة، يومًا بعد يوم، ممتلئة بالطمأنينة، لا يعرفون المرض ولا يلاحقهم عدو. كل لحظة كانت تتدفق كنسيم عليل على الأرواح، كل يوم كان يشبه أغنية فيروزية هادئة على وتر القلب.

لكن، كما عودتنا الدنيا الشباطية، لا شيء يدوم. جاءت الحرب كما الريح العاتية، فجرفت كل شيء، وكأن السماء نفسها انهارت عليهم. البيوت دُمّرت، الشوارع

صارت ركامًا، والأصوات المختلطة للبكاء والقذائف أصبحت الموسيقى الوحيدة التي تعزفها الحياة.

أشد ما أوجعهم و كسر قلوبهم كان استشهاد **تالة**، ابنتهم الصغيرة، زهرة البيت المتفتحة، التي كانت تصنع الفرح من الهواء قتلتها قذيفة هاون جبانة، اختفت فجأة، تاركة خلفها فراغًا عميقًا لا يداويه الزمن. الفقدان هنا لم يكن مجرد موت، بل ثقب في الروح، ندبة تُعلم أن الحزن جزء من التجربة الإنسانية، وأن الألم يمكن أن يصبح مدرسة للقلب.

العائلة لم تستسلم. تهجروا من مدينتهم و عاشوا سنوات طويلة في المخيمات، حيث البرد القارس في الشتاء، والحر اللاهب في الصيف، نقص الماء والغذاء، وانعدام الأمان. كل يوم كان اختبارًا للصبر، وكل لحظة كانت فرصة لإثبات أن الروح أكثر مرونة مما نتصور. الأب ماهر، لم يترك اليأس يستوطنه، بل كان يُعلّم أبناءه مهنة العائلة القديمة كحلوانيين، ويحوّل كل حركة في العجين

إلى درس في الصبر، وكل قطعة حلوى إلى تذكير بأن الحياة تستمر رغم كل شيء.

ثم جاء القرار: مغادرة المدينة، الانتقال إلى **دمشق**، حيث استأجروا شقة صغيرة وبدأوا من الصفر. الأب، بمساعدة الأبناء، أعاد إحياء مهنة العائلة، يبيعون الحلوى في الأسواق الضيقة، وينسجون من السكر والطحين طعمًا من الماضي، أملًا في الحاضر، وجسورًا للمستقبل.

عملهم توسع شيئًا فشيئًا، حتى صاروا مشهورين في كل دمشق. لكن ذكرى تالة لم تفارقهم، ظل دائم على القلب، يذكّرهم بأن الحب والخسارة متلازمان، وأن الألم لا يمحى بل يتحوّل إلى نور خفي يضيء طريقهم. كانوا يضحكون، يبيعون الحلوى، ويبنون حياتهم من جديد، ومع ذلك تتردد أسئلة الفقد والعدالة في أعماقهم، يتساءلون عن مغزى الصبر، عن قسوة الأيام، وعن سر البقاء.

علمتهم الحياة أن السعادة ليست امتلاك كل شيء، بل القدرة على الحب بعد أن تخسر، والبناء بعد أن ينهار

كل شيء. وأن الفقد، مهما كان عميقًا، يمكن أن يتحوّل إلى قوة، وأن الذكريات المؤلمة هي الجسر الذي يربطنا بالحياة.

وفي كل صباح، حين تشرق الشمس على شقتهم الصغيرة، كانوا يشعرون بأن الحياة تمنحهم فرصة ثانية، رغم الألم، رغم الجراح. كانت ابتسامة الأبناء، وصوت السوق، ورائحة الحلوى بمثابة تذكير مستمر بأن الحب والعمل والصبر، رغم كل شيء، يخلّفون أثرًا خالدًا ينهض كطائر الفينيق من تحت الركام .

عائلة آغا اليوم ، كبيرة ، متحابة ، متعاونة ، مكتفية مادياً ، بصحة جيدة و بلا أعداء ، عائلة مثالية يحلم بها كل من حرم من العائلة أو ابتلي بعائلة متناحرة وسط خلافات طاحنة لا تنتهي .. لكن ذكريات الدمار و المخيمات .. الألم و الحرمان .. التهجير و البدء من الصفر ، و بالطبع طيف ابنتهم الصغيرة تالة .. كل ذلك احتل مساحة كبيرة من دائرة الأرزاق خاصتهم ..

عقبت ليال بالقول و عيناها تنضحان حكمة سبقت عمرها بمسافات :

= و أعتقد أن ما ينطبق على العوائل ينطبق على الدول يا جدي .. فقصة عائلة آغا ذكرتني **بقارة اوروبا** التي خاضت حروبا عالمية مدمرة أخذت كل شيء ، لكنها

بنت نفسها من جديد بإرادة و وعي و تعلم العبر من الماضي ، لتعيش اليوم بسلام و ازدهار كحلم للبشر في بقية القارات ..

= رائع يا حفيدتي .. في الحقيقة دائرة الأرزاق لا تقتصر بالفعل على البشر فقط بل تشمل الدول بل حتى القارات أيضا .. فكل قارة تملك ما لا يملكه غيرها و العكس صحيح .. فتتنوع حصص كل دولة في الدائرة بين طبيعة و تطور و علم و قوة و موارد و غيرها

، و في نفس السياق لا يمكننا نسيان المهاجرين الأوروبيون الذي هربوا من الحرب إلى أمريكا و بدأوا مجدداً من الصفر هناك ثم تركوا بصمات مميزة في مجتمعاتهم الجديدة .. و أشهر مثال لدينا هو العالم المعروف **ألبرت أينشتاين** الذي ترك بلاده ألمانيا بعد تهديده بالقتل من قبل النازيين قبيل الحرب العالمية

الثانية بسبب دينه اليهودي ، فهاجر إلى الولايات المتحدة الأمريكية و تابع نجاحاته هنالك ..

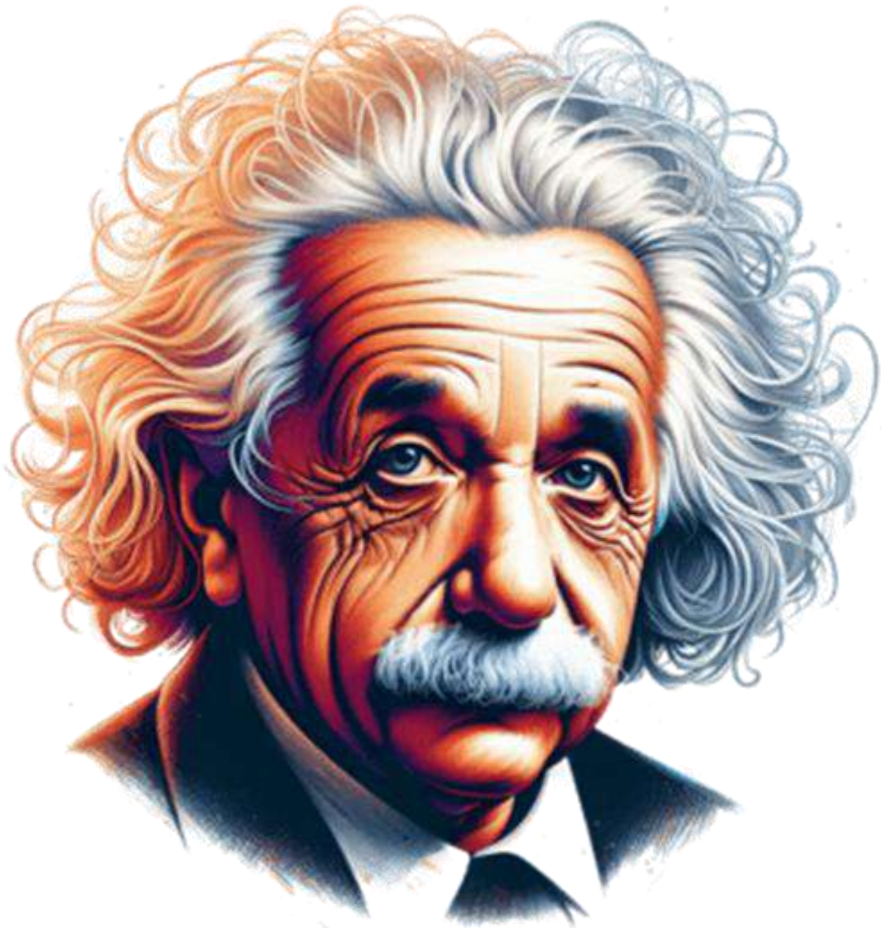

إذن كما قلنا ، منذ قليل ، الدنيا الشباطية شكل من أشكال العدل الإلهي فلا أحد يعلم ما الذي ينتظره على المنعطف القادم في حياته ، فرج عظيم أم شدة غير متوقعة ، و من يصبح في النور قد يمسي في الظلام كما حدث مع عائلة آغا ، و من يمسي في الظلام قد يصبح في النور كما حدث معها لاحقاً أيضاً ، و سبحان من يخرج الحي من الميت و الميت من الحي .. و في الحقيقة هذا الدرس من أهم دروس الحياة لذا جسده الله

لنا في كل يوم عبر توالي الليل و النهار ، فلا نهار يدوم و لا ليل يستمر .. دورات من عسر و يسر .. شدة و فرج .. فرح و بكاء ..

و بين هذه التقلبات تحافظ دائرة الأرزاق على ثباتها .. و كما يقول البارئ في الذكر الحكيم :

(و تلك الأيام نداولها بين الناس)

****

لقد عدت إلى الصفر من حيثما بدأت .. أنا أعلن استسلامي فكل جهدي ذهب هباءً منثوراً ..

عبارة يكررها كثيرون في فترات من حياتهم ، عندما تحجم الدنيا بوجهها عنهم فتبتليهم ليخسروا كل شيء ..

فهل الاستسلام هنا مشروع و مبرر بالفعل ، أم أن هذه مغالطة جديدة بدورها تستحق المقاربة و التحليل ؟

هذا ما سنحاول معرفته سوياً خلال الصفحات التالية لنفهم بالضبط دورات الحياة بين العسر و اليسر ، و كيف أن الله يخرج الميت من الحيّ و الحيّ من الميت ، و ذلك عبر النقاط الأربعة التالية :

1. **الدهر يومان ..**
2. **و تلك الأيام نداولها ..**
3. **لكل بداية نهاية ، و من كل نهاية بداية ..**
4. **لا تستسلم و لو بدأت من الصفر ..**

فهيا بنا عزيزي القارئ في هذه المغالطة المهمة و الحساسة التي نرجو الله أن تكون دفعة صغيرة لكل من جارت عليه الحياة فعاد إلى خط البداية في سباق لا يرحم ..

أولاً ، الدهر يومان :

الحياة ليست خطًّا مستقيماً يفضي من نقطة البدء إلى

غاية النهاية بانتظام بارد ورتيب؛ بل هي أشبه ما تكون بموجة عاتية، تتأرجح في صعود وهبوط، انبساط وانقباض، كأنها نَفَس الوجود نفسه وهو يستمد أنفاسه من أسرار الكون. فمن وهج الرخاء إلى غشاوة الشدة، ومن ضيق العسر إلى انشراح اليسر، يتقلب الإنسان كما يتقلب النهار في حضن الليل، وكما ينسلّ الفجر من رحم الظلمة. إن نسق الحياة الجيبي هذا هو الدرس الأعظم الذي يحمله الزمن، درس التوازن الذي لا يكتمل إلا بالتناقض.

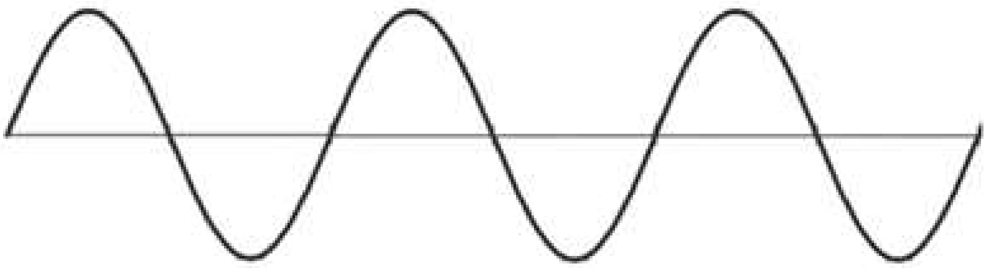

ولذلك قال الإمام عليّ :

(الدهر يومان، يوم لك ويوم عليك)

فإن كان اليوم لك، وفتحت لك الأبواب، وجدت الأرض رحبة والسماء باسمة، لكن احذر أن تبطر أو تستغرق في غفلة نشوتك ؛ لأن هذا الانبساط لا يدوم، ودوام الحال من المحال .. مجرد وهم يطارده الإنسان عبثاً. وإن كان اليوم عليك، وأرخى الليل سدوله على روحك، فلا جزع ولا يأس، بل صبر وثبات؛ لأن ليل الشدة، مهما طال، يتقهقر في النهاية أمام شمس الرجاء. فما

على الإنسان إلا أن يتلقّى عطايا الزمن بوعي واتزان، وأن يزن لحظاته بميزانٍ لا يختلّ بالفرح ولا ينهار بالحزن.

لكن سرّ المفارقة أن هذه التناقضات، على قسوتها أو على سحرها، تحمل في طياتها بذوراً إيجابية كبرى. فلولا طعم العسر المرّ، ما كان لليسر أن يضيء بريقه في قلوبنا. نحن لا ندرك قيمة الصحة إلا إذا ذقنا وخز المرض، ولا نعرف حلاوة الحرية إلا إذا عانقنا القيود، ولا نعي هدية الصداقة إلا إذا تجرعنا علقم الوحدة. إن النور لا يُرى إلا إذا تسلل في العتمة، والصوت لا يُسمع إلا إذا انبثق من سكون، والإنسان لا ينضج إلا إذا تمرّغ في المتناقضات.

العسر ليس لعنة مطلقة، بل هو معلم حازم يطرق قلبك ليصوغ منه معدن الحكمة. واليسر ليس نعمة عابرة، بل هو نافذة على المعنى، يُذكّرك بأن الجمال يستحق أن

يُعاش. وبين هذا وذاك يتشكل الكيان الإنساني، لا من نعيم خالص ولا من بلاء صرف، بل من امتزاجهما في نسيج واحد. إن الذي لم يذق مرارة الضيق، حين يأتيه الفرج، يتعامل معه بسطحية الغافلين، كأنما هو حق طبيعي لا هبة سماوية. أما الذي خبر العسر، فإنه حين ينفتح له باب اليسر، يضمّه إلى صدره كمن ضمّ طفلاً انتظره زمناً طويلاً بعد أن ظن جسده عقيماً ..

هكذا، تتكشف لنا حكمة التيار الجيبي للحياة : أن كل هبوط هو دعوة لصعود، وكل صعود هو تذكير بأن الهبوط قادم، فلا غرور ولا يأس. إن وعي هذه الثنائية يحررنا من وهم السيطرة المطلقة على مجريات الوجود، ويمنحنا مقام السكينة، مقام من يبتسم في الرخاء بلا طغيان، ويصبر في البلاء بلا انكسار.
فالزمان لا يتوقف عند حال، والحياة ليست إلا إيقاعاً من التضادات المتناغمة، يعزف على أوتار أرواحنا لحن الخلود .. **و بالمحصلة الضد يظهر حسنه الضدّ ..**

ثانياً ، **و تلك الأيام نداولها** :

الحياة ليست لوحة ساكنة مرسومة بخطوط أفقية جامدة كما قلنا ، بل هي مشهد متحرك تديره يد الله بلطفٍ وعمق، تداولاً للأيام بين عباده. فمن الناس من يصبح في بحبوحة اليسر ويمسي فيها، ومنهم من يفتح عينيه على ضيق العسر ويغفو على ليله الثقيل. غير أن هذا

التفاوت لا يُترك عبثاً ولا يُنسج اعتباطاً، بل هو ضرب من التعليم الإلهي، يُلقّن البشر دروساً لا تُقرأ في الكتب، دروساً مطبوعة بمداد العدل وممهورة بختم الحكمة.
فالله، في تداوله للأيام، يزرع في النفوس بذور الإدراك : أن لا مقام يدوم، وأن المعنى لا يكتمل إلا بالتبدّل، وأن النعمة لا تُفهم إلا من خلال نقيضها.

وحين تجد نفسك في سعة من الرزق أو في أمان من الخوف، بينما يئنّ غيرك في ضيقٍ أو يتقلب في بلاء، يطرق سمعك درس خفي : **أن تشكر، أن تقدّر ما بين يديك، وأن تصون هذه العطايا قبل أن تُسلب منك**.
فالتباين بين حالك وحال غيرك ليس إلا مرآة تنعكس فيها حقيقة أن النعمة قد تتحول في لحظة إلى نقمة إن أُهملت، وأن دوامها مشروط بالاعتراف بفضلها. أما إذا وجدت نفسك في العسر، والآخرون يمرحون في اليسر، فليست تلك نهاية الحكاية، بل بدايتها. **فالنفس، وهي تنظر إلى نعمٍ ليست لها، يزداد توقها، ويشتد عزمها على الخروج من قاع الألم لتتسلق صعوداً نحو ذرى العطاء**. كأن الله، في توزيعٍ بديع، يجعل من بلاء أحدنا حافزاً لنهضة الآخر، ومن رخاء أحدنا موعظةً لقلوب الباقين.

وهنا تتجلى حكمة التناقض : أن ما يبدو للعين قسمةً غير متكافئة، هو في جوهره ميزانٌ دقيق يربّي في كل

إنسان درساً مختلفاً. فمن عاش اليسر دون أن يذوق العسر، لم يعرف للنعمة معنى، وصار كمن يمشي فوق جوهرة وهو يظنها حجراً عادياً. ومن خبر العسر، حين يمسّه اليسر أخيراً، يذوق لذته أضعافاً مضاعفة، لأن قلبه خبر المرارة، ولأن روحه تعلمت أن تستحضر قيمة ما بين يديها. إن الإنسان لا يقدّر العافية إلا إذا اعتلّ، ولا يحسّ بالحرية إلا إذا كبّلته القيود، ولا يدرك نعمة الصداقة إلا إذا ذاق مرارة الوحدة.

إن هذه الجدلية بين العسر واليسر ليست لعنة تُنزل على البشر، بل هي سرّ النضج ووقود الوعي. ففي العسر تتكوّن الإرادة، وفي اليسر تُختبر الأخلاق. وفي التناوب بينهما يكتمل المعنى وتُصان النعمة. فالدرس الأعمق الذي يريد الله أن يغرسه فينا، هو أن نصون ما نُعطى ، وألا نبدد ما وهبنا، وألا نغفل عن جوهر النعمة التي قد تُسلب في لحظة يعلو فيها صوت الغفلة على همس

الشكر.

وهكذا، لا يكون العسر ضدّ اليسر، ولا اليسر ضدّ العسر، بل كلاهما جناحان يرفرف بهما طائر الحياة في فضاء التجربة الإنسانية. ومن لم يتأمل في تداولهما، عاش غافلاً عن حكمتهما، ومن وعى سرهما عاش حراً من وهم الدوام، متزناً في قلبه بين رجاءٍ وصبر، وبين شكرٍ واحتساب

ثالثًا ، لكل بداية نهاية ، و من كل نهاية بداية :

لكل بداية نهاية، تلك سنة الوجود التي لا يحيد عنها شيء، لا إنسان ولا جماد ولا لحظة عابرة فلكل شيءٍ إذا ما تم نقصان . فلا يغرّك ما أنت فيه من حالٍ مزدهر أو واقعٍ مطمئن، لأن الزمان لا يمنح ضمانات، بل

يترك أبوابه مشرعة للتحوّل والتبدّل. وما بدا ثابتاً اليوم قد يزول غداً، وما حسبته أبدياً قد يتبخر مع أول هبّة ريح. ومع ذلك، ليست النهايات موتاً مطلقاً ولا سقوطاً نهائياً، بل هي أبواب سرية نحو بدايات جديدة، ومخاض عسير يولّد حياة أخرى.

فلا تجعل سقوطك أبدياً، ولا تركن إلى قاع الهزيمة وكأنك خُلقت له. انهض، كما تنهض الأرض بعد أن ينهار عليها وابل المطر. تأمل مشهد الغيوم حين تتكدس في السماء، محتقنة متصارعة، كأنها في حرب لا نهاية لها. غير أن تلك الحرب تنتهي و لا تفضي إلى دمار، بل إلى انسكابٍ مدهش؛ قطرات تنهمر على الأرض اليابسة فتوقظها من سباتها، وتحول جفافها إلى خصب، وصمتها إلى نضارة. إن سقوط المطر ليس موتاً للغيوم، بل اكتمالاً لحكايتها وبداية لحكاية الأرض المعطاء.

وهكذا، فإن كل سقوط في حياتك يحمل بذرة نهوض،

وكل نهاية تفتح أفقاً لبداية جديدة. فلتكن كالأرض بعد المطر : لا تنح على غيم انقشع، بل ابتهج بما تركه وراءه من خيرات. واعلم أن سرّ الوجود يكمن في هذا التناوب، في هذا الرقْص بين النهايات والبدايات، بين السقوط والقيام، بين احتباس الغيم وانفجار المطر. إنها جدلية الخلق والتجدد التي تذكّرك أن اليأس وهم، وأن الفجر يولد حتماً من رحم الليل.

رابعًا ، لا تستسلم و لو بدأت من الصفر :

الإنسان، ما دام حيّاً، لا يخلو طريقه من عثرات ولا مصيره من انكسارات. وقد يجيء يوم يجد فيه نفسه وقد خسر كل ما بنى، أو عاد إلى نقطة البداية كمن يُجَرّد من رصيده كله. غير أن العودة إلى الصفر ليست موتاً، بل امتحاناً للقدرة على النهوض، وميداناً لقياس قوة الإرادة. فالمعركة الحقيقية ليست مع العالم الخارجي، بل مع صوت خفي داخلي يحاول إقناعك بأنك انتهيت.

إنّ السقوط لا ينفي إمكانية النهوض، بل يهيئك للصعود بصلابة أكبر. والواقع أن كل عظيم في التاريخ مرّ بلحظة انطفاء أو انكسار، لكنه اختار أن ينهض.
نابليون بونابرت قال ذات يوم :

(الهزيمة ليست في السقوط، بل في الرضا بالبقاء على الأرض.)

وهنا يكمن السرّ : أن السقوط قدري، لكن الاستسلام اختياري.

الأيام قد تقسُو، وقد تعصف بك حتى تشعر أنك عارٍ في وجه الريح، لكن لولا هذه القسوة ما نضجت الأرواح.
جلال الدين الرومي يهمس :

(لا تَحزن، فأي سقوطٍ يسبق النهوض)

إن الصفر، على قسوته، فضاءٌ نقيّ يتيح لك أن تبدأ من جديد بلا قيود الماضي، كأنك وُلدت مرة ثانية، أكثر وعياً وأكثر عزماً.

وحين يضيق عليك الزمن، تذكّر أن صبرك ليس هدراً.
كما قال الإمام عليّ :

(اصبر على مضض الإدلاج في الظلماء، فإنّ انتظار الفرج من أعظم الفرج)

أي أن الصبر في لحظة الشدة عين القوة، وأن بقاءك واقفاً في مواجهة الريح هو في ذاته انتصار ..

ولعل من أجمل ما قاله طاغور :

(إذا أغلقت الشمس بابك، فإن القمر يفتح لك نافذة)

فالحياة، وإن سدت بعض طرقها، تفتح أخرى لا يراها إلا من يصرّ على المضي قدماً.

الإنسان الذي لا ينكسر لا يكتشف معادن نفسه. فالهزيمة تفضح ضعفنا لكنها في الوقت نفسه تثير ما خُبئ في أعماقنا من قوة. كما قال المتنبي أيضاً :

إذا غُمرتَ في شدةٍ فاصبرْ لها

فخيرٌ عواقبِها يُجلي عنكَ غمّا

هذه الأبيات ليست مجرد زينة بلاغية، بل خلاصة فلسفة الصمود : أن العاقبة للثابتين، وأن ليل المحنة ينقشع لا محالة عن صبح الفرج.

ومن أقوال نيتشه :

(ما لا يقتلني، يجعلني أقوى)

وهي عبارة تحولت إلى دستورٍ للنفوس التي رفضت الاستسلام، ورأت في الجراح فرصة لإعادة التشكيل.

إن العودة إلى الصفر ليست نهاية الطريق، بل هي دعوة إلى إعادة الاكتشاف. فلتنهض مهما قست عليك الأيام، ولتتذكر أن كل سقوط يحمل في طياته بذرة نهوض، وكل انكسار يُمهّد لفتحٍ جديد. فالعظماء لم يُصنعوا في لحظات الرخاء، بل في قلب العواصف، حيث اختبروا

صلابة عزيمتهم.

قف، ولا تدع الأرض تألف جسدك، وارفع رأسك نحو الأفق، فالحياة لا تنتظر الكسالى .. انهض، وامضِ، ودع التاريخ يكتب عنك أنك لم تستسلم، حتى حين عاد بك القدر إلى الصفر أو ما دون الصفر بكثير ..

****

في ختام مقاربتنا لمغالطتنا الجديدة (**الدنيا دوارة**) ،

من الأنسب ألا نقول بعد الآن :

= لقد خسرت كل شيء و عدت إلى نقطة الصفر .. أنا

أعلن الاستسلام ..

بل أن نقول :

= حالتك ليست استثنائية بل يمر بها كل الناس ، فلكل بداية نهاية ، لكن ذلك لا يبرر الاستسلام ، فمن كل نهاية تبدأ بداية جديدة .. ينتهي يسر النهار فيبدأ عسر الليل و ينقضي عسر الليل فيصحو مجدداً يسر النهار و هكذا .. لذا اتكل على الله و ابدأ من جديد فإن بلوغك لليسر بعد السقوط له مذاق آخر ألذ بكثير ، لم تجربه عندما امتلكت اليسر بدون مقابل ..

الحياة ليست خطاً مستقيماً بل مدّ وجزر، صعود وهبوط، تداول للأيام بحكمة الله وعدله.

فكل عسرٍ يفتح باب يسر، وكل رخاءٍ يحمل في طياته درساً خفياً يذكّرنا بقيمة النعمة.

لكل بداية نهاية، ولكل نهاية بداية، والسقوط ليس موتاً بل مخاض ولادة جديدة.

كما ينهمر المطر بعد احتقان الغيوم ليبعث الأرض من سباتها، تنهض الروح بعد انكسارها.

الصفر ليس فراغاً، بل صفحة بيضاء يخطّ فيها الإنسان ملحمة صبره وعزيمته من جديد.

من لم يذق مرارة العسر لم يدرك سحر اليسر، ومن لم

يسقط لم يعرف لذة النهوض.

وهكذا يتجلى سرّ الوجود : أن نستمر، لا نستسلم، ونصون ما بين أيدينا بالشكر والبصيرة.

و تذكر أخيراً أن مخطط قلبك يتناوب بين صعود و هبوط طالما أنك حي و مؤثر ، فإن استقام فهذه إشارة إلى أنك مت و لم تعد تملك أي تأثير ، لا على حياتك و لا حياة من حولك ..

يوم مهل

(أحداث غيرت وجه التاريخ)

= أشعر بملل شديد يا صديقي .. اليوم مضى برتابة لا تطاق .. بلا أي حدث مثير أو مهم يذكر ..إنه يذكرني بتاريخ **11** نيسان من عام **1954** ..

= و ما قصة هذا اليوم بالضبط ؟

= كما تعلم ، ثمة أيام في التاريخ تُثقل الذاكرة البشرية بالدماء والبطولات، بالانتصارات المدوية والانكسارات العظيمة. وأيام أخرى تتلألأ فيها الحضارات كنجومٍ على صفحة الزمن، تُشعل التحولات وتبدّل مسار العالم. لكن بين هذه العواصف، يطل ذاك اليوم الغريب، يوم وُصف بأنه الأكثر مملًا في التاريخ ..

= و لماذا هو كذلك ؟

= لأنه يوم لم يسجل حربًا، ولا ثورة، ولا موتاً أو

ميلاداً لشخص شهير غير في التاريخ .. كان يومًا عابرًا، كحبة رمل في صحراء الزمن، لا يلتفت إليها أحد.

= لكن هذا ليس معيباً كما أعتقد، أليس في هذا الصمت معنى أعمق ؟ ربما كان هذا اليوم أشبه بصفحة فارغة في كتاب الوجود، يتركها القدر لتذكّرنا بأن التاريخ لا يُقاس دائمًا بما يحدث، بل بما لا يحدث.

= لم أفهم !!

= في غياب الحدث، يتسع المجال لحضور الإنسان العادي : ضحكة طفل لا يعرف أنه يعيش اليوم الأكثر مملًا ، امرأة تخبز خبزها بهدوء على التنور، رجل يزرع حقله دون أن يُدوّن اسمه في كتب المؤرخين.

إن هذا اليوم الممل يفضح وهمنا الكبير: أننا نبحث عن المعنى دائمًا في الضوضاء والصراع، بينما يتشكّل جوهر الحياة في التفاصيل الصامتة، في الأيام التي لا يذكرها أحد. فالتاريخ، مهما بدا عاصفًا، هو في جوهره نسيج من هذه اللحظات الصغيرة المجهولة، التي تمنح الأيام العظيمة معناها.

= أقنعتني ، ربما كان ذلك اليوم الممل بعين البشر ، أجمل من كل ما نتصور. لأنه لم يكن يومًا للتاريخ، بل يومًا للإنسان. يومًا عاش فيه الملايين دون أن يُطلب منهم أن يكونوا قادة أو علماء أو فنانين .. بل كان

الجميع أبطال و الكومبارس الوحيد هو التمييز .. يومًا عاديًا، ومن فرط عاديته صار استثنائيًا .. !!

****

يقال :

التاريخ يقاس بأحداثه المفصلية ..

هذا كلام صحيح بلا شك ، فلولاها لكنا جميعاً حتى اللحظة نقطن الكهوف و نهرب من المفترسات .. هو من منحنا القيمة ، و الأهم من جعلنا ندركها .. هو من سهّل حياتنا .. منحنا الأمن و الأمان ، التقدم و الدفء في كوكب بارد مخيف .. و لولا أحداثه الهامة للفظنا الكوكب منذ زمن .. فالإنسان انتزع وجوده عليه بيديه ، و كأن الملل و الصمت إقطاعي يحكم الكوكب ، ثم أتى الإنسان فأمّمه بأحداثه الجذرية ..

لذا و احتراماً لرحلة الكفاح البشري هذه سنقوم خلال الصفحات التالية باستذكار شيق لأبرز الأحداث المفصلية التي حرر بها الإنسان نفسه من أصفاد الملل الرتيب و الواقع الممل و المخيف ، و ذلك عبر النقاط الفلسفية و الثقافية الهامة التالية :

① التاريخ vs حياة الإنسان ..

② أبرز أحداث التاريخ ..

③ التاريخ ذاك المخرج العبقري ..

فهيا بنا عزيزي القارئ نكسر الممل الرتيب و نضفي على ساعاتنا بعضاً من الإثارة و التغيير ..

أولاً ، **التاريخ vs حياة الإنسان** :

التاريخ وحياة الإنسان يشبهان نهرين متوازيين، يسيران في مسارٍ رتيبٍ، أحيانًا هادئ، أحيانًا هائج، يحمل كل منهما ماء اللحظات العابرة.

في الأيام العادية، يبدو كل شيء متشابهًا : روتين مستمر، خطوات متكررة، دقائق تُنسى قبل أن تُكتب في الذاكرة.

تمامًا كما تمر الأيام العادية في حياة الإنسان، بلا أحداث كبيرة، بلا مفاجآت، بلا تغييرات دراماتيكية، إلا أن كل لحظة تمهّد الطريق للحدث القادم، كل قطرة ماء تؤدي إلى الفيضان و أحياناً إلى تسونامي بتأثير هائل ..

ثم يأتي الحدث المفصلي، ذلك اليوم الذي يغير كل شيء ، قد يكون اكتشافًا، مثل ولادة فكرة أو مشروع جديد، يفتح أبواب الفرص ويغمر الروح بالأمل ..

أو لحظة فرح، كزفافٍ أو لقاء طويل مع صديق قديم، يرسم الابتسامة على القلب، ويضيء الأيام القادمة كالشمس بعد الغيم.

وأحيانًا يكون حدثًا مؤلمًا، كسقوطٍ و انكسار أو وفاة، يذرف الدموع، ويجعل الإنسان يراجع مسار حياته، يعيد ترتيب أولوياته، ويصنع قوة جديدة من الحزن.

التاريخ يفعل الشيء ذاته، لكنه على نطاق عالمي.

الإمبراطوريات تنهار وتنهض، الثورات تكسر قيودها، الاكتشافات العلمية تفتح آفاقًا جديدة، الكوارث تعلم البشرية تواضعها أمام الطبيعة .....

كل حدث مفصلي في التاريخ يشبه الانكسار أو الانتصار في حياة الإنسان، يغير مسار المستقبل، ويعيد رسم لوحة الوجود .. تماماً كمسرحية يتم تمثيلها على خشبة مسرح ..

الفرق الوحيد أن التاريخ يجمع ملايين الأرواح في لحظة واحدة، بينما حياة الإنسان تتمركز حول قلبٍ

واحد و عقلٍ واحد و روحٍ واحدة، لكن التشابه في الجوهر مدهش : كلاهما يختبر الرتابة، ثم اللحظات العظيمة، ثم يعود إلى رتابة جديدة قبل أن يطل حدث آخر ..

الأمر الأكثر عمقًا هو أن التاريخ وحياة الإنسان ليسا معزولين عن بعضهما .. حياة الإنسان تصنع التاريخ بخياراتها، بجهودها، بقراراتها الصغيرة والكبيرة. و التاريخ بدوره يصنع حياة الإنسان، يفرض عليها تحدياته، يزرع فيها الفرص، ويضع أمامها تجارب لا تُنسى .. كل منهما سبب و نتيجة للآخر ..

في نهاية المطاف، حياة الإنسان والتاريخ كلاهما لوحة متحركة ، الأيام العادية هي خلفيتها، الأحداث المفصلية مضمون اللوحة و ألوانها الزاهية أو الداكنة، والابتسامة أو الدموع تضيفان ملمسًا من الواقع والروح.

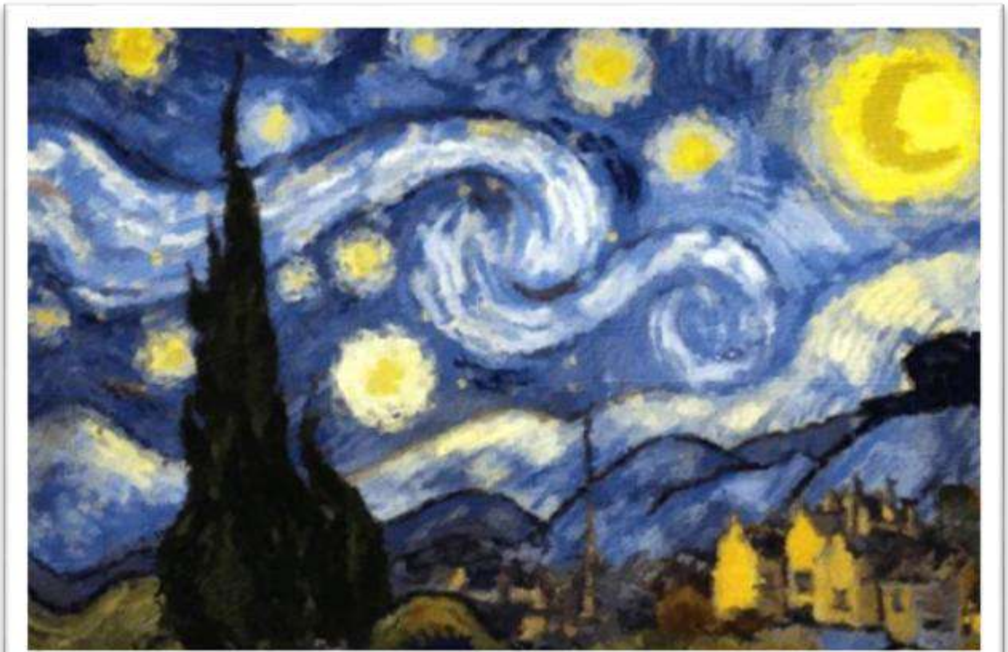

ولأنهما مرتبطان، فإن كل قصة فردية تنسج نسيج التاريخ، وكل فصل من التاريخ ينسج قصة حياة جديدة.

هكذا، نجد أن الإنسان والتاريخ يرقصان معًا على إيقاع الزمن، في نغمة رتيبة أحيانًا، وفي لحظات أخرى ثرية بالألوان، تشبه الموجة التي تجتاح الشاطئ، فتترك أثرها في الرمل قبل أن يمضي كل شيء إلى الأفق.

وفي النهاية، الوعي بهذا الترابط يجعل الإنسان أكثر احترامًا للزمن، أكثر حكمة في اختياراته، وأكثر تقديرًا للحظات العادية، لأنها هي التي تصنع السياق الذي يضيء فيه الحدث المفصلي، سواء بالفرح أو بالحزن، وتؤكد أن كل لحظة، مهما بدت صغيرة، هي جزء من لوحة أكبر، لوحة الإنسان والتاريخ معًا.

ثانياً ، أبرز أحداث التاريخ :

التاريخ يعج بالأحداث المفصلية التي انتهت بالبشرية إلى مصيرها الحالي ، لكن تبقى هنالك أحداث أكثر تأثيراً من غيرها ، نذكر أشهرها :

❁ اكتشاف النار :

في لحظةٍ أولى، حين لامست الشرارة عين الإنسان، انكشفت له حقيقة الكون.

النار لم تكن مجرد دفء أو طعام مطهو، بل بوابة

للسيطرة على الطبيعة .. هي الضوء الأول الذي بدّد ظلمة الجهل والخوف .. ومن بين ألسنتها وُلد الخيال، فصار الإنسان يحلم بالخلود .. كما أوقدت الرغبة في الغزو والاكتشاف .. فالنار معلمة الحضارة، وأمُّ كل الاختراعات ، ولولاها، لبقينا أسرى الظلام البدائي.

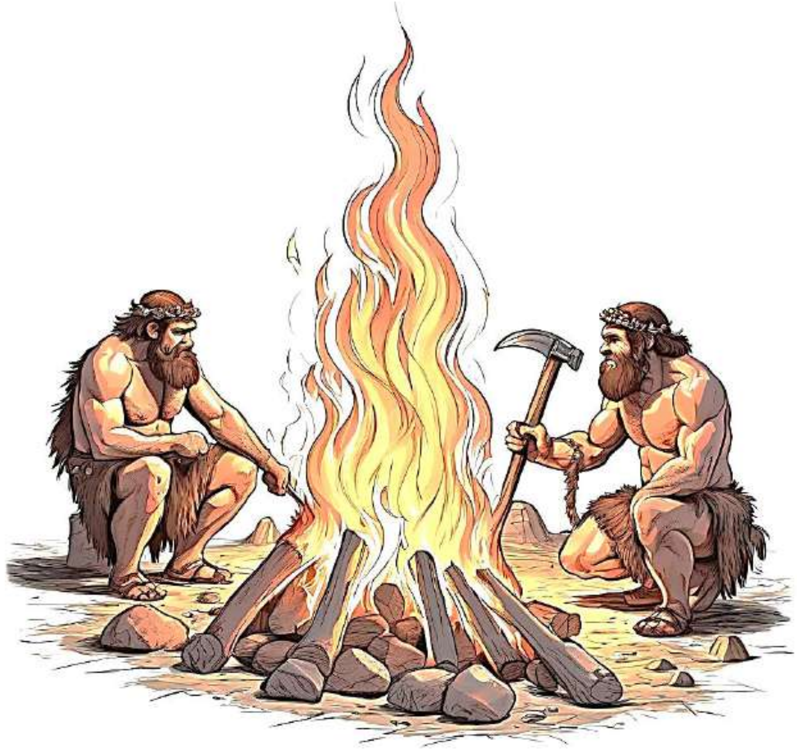

❁ اختراع الزراعة :

حين غرس الإنسان أول بذرة، تغيّر وجه العالم .. لم يعد مجرد صيّادٍ يتتبع الأثر، بل صانع حياة.

الأرض تحولت إلى كتاب مفتوح، يعلّمه كيف ينتظر الثمار.. ومن الانتظار وُلد الصبر، ومن الصبر وُلد الزمن ..

القرية قامت على حوافّ الحقول، فبدأت أولى ملامح

المدن.

الزراعة كانت فعلَ استقرارٍ وولادة حضارة ، لقد علّمته أن جذوره أعمق من خطواته.

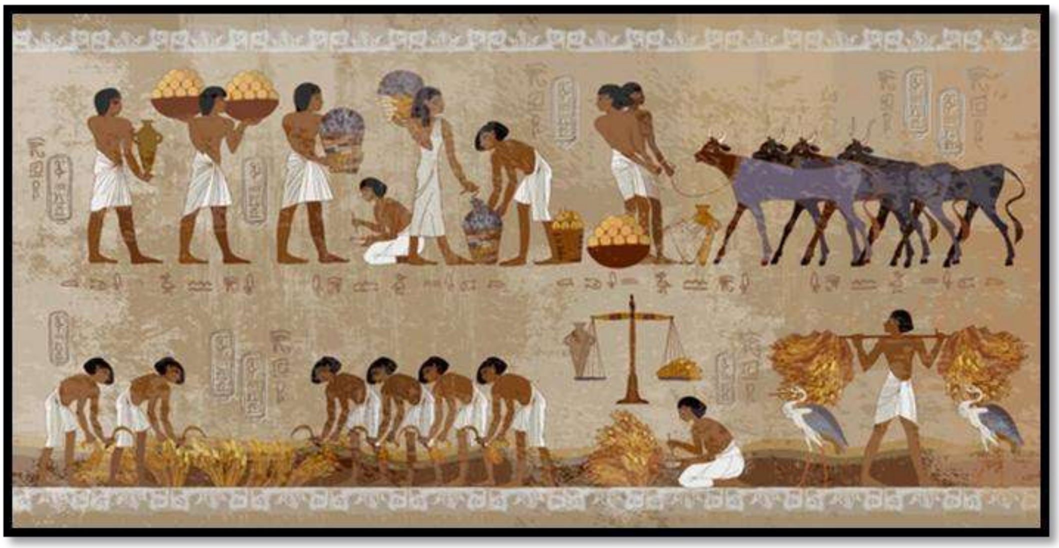

❁ اختراع الكتابة :

الحروف الأولى كانت جرحًا في الطين .. لكنها لم تكن جرحًا عابرًا؛ كانت ذاكرة الإنسانية تُزرع في التراب.

بالكتابة صارت الأفكار تعيش أطول من أصحابها.

حفظت القوانين، وغنّت الأشعار، وسجّلت الأساطير ،

من رقيم طينيّ إلى بردية غامضة إلى مخطوط مقدّس، حملت الكتابة الإنسان نحو الخلود.

الكتابة جعلت المعرفة ميراثًا مشتركًا .. وبها بدأ التاريخ يُكتب لا يُمحى أو ينسى ..

❁ بناء الأهرامات :

أهرامات الجيزة ليست مجرد حجارة مرصوصة ، بل صلوات متجسدة في صخر.

أراد الفراعنة أن يتحدوا الموت، فرفعوا جبالًا نحو السماء.

لم تكن قبورًا فقط، بل بيانًا عن قدرة الإنسان حين يتحد.

كل حجر فيها شاهد على عرق آلاف العمّال.

الهندسة تحولت إلى أسطورة، والدين إلى معمار خالد.

هي وصية صامتة تقول : (الحياة قصيرة، لكن الفن أبدي) ..

ومنها تعاظمت فكرة الخلود في وجدان البشرية.

❁ **الإمبراطورية الرومانية** :

روما لم تكن مدينة فحسب، بل فكرة .. شوارعها، قوانينها، وجيوشها، صنعت قلب العالم القديم.

بسطت جناحيها من بريطانيا حتى سوريا.

وفي صمت شوارعها المبلطة، كانت تُكتب حضارة جديدة.

القانون الروماني صار مرجعًا للأمم .. و المسرح و الأقواس المهيبة ظلّت تُلهم الفن.

حتى سقوطها، كان مجرد بداية لعصر آخر.

❁ **ميلاد المسيح** :

في مغارة صغيرة، وُلدت رسالة قلبت موازين الأرض.

لم يأتِ المسيح بسيف، بل بكلمة.

كان صوته ناعمًا، لكن أصداءه دوّت عبر القرون.

المحبة صارت ثورةً على الطغيان، والغفران أقوى من الحديد.

انتشرت تعاليمه كالماء العذب بين صخور الإمبراطوريات .. فولدت حضارة كاملة على اسمه.

وكان ميلاده فجرًا جديدًا للروح البشرية.

❁ ظهور الإسلام :

من صحراء مكة، انطلقت كلمة أضاءت العالم.

كان القرآن بحرًا من المعاني، والرسول مركبًا و قبطاناً

باسم التوحيد توحّد العرب، وباسم العدل امتدوا شرقًا

وغربًا.

اللغة العربية صارت وعاء العلم والفلسفة والشعر.

في بغداد وقرطبة، أزهرت الحضارة الإسلامية كحديقة كونية أعادت للعقل مكانته، وللروح قدسيتها.

فغدا الإسلام جسرًا بين السماء والأرض.

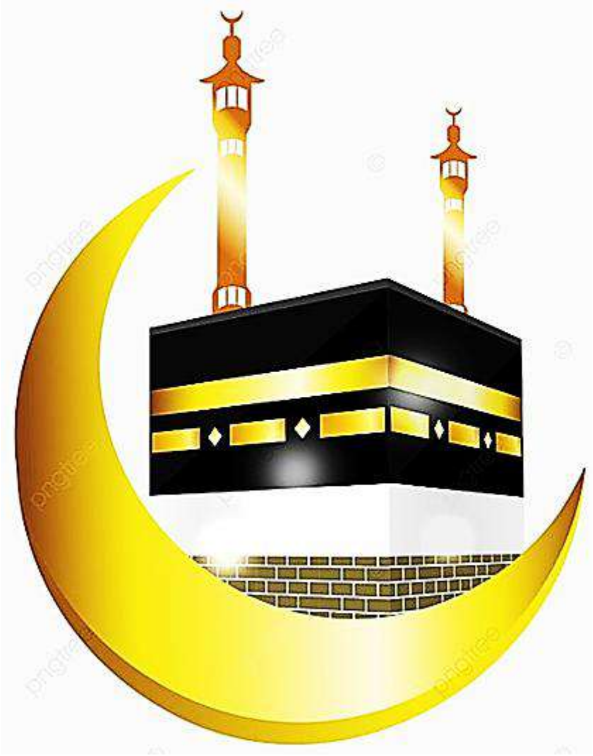

❁ سقوط روما :

حين سقطت روما، لم يسقط جدار، بل عالم بأكمله.

الإمبراطورية التي بدت أبدية، انهارت في لحظة ضعف.

المؤرخون سمّوها : (نهاية العصور القديمة).

و من رمادها ، وُلدت العصور الوسطى .. حقبة الظلام

السقوط كان درسًا عن زوال القوة مهما تعاظمت.

المدينة الخالدة أثبتت أنها فانية.

ومن ركامها بدأت أوروبا تكتب فصلًا جديدًا معتماً لكنه على موعد مع شمس أكثر إشراقاً من بعده ..

❁ اختراع الطباعة على يد غوتنبرغ :

الحروف المتحركة كانت ثورةً في صمت الكتب.

لم تعد المعرفة حكرًا على القليل، بل صارت متاحة للجميع.

كل صفحة مطبوعة كانت شعاع نور في ظلمة الجهل.

الأفكار بدأت تنتقل أسرع من الحروب و من الإمبراطوريات.

الكتب صارت جسورًا بين العقول، وحقولًا للخيال.

غيّرت الطباعة مفهوم السلطة على المعرفة.. وبها بدأت الإنسانية تستنير حقًا.

❁ اكتشاف كولمبوس لأمريكا :

بحرٌ مجهولٌ، ومركبٌ صغير، وعين تجرؤ على الحلم ، اندمجوا معاً لينبثق عنهم ما هو أكبر من مجرد اكتشاف أرض جديدة، بل بداية عصر للتبادل العميق.

العالم أصبح أصغر، والخرائط صارت أكثر ثراء.

أوروبا والأمريكتان تشابكتا في قصة جديدة ، أول أرض جديدة يطؤها إنسان ..

الذهب و القمح و الأمراض سافروا مع الرياح.

وكان الحلم أولى خطوات المصير المشترك.

هذا الاكتشاف أعاد تعريف العالم بأسره.

❁ الإصلاح الديني البروتستانتي :

مارتن لوثر رفع صوته في وجه الكنيسة.

كانت الكلمات بمثابة شرارة أحرقت الظلام الروحي.

لم يأتِ الإصلاح بالعنف وحده، بل بإعادة التفكير في الروح .. تحررت العقول من قيود التقليد الجامدة.

الدين صار نقاشًا، لا مجرد طقس.

الكنيسة القديمة اهتزت، والعالم الأوروبي بدأ رحلة جديدة.

الإصلاح أظهر قوة الكلمة والضمير الفردي و ربما

لولا هذا الإصلاح لما بلغت أوروبا ما بلغته اليوم من تطور ..

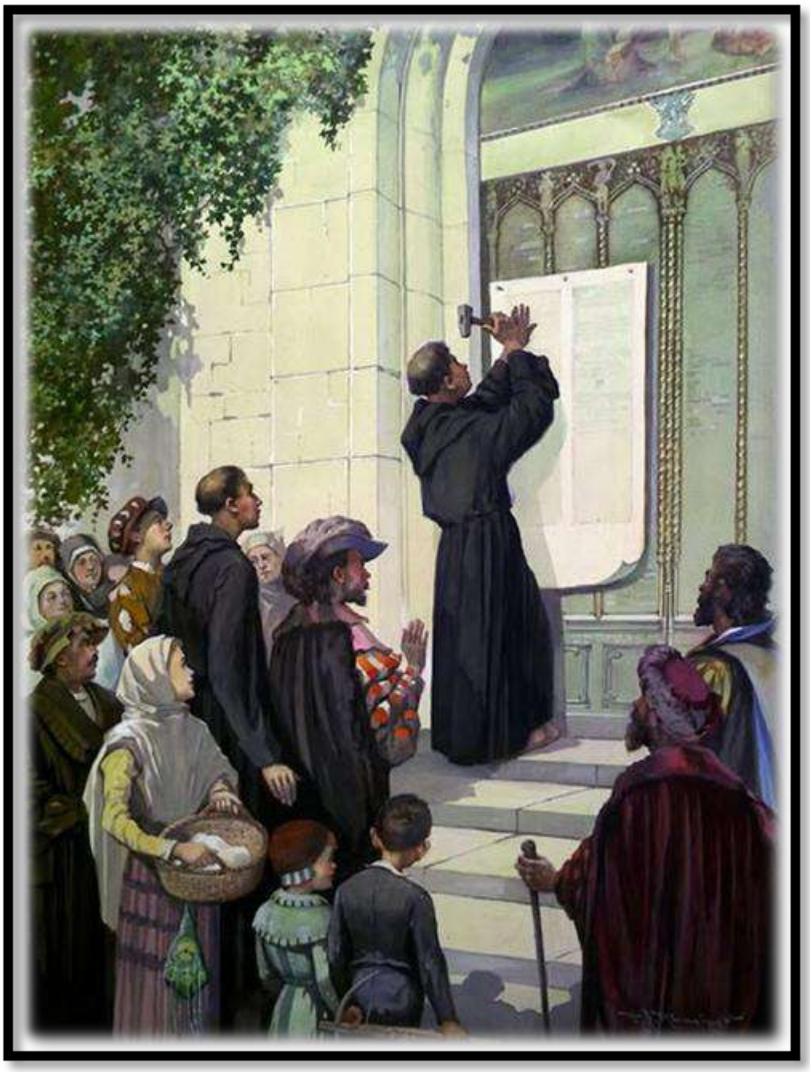

❁ الثورة العلمية :

حين رفع غاليليو عينيه نحو السماء، اهتزت الأرض تحت أقدام الجهل.

الكون لم يعد مكانًا مسكونًا بالخرافة، بل لوحة قوانين.

نيوتن وضع الجاذبية على الورق، فصارت قوة طبيعية واضحة.

الفكر صار أداة لرسم الواقع، لا مجرد تأمل.

العلم رفع الحجب عن الطبيعة، وكشف عن جمالها.

كل تجربة كانت رحلة نحو فهم الحياة.

الثورة العلمية كانت وعيًا بالكون وعقل الإنسان و لها الفضل في كل ما نتنعم به اليوم من اكتشافات و اختراعات و رفاهية و أدوات تعمل من أجلنا أكثر مما نعمل بها ..

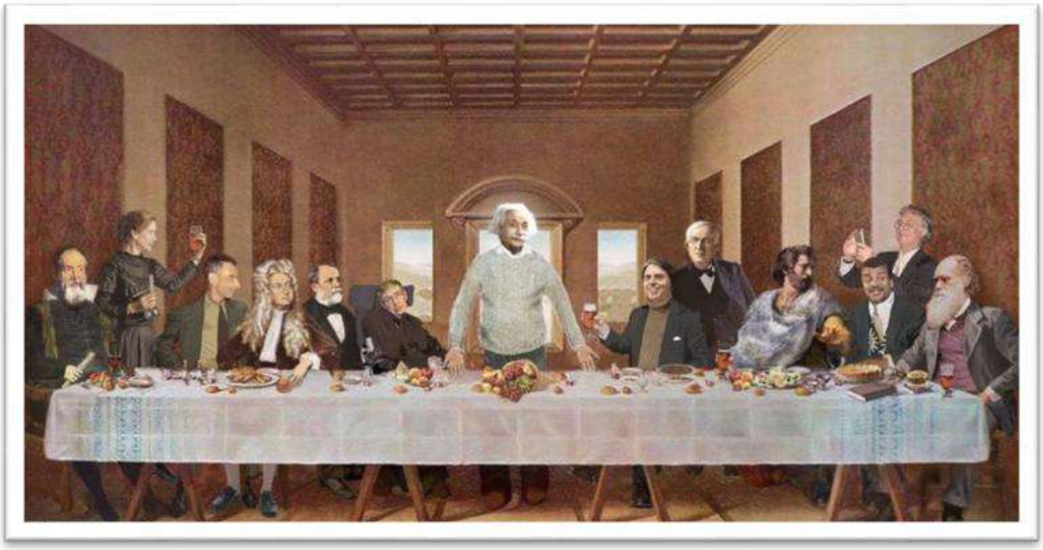

❁ الثورة الصناعية :

الدخان ارتفع من المصانع، والآلات بدأت تغني.

الحياة تغيرت من قرية هادئة إلى مدينة نابضة.

العمل صار أكثر انضباطًا، والوقت أصبح سلعة.

التكنولوجيا أعادت تشكيل الأرض والإنسان معًا.

البخار أطلق حركة التجارة والسفر.

لكنها جلبت أيضًا الصراع الاجتماعي و اللامساواة فكانت النهضة الفلسفية و الفكرية كالماركسية و غيرها.

الثورة الصناعية كانت بلا أدنى شك ميلاد العالم الحديث كما نعهده ..

الثورة الفرنسية :

الشارع هتف بالحرية والمساواة والأخوة.

الملوك اهتزوا أمام صرخات الشعب فانقلبت العروش عليهم ..

المفاهيم القديمة تلاشت، والمستقبل صار وعدًا بالكرامة.

الموت والدموع كانا جزءًا من ميلاد الجمهورية.

الحرية لم تعد حلمًا بعيدًا، بل هدفًا ممكن التحقيق.

التحولات السياسية امتدت إلى كل أوروبا فتهاوت الأنظمة غير الشرعية من ملوك و أمراء و قياصرة و دكتاتورات ..

الثورة الفرنسية علمتنا أن التاريخ يُكتب بالعزم والجرأة و أن الحقوق تنتزع و لا تعطى ..

❁ إلغاء العبودية في العالم :

قيد الإنسان لم يعد يحدد مصيره.

الحقيقة الإنسانية انتصرت على الظلم العتيق.

الحرية لم تعد فكرة، بل حق مكتسب و الأصفاد ذهبت إلى غير رجعة ..

المدن استنشقت هواء العدالة بعد سنوات الظلم الطويلة.

العبودية أظهرت وجه الإنسانية القاسي، وألغيت لتظهر وجهها الرحوم ..

لم تكن وليدة الصدفة بل تتويج لقرون من النضال الإنساني لتحقيق الحرية و العدالة ..

كل فرد صار مسؤولًا عن مصيره.

وكانت خطوة صغيرة، لكنها أساسية لبناء عالم أفضل.

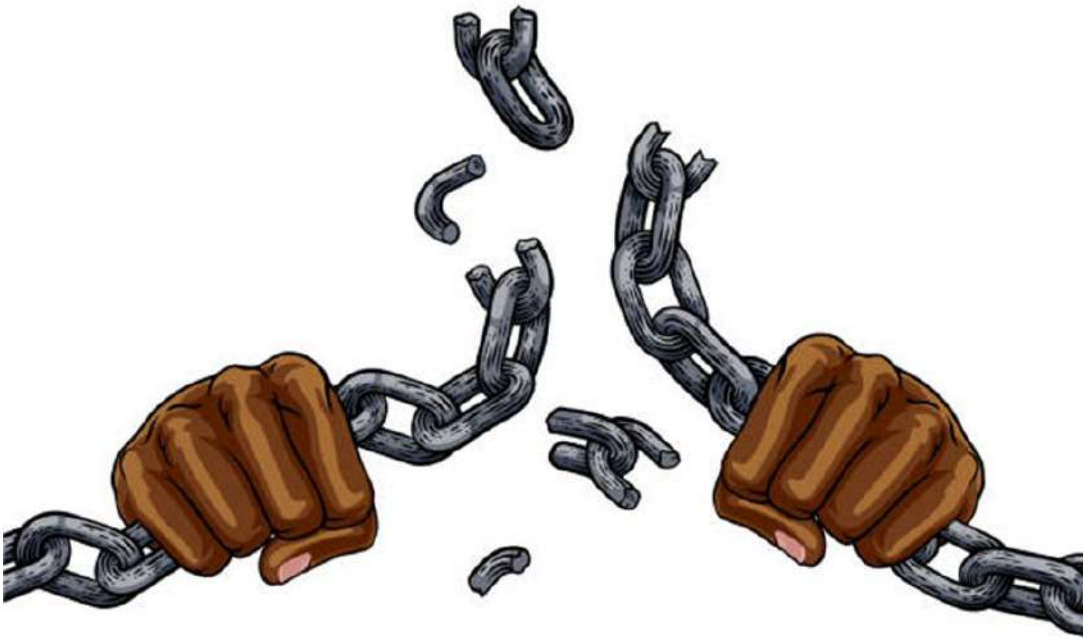

❁ الحروب العالمية :

الأرض اهتزت تحت أقدام الملايين، والسماء اختفت خلف ستر من دخان ..

القنابل والرصاص كتبوا صفحات الألم.

لكن في قلب هذا الخراب كله ، ولدت الأمم المتحدة.

البشر تعلموا أن القوة بلا حكمة مدمرة.

الجوع والخوف كانا دروسًا عن هشاشة الحضارة.

الحروب أعادت رسم الخرائط، لكنها أيضًا أعادت رسم الضمائر.

العالم بعد الحروب لم يعد كما كان، صار أكثر وعيًا

بالأخطاء.

❁ قنبلتا هيروشيما و ناغازاكي :

لحظة التحام الضوء والموت معًا.

مدينة اختفت في ثانية، و تعرّت البشرية أمام نفسها.

العلم صار سلاحًا لا يرحم، والقدرة على الدمار صارت مرعبة.

النجاة صارت معجزة، والخوف صار درسًا دائمًا.

التاريخ توقف ليعيد حساباته.

الوعي النووي غيّر كل صراع لاحق.

الذرية لم تعد مجرد حلم، بل اختبار أخلاقي للبشرية.

❁ الحرب الباردة :

العالم انقسم إلى قطبين، كأرض تنظر إلى نفسها في مرآة متقابلة.

التهديد كان صامتًا، لكنه حاضر في كل قلب.

التجسس والصواريخ والسباق العلمي كانت لعبة مصيرية.

العداء لم يتحول إلى حرب مباشرة، لكنه شكل التاريخ كله.

السياسة، الاقتصاد، والثقافة صارت ساحات الصراع الخفي.

الحرب الباردة علمتنا قوة التخطيط والدهاء.

والعالم أصبح أكثر ترقبًا لكل حركة.

❁ الهبوط على القمر :

الخطوة الأولى على سطح فضائي غريب، لكنها خطوة لكل البشر.

العين البشرية التقطت الأرض من بعيد، فبدت صغيرة وهشة.

المستحيل صار ممكنًا، والحلم صار حقيقة.

الفضاء أصبح مجالًا للتحدي والمعرفة.

الصمت في الفضاء أكبر من أي صرخة فرح على الأرض.

كانت لحظة تتجاوز السياسة والحدود .. لحظة صفاء للعلم لوحده ..

الإنسان اكتشف نفسه من جديد، وكأن الكون ابتسم له.

❁ ثورة الإنترنت و المعلومات :

شبكة غير مرئية تربط العالم كله .. كانت فكرة مجنونة و جامحة لكنها تشعبت في عالم الواقع و استعمرته ..

المعرفة صارت فورية، والحدود اختفت.

الإنسان صار جزءًا من وعي جماعي هائل.

الأفكار تتنقل أسرع من الصوت، والتاريخ يُكتب في الوقت الحقيقي.

الهوية الرقمية صارت امتدادًا للذات.

التكنولوجيا أعادت تعريف الحرية والمراقبة معًا.

وثورة الإنترنت لم تعد مستقبلاً، بل حاضرًا يعيشه كل فرد.

ثالثًا ، التاريخ ذاك المخرج العبقري :

التاريخ، يا صديقي، ليس مجرد سلسلة من الأيام أو أرقام تواريخية نحفظها ببرود، بل هو المخرج العبقري الذي يقف خلف ستار الزمن، ينسج أحداث المسرحية البشرية بإتقان لا يضاهى. كل مشهد، كل فصل، وكل سقوط أو انتصار، هو اختيار محسوب بعناية، كأن الكون نفسه يراقب المشهد من فوق، ويهمس : انظروا، هذا ما كتبته لكم .. التاريخ مخرج لا يعمل عشوائيًا، بل يعرف كيف يوزع المفاجآت، وكيف يجعل الصمت مؤقتًا قبل الانفجار الكبير، وكيف يجعل اللحظات الصغيرة تتلألأ كنجوم في سماء مسرحية الحياة.

عندما تهدأ الأحداث للحظة، نظن أننا فهمنا كل شيء، وأن الإيقاع أصبح رتيبًا، لكن التاريخ لا يهدأ طويلًا. فجأة، يظهر حدث غير متوقع، يقلب المشهد رأسًا على عقب، ويعيد الروح إلى المسرحية. إمبراطورية تنهار بين ليلة وضحاها، فكرة بسيطة تولد في قلب الخراب، شاعر يكتب كلمة تغيّر عقول الملايين، أو شعب يثور بعد قرون من الصمت. كل هذه الانعطافات الدرامية تأتي لتذكرنا بأن المسرحية البشرية لا يمكن التنبؤ بها، وأن الإنسان، مهما ظن أنه متحكم، يظل جزءًا من نص أكبر .. أكبر من قدرته على الفهم أو السيطرة.

وهنا تكمن عبقرية التاريخ : في المفاجأة، في الانقلاب، في اللحظة التي تعيد تشكيل كل ما اعتقدنا أننا عرفناه. إننا، **المشاهدون و الممثلون في آن واحد**، نجلس على حافة الزمان، نتابع الأحداث بدهشة، ونشارك في صياغتها بأفعالنا، بأفكارنا، حتى بأحلامنا. لا يمل المشاهد، لأن كل مشهد يحمل معه وعدًا بالدهشة التالية، وكل صمت هو فرصة لتجميع الأنفاس قبل الانفجار القادم .. و كل منا يجهل الدور الموكل لغيره ، و في كثير من الأحيان دوره هو فيبدأ بالارتجال ..

وفي النهاية، نجد أن التاريخ، بهذا الإيقاع المتصاعد، بهذا التلاعب بالدهشة والهدوء، هو أكثر من مجرد زمن : إنه تجربة حيّة، مستمرة، تجعلنا نشعر بالخلط الغريب بين المشاهدة والمشاركة، بين التأمل والفعل.

نحن لا نمل من التمثيل في هذه المسرحية، لأن كل لحظة تحمل فرصة جديدة، وكل فصل يفتح لنا نافذة على عالم مختلف، وكل مفاجأة تذكرنا بأن عبقرية المخرج تكمن في عدم إعطاء كل شيء دفعة واحدة، بل في إبقاء المسرحية حيّة، نابضة، متجددة بلا توقف.

في هذه المسرحية نمثل و نشاهد .. نؤثر و نتأثر .. نبكي .. نضحك .. نسقط ثم ننهض .. و أجمل ما في القصة على الإطلاق هو عجزنا عن توقع النهاية مهما حاولنا .. و أقوى الأفلام و الروايات ما حبس أنفاسك حتى آخر كلمة و آخر مشهد حينما يتبدد الضباب أمام عينيك و تفهم كل شيء سبق و أن حدث ..!!

******

في ختام مقاربتنا لمغالطتنا الطبية الجديدة (**يوم ممل**) ، من الأنسب ألا نقول بعد الآن :

= التاريخ مسرحية مملة ، قصة ضعيفة و نهاية متوقعة

بل أن نقول :

= التاريخ مخرج عبقري .. يهندس قصة الحياة البشرية على نحو مثير يحبس الأنفاس .. لا تتوقع متى يهدأ الإيقاع و متى تعصف بك الانعطافة التالية .. كلنا ممثلون أمام كاميرته و كلنا مشاهدون من خلفها .. و أجمل ما في القصة كلها أنها ذات نهاية مستحيلة التنبؤ بها .. أو ربما .. بلا نهاية .. يقول قائل !!

الأرض قماشة بيضاء، واسعة، صامتة، تنتظر لمسة الفرشاة الأولى.

التاريخ يحمل ريشته، ويبدأ برسم خطوطه الخفية، خيوط دقيقة تتقاطع لتشكل اللوحة العظيمة.

كل حدث مهم هو لون نابض، نقطة ضوء في بحر الصفاء، تمنح اللوحة حياتها.

الحضارات تولد وتموت، الأبطال يمضون ويتركون أثرهم، لكن بريشة التاريخ خطوطهم تعرف الخلود ..

الثورات والانتصارات، الاكتشافات والاختراعات، كل واحدة منها رمز، بطل، وزهرة على هذه القماشة.

أحيانًا يظهر الظلام ليعطي الضوء قيمة، والفشل ليبرز النجاح، والصمت ليجعل الصوت أعظم.

في النهاية، التاريخ لوحة حية، تتغير ألوانها وتفاصيلها، لكن جمالها يكمن في تلك اللحظات الحاسمة، التي

رسمت الإنسان كما نعرفه اليوم، وجعلته بطلًا لقصته الخاصة، فناناً مبدعًا و جمهوراً متلقيًا في آن واحد ..

الكون DNA ...

محتوى الكتاب :

- مغالطة إيكو (لعنة حورية)
- مغالطة الأخوة الأعداء !! (بيضة واحدة متحدة)
- مغالطة حلال على الشاطر (سيزيف ملك التزييف)
- مغالطة يوم القيامة (نهاية البداية و بداية اللانهاية)
- مغالطة الكوكب المضجر (ما خفي كان أعظم)
- مغالطة ميثولوجية (تفسير ما لا يفسّر)
- مغالطة لو أنّي (ندامة الكسعيّ)
- مغالطة لن أسجد لآدم (نرسيس)
- مغالطة النفق الكمي (DOCTOR STRANGE)
- مغالطة تيلوميراز (حصان طروادة)
- مغالطة الإرهاب (القوة كقناع للخوف)
- مغالطة برديّة فيزاليوس (مشرط حجري)
- مغالطة المعجزة (عندما تسجد القوانين و يتنحى المنطق)
- مغالطة DNA الكون (البرمجة المسبقة)
- مغالطة جسد للإيجار (بل الإنسان على نفسه بصيرة)
- مغالطة أساطير حيّة (واقع أغرب من الخيال)
- مغالطة الدنيا دوّارة (يخرج الميّت من الحيّ و الحيّ من الميّت)
- مغالطة يوم ممل (أحداث غيرت وجه التاريخ)